الجزء الثاني

احتجاج صاحب الكلب بالأشعار المعروفة

والأمثالِ السَّائرة والأخبار الصحيحة والأحاديث المأثورة، وما أوجد العيان فيها، وما استخرجت التجاربُ منها من أصناف المنافع والمرافق، وعن مواضع أخلاقها المحمودة وأفعالها المرادة.

ونبدأ بقول العرب: إنَّ دماءَ الملوك شفاءٌ من داء الكلب، ثُمَّ نذكر الأبواب لما قدَّمنا فـي صـدر كلامنا هذا، قال بعض المُرِّيِّين:

الخلاّنَ بعد أبى عمـير بِحجْرٍ في لقائهـمُ جَـفـاءُ
البِيض الوُجوهِ بني سنان أنَّكَ تستضيئ بهم أضاءوا
شمسُ النَّهارِ إذا استقَّلت ونُورٌ ما يغيِّبُه الـعَـمـاءُ
مَكـارمٍ وأسـاةُ كَـلـمٍ دِماؤهمُ مِنَ الكلَبِ الشفـاء

وقال الفرزدق:

الدارميِّين الذين دِماؤهـم من الدَّاء المجنّة والخبْلِ

وقال عبدُ اللَّه بنُ قيس الرّقَيَّات:

عاوَدَني النُّكسُ فاشتفيت كما تشفي دِماء الملُوكِ من كَلَبِ

وقال ابن عَيَّاش الكنديُّ لبني أسَد في قتلهم حُجْرَ بنَ عمرو:

العصا جئتمْ بقتلِ رئيسِكمْ وكمْ تامورا شفاءً من الكلَبْ

وقال الفرزدق:

تَشربُ الكَلْبى المِرَاضُ شَفَتْها وذو الخَبْلِ الذي هو

أدْنَفُ

وذاك أنَّهمْ يزعمون أنَّ دماءَ الأشراف والملوك تَشفي من عَضَّـةِ الكلْـبِ الكلَـبِ، وتَشـفي مـن الجنون أيضاً، كما قال الفرزدق:

تشربُ الكَلْبَى المِرَاضُ شفـــتـــهـــــا

ثم قال: وذو الخَبْلِ الذي هـو أدْنَـفُ وقـد قـال ذلـك عاصـم بـن القِرِّيَّة، وهو جاهليّ:

وداويتُهُ مما بِهِ مـن مَـجَـنةٍ ابنِ كُهالِ والنِّطاسيُّ واقفُ
دهـراً تـمـيمةَ جَـدِّه لِشيءٍ كادَهُ اللَّهُ صارفُ

وكان أصحابنا يزعُمون أنَّ قولهم: دماء الملوك شفاءٌ من الكلب، علـى معنـى أنَّ الـدَّم الكريـم هو الثأرُ المُنيم، وأنَّ داء الكلب على معنى قول الشاعر:

مِن حِسِّ ما قد مسَّهُ وأفانين فُؤاد مُخْتَـبـلْ

وعلى معنى قوله:

بِضرْبٍ جَماجِمِ ورِقابِ

فإذا كَلِبَ من الغيظ والغضب فأدركَ ثأرَه فذلكَ هو الشفاء من الكلَب، وليس أنَّ هناك دماً في الحقيقة يُشربُ ولولا قول عاصم بن القرِّيَّة: والنِّطاسيُّ واقفُ، لكان ذلك التأويـلُ جـائزاً، وقـول عوف بن الأحوص:

العنقاء ثعلبة بن عمرو دِماءُ القَومِ للكَلْبَى شِفـاءُ

وفي الكلب يقول الأعشى:

وعَمْراً بيننا دَقُّ مَنْشِمٍ فلم يبق إلاَّ أنْ يُجَنَّ وأكلبا

ألا ترى أنَّه فرَّق بينهما، ولو كان كما قال لبيد بن ربيعة:

خُزيمةُ في قومٍ على الحمالة هل بالمرء مِن كلَبِ
ليهلكـهـمْ

لكان ذلك على تأويل ما ذهبوا إليه جائزاً، وقال الآخر:

أميري قد أطَعتمْ فإنَّ ما كَواه بَنارٍ بينَ عينيه مُكلـبُ

وهذا عندي لا يدخل في الباب الأوَّل، وقد جعلوه منه.

طباع الكلب العجيبة

قال صاحبُ الكلب: وزعمتم أنّه يبلغُ من فضل قوَّة طباع الدِّيك في الإلقاح، أنَّه متى سفد دجاجة وقد احتشت بيضاً صغاراً من نتاج الرِّيح والتراب، قلبها كلَّها حيواناً ولو لم يكنْ سفِدها إلاَّ مرَّةً واحدة، وجعلتموه في ذلك بغاية الفِحْلة، فطباعُ الكلب أعجبُ إلقاحاً وأثقبُ، وأقوى وأبعد، لأنَّ الكلبَ إذا عضَّ إنساناً، فأوَّل ذلك أنَّ يُحيله نبَّاحاً مثله، وينقلَه إلى طباعه، فصار ينبح، ثم يُحبله ويُلقحه بأجراءٍ صغار يَبولُها عَلقاً في صُوَر الكلاب، على بُعد ما بين العُنصرينِ والطَّبعين والجنسين، والذى يتولَّد في أرحام الدجاج، أقرب مشاكلة إلى طباع الديك، فالكلب هو العجب العجيب، لأنَّه أحبَلَ ذكراً من خِلاف جنسه، ولأنّه مع الإحبال والإلقاح، أحاله نبَّاحاً مثله، فتلك الأدراص وتلك الكلاب الصغار، أولادٌ ونِتـــــــــــاج، وإن كـــــــــــان لا يبقـــــــــــى.

وقد تعلمون أنَّ أولادَ البغْلات من البغال لا تبقى، وأن اللِّقاح قد يقع، وإنما مُنع البغل من البغلة بهذه العلَّة.

كتاب الحيوان
الجاحظ

أسرة تتوارث دواء الكلب

قال أبو اليقظان وغيره: كان الأسود بن أوس بن الحُمَّرة، أتى النَّجاشيَّ ومعه امرأته، وهي بنت الحارث أحد بني عاصم بن عبيد بن ثعلبة، فقال النجاشيُّ: لأعطينَّك شيئاً يشفي من داء الكلب، فأقبَلَ حتَّى إذا كان ببعض الطريق أتاه الموت، فأوصى امرأته أن تتزوَّج ابنه قِدامة بنَ الأسود، وأن تعلّمه دواء الكلَب، ولا يخرُج ذلك منهم إلى أحد، فتزوَجته نِكاح مَقْت، وعلّمته دواء الكلب، فهو إلى اليوم فيهم.

فوَلدَ الأسود قُدامة وولد قُدامة المُحِلَّ وأمُّه بنت الحارث فكان المحِلُّ يُداوي من الكلَب، فولد المحلّ عُقبةَ وعمراً، فداوى ابنُ المحلُ عُتيبة بن مرداس، وهو ابن فَسوة الشاعر، فبال مثلَ أجراء الكلب عَلَقاً، ومِثل صوُر النَّمْل والأدراص فقال ابن فسوْة حين برئَ:

دواءُ ابنِ المُحِلِّ وعلمُهَرَرتُ إذا ما النَّاس هَرَّ كلابهُا
عبد اللَّـه أولاد زارعٍ مُوَلَّعَة أكتافها وجنوبُها

وأولاد زارع: الكلاب.

وأمَّا قوله:

دواء ابنِ المُحِلِّ وعلمه هررتُ

فإنَّما ذهبَ إلى أنَّ الذي يَعَضُّه الكلْبُ الكلِبُ، ينبح نباح الكلاب ويَهِرُّ هريرها.

أعراض الكَلَب

وقال محمَّد بن حفص، وهو أبو عبيد اللَّه بن محمد، ابن عائشة: عضّ رجلاً من بَني العَنْبرِ كلبٌ كلب فأصابه داءُ الكلب، فبال عَلَقاً في صورةِ الكلاب، فقالت بنت المستَنْثر:

أدراصاً وأولادَ زارعٍ وتلكَ لعمْري نُهيَة المتعَجِّبِ

وحدَّثني أبو الصَّهباء عن رجالٍ من بني سعدٍ، منهم عبد الرحمن بن شبيب، قالوا: عضّ سنجيرَ الكلبُ الكلِب، فكان يعطشُ ويطلُبُ الماء بأشدِّ الطلب، فإذا أتوه به صاح عند معاينته: لا، لا أريد، وهكذا يصيب صاحبَ تلك العضّة، وذلك أنَّه يعطش عنها أشدّ العطش ويطلب الماء أشدَّ الطلب، فإذا أتوه به هرَب منه أشدَّ الهرب، فقال دَلَم وهو عبدٌ لبني سعد:

جئت يا سنجير أجلو ملقة للشيء الذي أنت طالب

وهي أبياتٌ لم أحفظ منها إلاَّ هذا البيت.

وذكر مَسْلَمَة بن محارب، وعليُّ بن محمَّد عن رجاله، أنَّ زياداً كتب دواء الكلب، وعلَّقه على باب المسجد الأعظم، ليعرفه جميع الناس.

ردّ على ما زعموا من أعراض الكلب

وأنا، حفظك اللَّه تعالى، رأيتُ كلباً مرّةً في الحَيِّ ونحنُ في الكتَّاب، فعرض له صبيٌّ يسمّى مهديّاً من أولاد القصّابين، وهو قائم يمحو لَوحهُ فعضّ وجهه فنقع ثَنيَّته دونَ موضع الجفن من عينه اليسرى، فخرق اللحمَ الذي دون العظم إلى شطر خدّه، فرمى به ملقيَّاً على وجهه وجانبِ شِدقه? وترك مُقلتَه صحيحة، وخرج منه من الدّم ما ظننتُ أنَّه لا يعيش معه، وبقي الغلامُ مبهوتاً قائماً لا ينبس، وأسكته الفزع وبقي طائر القلب، ثمَّ خيط

ذلك الموضعُ، ورأيته بعد ذلك بشهر وقد عاد إلـى الكُتّـاب، وليـس في وجهه من الشَّتْر إلا موضعُ الخيط الذى خيط، فلم ينبَحْ إلى أن برئَ، ولا هرَّ، ولا دعا بماءٍ، حتَّى إذا رآه صـاح: رُدُّوه ولا بـال جـرواً ولا عَلقاً، ولا أصابه ممَّا يقولون قليل ولا كثير، ولم أجدْ أحـداً مـن تلك المشايخ، يشكُّ أنَّهم لم يَروا كلباً قطُّ أكْلَـبَ ولا أفْسَـدَ طبعـاً منـــــــــه، فهـــــــــذا الـــــــــذي عـــــــــاينت.

وأما الذي بلغني عن هؤلاء الثقات فهو الذي قد كتبتُه لك.

مما قيل في الكلب الكلِب

وفي الكَلْبِ الكَلِبِ أنشد الأعرابي:

اللَّه فإنِّي مـنـقـلـبْ وإنّما الشاعر مجنون كـلـبْ
يأتي على فيه الكَذبْ

إما أن يكون الشعر لِهمْيان وإما أن يكون للرَّفيان، وأنشدني:

كنتُم كَلْبى فعندي شفـاؤكـم وفي الجنِّ إن كانَ اعتراك جُنونُ

وأنشدني:

أدري إذا لاقيتُ عَمْراً أكَلْبَى آلُ عمرو أمْ صِحاحُ

قال: فأما المُكلب الـذي يصـيبُ كلابَـه داءٌ فـي رُؤُوسـها يسـمَّى الجُحام فتُكْوى بين أعينها،

مسألة كلامية

وسنذكر مسألة كلاميَّة، وإنَّما نذكرها لكثرة من يعترض فـي هـذا ممَّن ليس له علم بالكلام، ولو كان أعلمُ الناس باللغة، لم ينفعـك في باب الدين حتّى يكون عالماً بالكلام، وقد اعـترض معترضـون في قوله عزّ وجل: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأ الَّذي آتيناهُ آياتنا فانسلخَ منهـا فأتبعه الشيطانُ فَكَانَ من الْغاوين، وَلوْ شـئنا لَرَفَعنـاهُ بِهَـا وَلكنَّـهُ أَخْلدَ إلى الأرض واتَّبَع هَوَاهُ فمثُلـهُ كمثـل الكلـب إنَ تحْمِـلْ عَلَيـه يَلهثْ أو تَتْركْهُ يلهثْ ذلك مَثلُ القومِ الَّذين كذَّبوا بآياتنـا" فزَعَمـوا أنَّ هـذا المثَـلَ لا يجـوزُ أن يُضـرَب لهـذا المـذكور فـي صـدر هـذا الكلام، لأنه قال: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنا فَانْسَلَخَ مِنْهَـا"، فما يُشبَّه حالُ من أُعطي شيئاً فلم يقبله - ولم يـذكر غيـر ذلـك - بالكلب الذي إن حملتَ عليه نبح وولى ذاهباً، وإن تركته شدَّ عليك ونبح، مع أنّ قوله: يلهث، لم يقع في موضعه، وإنما يلهـث الكلـب من عَطشٍ شديد وحرٍّ شديد، ومن تعب، وأما النُّباح والصِّياح فمن شيء آخر، قلنا له: إن قال "ذلكَ مَثَلُ القَومِ الَّذين كذَّبوا بآياتنـا"، فقد يستقيم أن يكون الرادّ لا يسمَّى مكذباً، ولا يقال لهم كذَّبوا إلا وقد كان ذلك منهم مراراً، فإن لم يكن ذلك فليس ببعيد أن يشـبَّه الذي أوتي الآيـات والأعـاجيب والبرهانـات والكرامـات، فـي بـدء

حرصه عليها وطلبه لها، بالكلب في حرصه وطلبه، فإنَّ الكلبَ يُعطي الجِدَّ والجُهْد من نفسه في كلِّ حالةٍ من الحالات، وشبَّه رفضه وقذفه لها من يديه، وردَّه لها بعد الحرص عليها وفرط الرغبة فيها، بالكلب إذا رجع ينبح بعد إطرادك له، وواجبٌ أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة في وزن طلبهم والحرصِ عليها، والكلب إذا أتعب نفسه في شدَّة النُّباح مقبلاً إليك ومدبراً عنك، لهث واعتراه ما يعتريه عند التَّعب والعطش، وعلى أنَّنا ما نرمي بأبصارنا إلى كلابنا وهي رابضةٌ وادعة، إلا وهي تلهث، من غير أن تكون هناك إلا حرارة أجوافها، والذي طُبعت عليه من شأنها، إلا أنَّ لهث الكلب يختلف بالشدَّة واللِّين.

كرم الكلاب

وقال صاحب الكلب: ليس الدِّيك من الكلب في شيء، فمن الكلاب ذواتُ الأسماء المعروفة والألقاب المشهورة، ولكرامها وجوارحها وكواسبها، وأحرارها وعتاقها، أنسابٌ قائمةٌ ودواوينُ مخلّدة، وأعراقٌ محفوظة، ومواليد مُحصاة، مثل كلب جذعان، وهو السَّلْهبُ بن البراق بن يحيى بن وثّاب بن مظفِّر بن مُحارش.

كتاب الحيوان
الجاحظ

شعر فيه ذكر أسماء الكلاب

وقد ذكر العرب أسماءَها وأنسابها، قال مزرِّد بن ضرار:

قريضَ الشّعر إن كنت غزير الشعر ما شاء قائل

صبُاحيٍّ طويل شقاؤه رَقَميَّات وصَفراءُ ذابل
له مما يبرّي وأكلبٍ في أعناقهنَّ السَّلاسلُ

ومِقلاء القَنيصِ، وسلْهبٌ وجدْلاءُ، والسَّرْحان، والمتناولُ

سلُوقِيَّينِ كانا حياته فماتا فأودى شخصُه فهو خاملُ
إذْ ماتا بجُوع وخَلَّةٍ لَهُ الشَّيطانُ: إنَّك عائلُ

فطوّفَ في أصحابه يستثيبهمْ وقد أكْدتْ عليه المسائلُ

صبيةٍ مثل المغالي وخِرملٍ رَوادٍ، ومن شرِّ النساء الخراملُ
لها: هَل من طعامٍ إليك الناسَ، أمُّكِ هابلُ

: نَعمْ، هذا الطَّويُّ ومُحتَرقٌ من حائل الجلد قاحِلُ

تناهتْ نفسُه مِن طولِ ألمِه وأمسى طليحاً ما يُعانيه باطلُ
تَغشَّى، يريدُ النّوم، فضل على العينِ الرُّقاد البلابلُ

ففكِّرْ في هذا الشعر وقِفْ على فصوله، حتى تعرف غناء الكلاب عندهم، وكسبها عليهم، وموقعها منهم، وقال لبيدٌ في ذكرها وذكر أسماءَها:

لتذودهنَّ وأيقنتْ إن لم تَذُدْ أحمَّ مِنَ الحتوفِ حمامُها
فتقصَّدتْ منها كَسابِ وضرِّجت وغُودِرَ في المَكَرِّ سُخامُها

عادة الشعراء حين يذكرون الكلاب

والبقر في شعرهم

ومن عادة الشعراء إذا كان الشـعرُ مَرثيـةً أو موعظـةً، أن تكـون الكلابُ التي تقتلُ بقرَ الوحش، وإذا كان الشعر مديحاً، وقال كأنّ ناقتي بقرة من صفتها كذا، أن تكون الكلابُ هـي المقتولـة، ليـس على أنَّ ذلك حكاية عن قصّة بعينها، ولكـنَّ الثِّيـران ربَّمـا جرحـت الكلاب وربَّما قتلتها، وأما في أكثر ذلك فإنَّها تكون هـي المصـابة، والكلاب هي السالمة والظافرة، وصاحبها الغانم،

شعر آخر فيه ذكر لبعض أسماء الكلاب

وقال لبيدٌ في هذا القول الثاني غير القول الأول، وذلك على معنى ما فسّـرت لـك، فقـال فـي ذلك وذكر أسماءها:

وانشقَّ الضَّبابُ وهاجه قفرةٍ يُشْلى رِكاحاً وسائلا
عوابسَ كالنُّشَّاب تدمَى نحورُهلِزْن دماءَ الهاديات نـوافـلا

ومن أسمائها قولهم: على أهلها جنثْ براقش، ومن أسمائها قول الآخر: ضبَّار:

سفَرتْ فقلت لها هَجِ فتبرقَعَتْفذكرْتُ حينَ تبرقعتْ ضَبَّارا

وقال الكُميت الأسديّ:

وباتتْ عليه الـسَّـمـا ءُ من كلِّ حابيةٍ تَـهْـطُـلُ
كما اجتنح الهـالـكـيّ على النّصْل إذ طُبع المنْصُلُ

ثم ذكر أسماء الكلاب فقال:

ضِبْن حِقفٍ يرى حِقْفَه خَطافِ وَسرْحَةُ والأحْـدلُ
كقِـداح الـسَّـرا ء لا عانـياتٌ ولا عُـبَّـلُ

وقال الآخر:

وباتَ جليد اللَّيل يَضـربـنُـا البُيوتِ قرَانا نبْح درواسِ
بطنَه ألبانهـا حَـلَـبـاً تغنِّيه وضْرَى ذاتُ إجراسِ

ودرواس: اسم كلب، والوضرى: استه، وغناؤها: الصُّراط، وقال ضابئ بنُ الحارثُ في ذلكَ:

فترمّلَـت بـدمٍ قَـدامِ وَقـدْ أوفى اللَّحاقُ وحانَ مصرعه

وقال الآخر:

له الـلَّـه من التوفيق أسبابا
نفسَه عَمراً وسمَّى الكلبَ وثَّابا

ومثل هذا كثير.

أحرص الكلاب

والكلبُ أشدُّ ما يكون حرصاً إذا كان خطمُهُ يمسّ عجْبَ ذنب الظَّبي والأرنب والثَّور وغير ذلك، مما هو من صيده، ولذلك قال الشاعر:

أغدو مَعي كلبـي طالباً للصيّد في صحبي
فسمَونا للقنيص مـعـاً فدفعنـاهُ إلـى أظْـبِ
فاستدرَّتْه فـدرَّ لـهـا يَلْطمُ الرُّفْغينِ بالتُّـرب
فادَّراها وَهْـيَ لاهـيةٌ جميم الحاج والغَرْب
جُمَّاعهـنَّ كـمـا مخلولان من عَصبِ

ثم قال:

يعفورٍ أُهـلّ بـه جاف دَفَّيهِ عن القَلْـب
لَحْيَيهِ بمخْطِـمِـهِ ضَمَّك الكسرَين بالشعبِ
وانتحى للباقياتِ كـمـا كَسَرتْ شَغْواءُ من لهْبِ
التَّيسُ حين كـبَـا ودنا فُوهُ من العَـجْـبِ
بالوعساء ينفُـضـه آرِماً منه على الصُّلْبِ
لذَّاتي وكنتُ فـتًـى لم أَقُلْ من لذّةِ حسبـي

الإهلال والاستهلال وأما قوله: غير يعفور أُهلَّ به، فالإهلال الذي ذكر هو شيءٌ يعتريه فـي ذلـك الوقت، يخرج من جوفه صوتٌ شبيه بالعُواء الخفيف، وهو ما بين العواء والأنين، وذلك من حـاق

الحرص، وشدَّة الطلب، وخوف الفوات، ويقال: أهلّت السماءُ، إذا صبَّت، واستهلت: إذا ارتفع صوت وقعها، ومنه الإهلال بالحج، وقال ابن أحمر:

بالفرقد رُكبانُها كما يُهِلُّ الراكبُ المعتمِرْ

ومنه استهلال الصبي، ولذلك قال الأعرابيُّ: أرأيت من لا شرب ولا أكل ولا صاح واستهل، أليس ذلك يُطَلّ ؟

تخريق الكلب أذنيه

وإذا ضبَع الكلبُ، وهو أن يمدَّ ضبْعه كلَّه، ولا يكون كالحمار الضيِّق الإبطيْن - والكلبُ في افتراش ذراعيه وبسط رجليه حتَّى يصيب قصُّه الأرض، أكثر من الفرس- وعند ذلك ما يَنْشط أذنيه حتَّى يدميهما ولذلك قال الحسن بن هانئ، وقد طال ما نعتَ بهما:

فانصاع كالكوكب في انحداره لَفْتَ المشير مُوهناً بنارهِ
إذا أحْصفَ في إحضاره خَرّقَ أذنيه شبَا أظفارهِ

وأوّل هذه الأرجوزة:

الثَّعلبُ من وِجاره يَلتَمِس الكَسْب على صغارهِ

معرفة أبي نواس بالكلاب وجودة شعره

وأنا كتبتُ لك رجزه في هذا الباب، لأنَّه كان عالماً راوية، وكان قد لعب بالكلاب زماناً، وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب، وذلك موجود في شعره، وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه، هذا مع جودة الطبع وجودة السبك، والحذق بالصنعة، وإن تأمَّلتَ شِعرَه فضَّلتَهُ، إلاَّ أن تعترض عليك فيه العصبيّة، أو ترى أنّ أهل

البـدو أبـداً أشـعرُ، وأنَّ المولَّـدين لا يقـاربونهم فـي شـيء، فـإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحقَّ من الباطـل، مـادمتَ مغلوباً

طرديات أبي نواس

قال الحسن بن هانئ:

الثعلبُ مـن وِجـارِه يلتَمس الكسبَ على صغـاره
في سَنَن امـتـياره مضمَّرٌ يَمُوجُ فـي صِـداره
حَلق الصُّفْر وفي أسيارِه منضمَّة قُصْراهُ من إضماره
نَحتَ التسهيمُ من أقطـارهن بعد ما كان إلى أصبْـاره
غَذَتهُ الجُورُ من عِشَاره أيَّام لا يُحجبُ عـن أظـآره
طَلاً لم يَدْنُ من إشغـاره في مَنْزِلٍ يُحجَبُ عن زُوَّاره
فيه طَرفَـيْ نـهـارِه حتَّى إذا أَحْمدَ في اخْتـبـاره
مثل القُلب من نُضـاره كأنَّ خلفَ ملتقى أشـفـارِه
غضَّى يدمِنُ في استعاره كأنَّ لَحيَيه لـدى افـتـراره
مَساميرَ علـى طَـواره يضمُّ قُطريه من اضطبـاره
تمطَّى تمّ في أشـبـاره عَشْرٌ إذا قَدّر في اقـتـداره
إذا استَرْوَحَ لم تُـمـارِه إلا بأن يُطلَقَ مـن عِـذاره
فانصاعَ كالكوكب في انحداره لَفْتَ المُشيرِ مُوهِناً بـنـاره
إذا أحْصَفَ في إحضاره خرَّق أذنيه شبـا أظـفـاره
إذا ما انساب في غبـاره عافَرهُ أخْرَقُ في عِـفـاره
المفْصِلَ مـن فَـقـارِه وشقَّ عنه جانبَـيْ صِـدارِه
للثَّعلب في ابتكـاره

طردية ثانية لأبـي النـواس وقـال فـي كلـب سُـليمان بـن داود الهاشميّ - وكان الكلبُ يسمى زُنبوراً:

كتاب الحيوان
الجاحظ

الشياطـينُ رأتْ زُنـبـورا قد قُلِّدَ الحـلـقَةَ والـسُّـيورا
لِخِزَّان الـفـلا ثُـبُـورا أدفى تري في شِدقِه تـأخـيرا
إذا عارضْتَـه مـفـرورا خِناجراً قد نبتـتْ سُـطـورا
مُشتبكات تنظِـمُ الـسُّـحـورا أُحْسِنَ في تأديبـه صِـغـيرا
توفَّى السَّبْعةَ الشـهـورا من سِنِّهِ وبَلـغَ الـشُّـغـورا
الإيحاءَ والـصَّـفـيرا والكفَّ أنْ تومئ أو تـشـيرا
أقصى حُضْره المذخورا تَرَى من همزهِ الأُظفُورا
مُنتشِطـاً مـن أُذنـه سُـيورَا فما يزالُ والـغـاً تـامـورا
ثعلب غـادَرَه مـجـزورا أو أرنب كوَّرَهـا تـكـويرا
ظبيةٍ تقـرو رَشـاً غـريرا غادَرها دون الطَّلا عَـقـيرا
الـلَّـهُ بـه الأمـيرا رَبِّي، ولا زالَ به مـسـرورا

وقد قال كما ترى:

ترى من هَمْزه الأظفورا مُنتشِطاً من أُذنـه سـيُورا

بإثر قوله:

توفَّى السبعة الشهورا من سِنِّهِ وبلغ الشغـورا

فإنَّ الكلب إذا شغر برجله وبالَ، فـذلك دليـلٌ علـى تمـام بلـوغه للإلقاح، وهو من الحيوان الذي يحتلم.

أمارات البلوغ في الجواري والغلمان

وأما احتلام الغلام فيعرف بأمور: منهـا انفـراقُ طـرف الأرنبـة، ومنهـا تغيُّـر ريـح إبطيـه، ومنهـا الأنياب، ومنها غلظ الصوت، ومن الغلمان من لا يحتلم، وفي الجواري جوارٍ لا يحضْن، وذلك في النساء عيب، وليس مثلـه مـن الرجـال عيبـاً، وقـد رأيـت رجـالاً يوصـفون بـالقوة علـى النسـاء، وبعضهم لم يحتلم إلا مرة أو مرتين، وبعضهم لم يحتلم البتة، طردية ثالثة لأبـي نـواس قـد قـال الحسن بنُ هانئ مثل ذلك، في أرجوزة أخرى:

إذا كان الجراءُ عبْطا براثِنا سُحْمَ الأثافي مُلْطـا
أُذنيه بهنّ نَشْـطـا

كتاب الحيوان
الجاحظ

وهذه الأجوزة أوَّلها:

كلباً للطَّرادِ سَلْطا مقلَّداً قلائداً وَمقْطا
الجميل والحسيب رهْطترى له شِدقين خُطَّا خَطَّا
إذا كان الجِرَاء عَبْطا براثناً سُحْمَ الأثافي مُلْطا
أُذْنَيه بهنَّ نشطاً تخالُ ما دَمينَ منها شرطا
يقعنَ الأرض إلا فَرْطا كأنَّما يُعجلِنَ شيئاً لقْطا
من قول قَطاة قطَّا خِزَّان الصحارى الرُّقْطا
مِنه حَكماً مشْتطاً للعظْم حطماً والأدِيم عَطَّا

شعر في نعت سرعة القوم

والشعراء إذا أرادوا سرعة القوائم قالوا كما قال:

التُّرابَ بأظْلاف ثمانية ومَسُّهن إذا أقبلن تَحليلُ

وقال الآخر:

جَهَدَتْ أليَّتُهُ أن لا تَمَسَّ الأرضَ أربَعُهُ

فأفرط المولَّدون فى صفة السرعة وليس ذلك بأجود فقال شاعرٌ منهم يصف كلبة بسرعة العَدْو:

تَرفَعُ ما لم يُوضَعِ

وقال الحسن بن هانئ:

يقعن الأرض إلا فرْطا

وقال الحسن بن هانئ في نعت كلب:

كلباً أهلُه في كَدِّه قد سَعِدتْ جدودُهم بِجَدِّه
خيرٍ عندهم من عنده يظلُّ مولاه له كَعبده
أدنى صاحب من مهْده وإن عري جلَّله بُبرْدِه
محجّلٌ بزَنْدهِ تَلَذّ منه العينُ حُسنَ قدِّه
حُسنَ شِدقيه وطولَ خدِّه تلقَى الظِّباء عنتاً من طَرْده
كأساً شدَّها في شدّه لكَ مِنْ كلب نسيح وحْدهِ

طردية خامسة لأبي النواس وقال في صفاتها، وأسمائها وسماتها، وأنسابها، وألقابها، وتفدية أربابها لها كما ذكرنا قبل ذلك:

كتاب الحيوان
الجاحظ

أغتدِي والطَّيرُ في مَثْواتِها لم تُعْرِب الأفواهُ عن لُغاتها
تمرَحُ في قِـدّاتِـهـا عِينَ الوَحْشِ من أقواتِها
نحَتَ التقريح وارِياتـهـا شدَّة التسهيم واقتياتـهـا
وأشفَقَ القانصُ من حُفاتِهـا وقلتُ قد أحكمتَها فهاتِهـا
للصَّيد مُعلَّـمـاتِـهـا وارفعْ لنا نسبةَ أمَّهـاتِـهـا
يُزجيها على شِياتـهـا شُمَّ العراقيبِ مؤنَّفـاتـهـا
الوجوه ومحجَّـلاتِـهـا مُشرِفَةَ الأكنافِ مُوفِياتِـهـا
الخراطيم مُخْرطَماتِها سوداً وصُفْراً وخَلَنْجِيَّاتـهـا
مُسَميَّاتِ ومُـلَـقَّـبـاتِـهـا حُمْراً وبِيضاً ومطوَّقاتـهـا
مختبَرَات من سَلُوقـيَّاتِـهـا كأنّ أقماراً على لَبَّاتِـهـا
على أفخاذها سِماتِـهـا مُفدَّياتِ ومُـحـمَّـياتِـهـا
مفروشة الأيدي شَرَنْبَثاتِـهـا شُمَّ العَراقيب مؤلفـاتـهـا
الأظافيرِ مُكَعْبـراتِـهـا زُلَّ المآخير عَمَلَّسـاتـهـا
في الآثار من وحَاتِها
نَهمِ الحرص ومن خَواتِها لتَفْثأ الأرنبَ عَنْ حياتـهـا
حياةَ الكلبِ في وفاتـهـا حتَّى ترى القِدرَ على مَثْفاتِها
الضِّيفانِ من عُفاتِـهـا تقذِفُ جالاها بجَوْزَي شاتها

فقد قال كما ترى:

في الآثار مِنْ وحاتها نهَم الحِرص ومن خَواتِها

وهذا هو معناها الأول، وأما قوله:

عين الوَحْش من أقواتها

فعلى قول أبي النَّجم:

عانات اللِّوى من مالها

وزعموا أنَّ قوله:

الأشمط من جلبابه

هو قول الأول:

الأشمطِ من كسائه

وهو كما قال الآخر:

الأشمَطِ من بُرْد سَمَلْ

طردية سادسة لأبي النواس وقال الحسن بن هانئ:

تبدَّى الصُّبحُ من حِجـابِـه كطَلْعَةِ الأشمَطِ من جلبـابـه
اللَّـيلُ إلـى مـآبِـه هِجْنا بكلبٍ طالما هِجْنـا بـه
القانِصُ واغتـدى بـه يَعزُّه طوراً على استصعابـه
ينصَبُّ لانـصـبـابـه فانصاع للصَّوت الذي يعنى به
كلمَعَان البرقِ من سحـابـه
عينيه لدى ارتيابه فَصَّا عَقيقٍ قد تقـابَـلا بـه
إذا عفَّـرَه هـاهـا بـه بأَبَا به يا بُعد مـا بَـابَـا بِـه
ينْتسف المِقْوَد مـن جِـذابـه مِنْ مرَحٍ يغلُو إذا اغلَوْلَى به
تُعرَفِ من شَـبـابِـه كأنَّ متْنَيهِ لـدى انـسـلابِـه
شُجاع لَجَّ في انـسـيابِـه كأنَّما الأُظفور في قِـنـابـه
صناعٍ رُدَّ في نِصابِـه يثرُدُ وجه الأرض في ذهابه
نسراً ما توكَّـلـنـا بِـه يَعفُو على ما جرَّ من ثـيابـه
الذي أثَّـرَ مـن هُـدَّابِـه سَوَام الْوَحْشِ يُحْتَوَى بِه
أسْرى ظُفرهِ ونـابـه

صفة أبي نواس لثعلب أفلت منه مراراً

وقال في ثعلب كان قد أفْلتَ منهُ مراراً:

طالَما أفلـتَّ يا ثـعـالا وطالما وطالـمـا وطـالا
بكلبي يومَكَ الأجـوالا طَلَبْتَ منْ لا يسأمُ المِطالا
إذا اليومُ حدا الآصـالا أتاك حَـيْنُ يقـدمُ الآجـالا

طردية سابعة لأبي نواس وقال أبو نواس أيضاً:

بيتٍ بفضاءٍ سَبْـسَـبِ بَعيد بين السَّمْكِ والمطـنَّـبِ
قد بَكَّـرُوا بـأكـلُـبِ قد أدَّبوها أحسـنَ الـتـأدبِ
أدفى مَيَسانِ المنْكِـبِ في القَوْد شِبابَ المُقْرَبِ
أذْنيه بجدِّ المِـخْـلَـتَنِي وشيقَةٌ مـنْ أرنَـبِ
مسلوبةٌ من مقلوبة الفرْوة أوْ لمْ
ثـعـلـب تُقْلَـبِ

عاناتٍ وأُمُّ الـتَّـوْلَـبِ ومِرجلٌ يهدِر هَدْر المُصْعَبِ

جالاهُ بِجَوز القَرهَب

صفة ما يستدلُّ به على فراهية الكلابِ

وشياتها وسياستها

قال بعض من خبر ذلك: إنَّ طول مـا بيـن يـدي الكلـب ورجليـه - بعد أن يكون قصير الظهر - من علامة السُّـرعة، قـال: ويصـفونه بأن يكون صغير الرأس، طويـل العُنـقُ غليظهـا، وأن يشـبه بعـضُ خلقه بعضاً، وأن يكون أغضف الأذنين مُفرط الغضف، ويكون بعيد ما بينهما، ويكون أزرق العينيـن، طويـل المقلـتين، نـاتئ الحدقـة، طويل الخطم، واسع الشِّدقين، ناتئ الجبهـة عريضـها، وأن يكـون الشَّعر الذي تحت حنكه كأنَّه طاقـة ويكـون غليظـاً، وكـذلك شـعرُ خدَّيه، ويكون قصير اليدين، طويـل الرجليـن، لأنـه إذا كـان كـذلك كـان أسـرع فـي الصـعود بمنزلـة الأرنـب، قـالوا: ولا يكـاد يلحـق الأرنب في الصَّعود، إلاَّ كلُّ كلبٍ قصـيرِ اليـدين، طويـل الرِّجليـن، وينبغي أن يكون طويل الصدر غليظاً، ويكونَ مـا يلـي الأرض مـن صـدره عريضـاً، وأن يكـون غليـظ العضُـدين، مسـتقيم اليـدين،

مضموم الأصابع بعضها إلى بعض، إذا مشى أو عدا، وهو أجـدرُ ألاَّ يصير بينها من الطِّين وغير ذلك ما يفسُـدها، ويكـون ذكـيَّ الفـؤاد نشيطاً، ويكون عريض الظَّهر، عريـض مـا بيـن مفاصـل عظـامه، عريض ما بين عظمي أصلِ الفخذين اللذين يصيبان أصل الـذنب، وطويل الفخذين غليظهما شديد لحمهما، ويكـون رزيـن المحـزم، رقيق الوسط طويل الجلـدة الـتي بيـن أصـل الفخـذين والصـدر، ومستقيم الرجلين، ويكون في ركبته انحناء ويصير قصير الساقين دقيقهما، كأنَّهما خشبة من صلابتهما، وليس يكره أن تكون الإنـاث طوال الأذنـاب، ويكـره ذلـك للـذكور، وليـنُ شـعرهما يـدلُّ علـى القـوة، وقـد يرغـب ذلـك فـي جميـع الجـوارح مـن الطيـر وذوات الأربع، من لين الرِّيش لذوات الريش ، ولينُ الشَّعر لذوات الشعر من عِتاق الخيل علامـةٌ صـالحة ، قـال: وينبغـي أن يكـون الكلـبُ شديد المنازعة للمقود والسِّلسلة، وأن يكـون العظـم الـذي يلـي الجنَبين من عظام الجنـبين صـغيراً فـي قـدر ثلاث أصـابع، وزعـم أنَّهم يقولون: إنّ السُّود منها أقلّها صـبراً علـى الـبرد والحـر، وإنّ البيض أفرهُ إذا كنَّ سُودَ العيـون، قـال: ومـن علامـة الفَـرَه الـتي ليس بعدها شيء، أن يكون على ساقيه أو على إحـداهما أو علـى

رأس الذنب مخلب، وينبغي أن يُقطع من السَّاقين، لئلا يمنعه مـن العدو،

خير غذاء للكلب

وذكرَ أنَّ خير الأشياء التي تُطعمُها للكلب الخبزُ الذي قد يَبـسِ، ويكُونعـداوة بعـض الحيـوان لبعـض وزعـم صـاحب المنطـق أَنَّ العُقابَ تأكلُ الحيّاتِ، وأَنَّ بينَهما عداوةً؛ لأنَّ الحيَّـةَ أيضـاً تَطلـبُ بيضَها وفراخها، قال: والغُداف يقاتل البُومة، لأنَّ الغُدافَ يَخْطِف بيضَ البومة نهاراً، وتشدُّ البومةُ على بيـض الغُـداف ليلاً فتـأكله؛ لأنَّ البومةَ ذليلةٌ بالنهار رديَّة النظر، وإذا كانَ اللّيلُ لم يَقْوَ عليها شيءٌ مـن الطيـر، والطيـر كلُّهـا تعـرِف البومـةَ بـذلك وصـنيعَها بالليل، فهي تطير حولَ البومةِ وتضربُها وتَنْتِف ريشها، ومن أجْلِ ذلك صارَ الصيَّادون ينِصِبونها للطير، والغداف يقاتل ابنَ عِـرْسٍ؛ لأنه يأكل بيضَه وفراخَه، قال: وبين الحِـدأة والغُـداف قتـالٌ؛ لأنَّ الحِدأة تخطِفَ بيضَ الغداف؛ لأنَّها أشدُّ مخـالبَ وأسـرَعُ طيرانـاً، وبين الأُطْرُغُلَّة والشَّقْرَاق قتال؛ لأنَّـه يقتـل الأُطْرُغُلَّـة ويُطالبهـا، وبيـن العنكبـوت والعَظَايـة عـداوة، والعَظايـة تأكـل العنكبـوت،

وعصفور الشَّوك يعبَثُ بالحمار، وعبَثه ذلك قتَّال له؛ لأنَّ الحمـارَ إذا مَرَّ بالشَّوك وكانت به دَبَرَة أو جَرَبٌ تحكَّك بِـهِ، ولـذلك متَـى نهِق الحمار سقطَ بيضُ عصفور الشوك، وجعلـتْ فراخُـه تخـرج من عشّها، ولهذه العِلّة يطيرُ العصفورُ وراءَ الْحِمار وينقُر رأسه، والذئب مخالفٌ للثَّور والحمارِ والثعلبِ جميعاً، لأنَّـه يأكـل اللحـم النِّيءَ ولذلك يقع على البقـر والحميـر والثعـالِبِ، وبيـن الثعـالِبِ والزُّرَّق خلافٌ لهذه العلّة؛ لأنَّهما جميعاً يأكلان اللحـم، والغـراب يُخالف الثَّورَ؛ ويُخالف الحمار جميعاً، ويطير حولَهمـا، وربّمـا نَقَـرَ عيونهَما، وقال الشاعر:

لا زلت في تَبَابِ عَدَاوَةَ الْحِمارِ للغُرابِ

ولا أعرف هذا من قول صاحب المنْطِق؛ لأنَّ الثعلـبَ لا يجـوزُ أن يُعَادِيَ مِنْ بينِ أحرار الطّير وجَوارِحها الزُّرَّقَ وحـدَه، وغيـرُ الـزُّرَّق آكِلُ اللَّحم، وإن كان سببُ عداوته له اجتماعَهُما على أَكْلِ اللّحـم، فليُبْغِض العقابَ من الطير، والذئْبَ مـن ذوات الأربَـع؛ فإنّهـا آكـل لِلّحم، والثَّعلَبُ إلـى أنْ يحسُـدَ مـا هـو كـذلك أقـربُ، وأولَـى فـي القياس، فلو زعم أنّه يَعُمُّ أكَلَةَ اللّحم بالعداوة، حتّى يُعطى الزُّرَّق من ذلك نصيبَه،كان ذلك أجْوَزَ، ولعلَّ المترجِم قد أساء في الإخبار

عنه، قال: والحيَّة تقاتل الخِنزيرَ، وتقاتِل ابنَ عِـرْس، وإنّمـا تقاتـلُ ابنَ عِرْسٍ إذْ كان مأواهمـا فـي بيـتٍ واحـد، وتقاتـلُ الخنزيـر لأنّ الخنزير يأكلُ الحيَّات، ويزعمون أنّ الـذي يأكـلُ الحيَّـاتِ القنافـذُ، والأوعـالُ، والخنـازيرُ، والعِقْبـان، قـال: فالحيَّـة تعـرف هـذا مـن الخنزيـــــــــــــر، فهـــــــــــــي تُطَـــــــــــــالبه.

قال: والغراب مصادقٌ للثَّعلب، والثَّعلـبُ مصـادقٌ للحيَّـة، والأسـد والنمر مختلفان، قال: وبين الفِيَلةِ اختلافٌ شديد، وكذلك ذكورهـا وإناثها، وهي تَستعمِل الأنيابَ إذا قاتَـل بعضُـها بعضـاً، وتعتمـد بهَـا على الحيطان فتهدِمُها، وتزحُمُ النَّخلةَ بجنبها فَتَصْرَعُها،

تذليل الفيل والبعير

وإذا صعُب من ذكورتها شيء احتالوا لـه حتَّـى يكُـومَه ذكـرٌ آخـر، فـإذا كـامَهُ خضَـع أبـداً، وإذا اشـتَدَّ خُلُقُـه وصـعُب عصَـبوا رِجلَيـه فسكن، ويقال إنَّ البعيرَ إذا صعُب وخـافَه القـوم، اسـتعانوا عليـه فأبرَكُوه وعَقلوه حتَّى يكومَه فحل آخر، فإذا فعلَ ذلك به ذَلَّ

الفيل والسنّور

وأمّا أصحابنا فحكَوا وجـوهَ العـداوةِ الّـتي بيـن الفيـل والسِّـنّور - وهذا أعجب - وذهبوا إلى فزع الفيل من السِّنَّور، ولمْ يـرَوه يفـزع ممَّا هو أشدُّ وأضخم، وهذا البابُ على خلاف الأوّل، كأنَّ أكثرَ ذلك الباب بُنيَ على عداوة الأكْفاء.

الشاة والذئب

والشاةُ من الذئب أشدُّ فَرَقاً منها من الأسد، وإن كانت تعلــم أنَّ الأسد يأكلها،

الحمام والشاهين

وكذلك الحمـام يَعـتريه مـن الشَّـاهينِ مـا لا يعـتريه مـن العُقـاب والبازي والصقر،

أعداء الفأرة

وكذلك الفأرة من السِّنّور، وقد يأكلها ابْنُ عِرْس، وأكـثر ذلـك أن يقتلها ولا يأكلها، وهي من السِّنّورِ أشدُّ فرَقاً،

الثعلب والدجاجة

والدَّجاجة تأكلها أصناف من السباع، والثعلبُ يطالبها مُطالبةً شديدة، ولو أنَّ دجاجاً على رفٍّ مرتفع، أو كُنَّ على أغصان شجرةٍ شاهقة، ثمّ مرَّ تحتَها كلُّ صِنفٍ ممَّا يأكلها، فإنَّها تَكونُ مستمسكةً بها معتصمةً بالأغصان التي هي عليها، فإذا مرَّ تحتها ابنُ آوى وهُنَّ ألفٌ، لم تَبْقَ واحدةٌ منهنَّ إلاّ رمَتْ بنفسها إليه،

ما يأباه بعض الحيوان من الطعام

والسبع لا يأكل الحارَّ، والسِّنَّور لا يذوقُ الحموضة، ويَجْزَع من الطَّعام الحارِّ، والله تعالى أعلم،

ما أشبه الكلب الأسود والأنسان

ثمَّ رجَع بنا القولُ إلى مفاخر الكلب، ونبدأ بكلِّ ما أشبه فيه الكلبُ الأُسُودَ والإنسان؛ وبشيء من صفات العظَال، قال صاحب المنطق في كتابه الذي يقال له الحيوان، في موضعٍ ذكَرَ فيه الأسد قال: إذا ضربَ الأسَدُ بمخالبه، رأيتَ موضع آثار مخالبِهِ في أقدار شرط الحجَّام أو أزْيدَ قليلاً، إلاّ أنَّه من داخلٍ أوسعُ خرْزاً، كأنَّ الجِلدَ ينضمُّ على سم مخالبه، فيأكل ما هنالك، فأمّا عضَّته

فإنَّ دواءَها دواءُ عضَّةِ الكلب، قال: وممَّا أشبه فيه الكلبُ الأسـدَ انطباقُ أسنانه، وممّا أشبَهَ فيه الكلـب الأسـدَ النَّهَـمُ، فـإِنَّ الأسـدَ يأكل أكلاً شديداً، ويَمْضَغُ مَضغَاً متدارِكاً، ويبتلع البَضْع الكبار، مـن حـاقِّ الرغبـة ومـن الحـرص، وكالـذي يخـاف الفـوت، ولِمَـا نـازعَ السِّنَّورَ من شَبَهِهِ صار إذا ألقيت له قِطعة لحم فإمَّا أنْ يحملهـا أو يأكلها حيثُ لا تراه؛ وإمَّا أن يأكلها وهو يكثر التلفُّت، وإنْ لـم يكـنْ بحضْرته سِنَّور ينازعُه، والكلبُ يَعـضُّ علـى العَظـمِ ليُرضَّـه، فـإنْ مانَعَه شيءٌ وكان ممـا يُسـيغه، ابتَلَعَـه وهـو واثـق بـأنّه يسـتَمريه ويُسيغه، والنَّهم يعرِض للحيَّات، والحيَّة لا تمضَغُ، وإنما تبتلعُ ذواتُ الرَّاســات، وهــي غيــر ذوات الأنيــاب، فإِنّهــا تمضَــغ المضْــغة والمضغتين وإن ابتلعت شيئاً فيه عظم أتَتْ عُوداً شاخصاً فالتوت عليه، فحطَمت العظم، والحيَّة قويّة جداً، قـال: والأسـد وإن كـان ممَّا لا يفارق الغِياض ولا يفارق المـاء فـإِنّه قليـلُ الشـرب للمـاء، وليس يُلقى رَجْعَه إلاّ مـرةً فـي اليـوم، وربّمـا كـان فـي اليـومين والثلاثة، ورجعُه يابس شديد اليُبس متعلِّق، شـبيه برجيـع الكلـب، ويشبهه أيضاً من جهة أخـرى وذلـك أنّهمـا جميعـاً إذا بَـالاَ شَـغَرا، والكلب من أسماء الأسد، لقرابةِ مـا بينـه وبيـنَ الكلـب، والكلـبُ

يُشبه الخِنزير، فإنَّ الخِنزير يسمَن في أسبوع، وإن جاع أيّاماً ثم شبِع شَبعةً تبيَّن ذلك تبيُّناً ظاهراً، ألا تراهُ ينزع إلى محاسن الحيوان، ويُشبه أشراف السباع وكرائم البهائم ؟

عظال الكلاب

ويقال: ليس في الأرض فحلٌ من جميع أجناسِ الحيوان لِذَكَرِه حجمٌ ظاهر إلاَّ الإنسان والكلب، وليس في الأرض شيئان يتشابكانِ من فَرْط إرادةِ كلِّ واحدٍ منهما لطباع صاحبه، حتى يلتحم عضوُ الذكر بعضو الأنثى حتَّى يصير التحامهما التحامَ الخِلقة والبِنْية، لاَ كالتِحامِ الملامَسَة والملازمة، إلاّ كما يُوجَد من التحام قضيبِ الكلب بثَفْر الكلبة.

وقد يلزَق القُراد، ويَغْمِس العَلس مقاديمه في جوف اللحم، حتَّى يُرَى صاحبُ القُراد كأنَّه صَاحِبُ ثُؤلُول، وما القُراد المضروبُ به المثلُ في الالتحام إلاّ دون التحامِ الكلبين، ولذلك إذا ضربوا المثل للمتباضِعين بالسُّيوف، والملْتَقِيَين للصِّراع، فالتفّ بعضُهم ببعض، قالوا: كأنهم الكِلاب المتعاظِلة، وليس هذا النَّوعُ من

السِّفاد إلاّ للكلاب وزعم صاحبُ المنطق وغيـرُه، أنَّ الـذُّبابَ فـي ذلك كالكلب،

إسماعيل بن غزوان وجارية مويس بن عمران

وكان إسماعيل بن غَزْوان قـد تعشّـقَ جاريـةً كـانت لمـوَيْس بـن عمران، وكانت إذا وقَعَتْ وقعةً إليه لم تمكـثْ عنـدَهُ إلاّ بقـدرِ مـا يقَعُ عليها، فإذا فَرَغ لبِست خُفَّها وطارت، وكان إسماعيلُ يشـتهي المعـاوَدَةَ وأنْ يطيـلَ الحـديث، ويُريـدُ القَـرْص والشـمَّ والتقبيـلَ والتجريد، ويعلم أنّـه فـي الكَـوْم الثـاني والثـالث أجـدر أن يُنْظَـرَ، وأجـدَرُ أن يَشْـتَفيِ فكـان ربَّمـا ضَـجِرَ ويـذكرُها بقلبـه وهـو فـي المجلس، فيقول: ياربِّ امسَخْني وإيّاها كلبَين ساعة من الليـل أو النَّهار، حتَّى يشغَلَها الالتحامُ عـن التفكيـرِ فـي غضَـب مولاتِهـا إن احتَبَسَت!

من أعاجيب الكلاب

وفي الكلبة أعجوبة أخرى: وذلك أنّه يسـفَدُها كلـبٌ أبقـعُ وكلـب أسودُ وكلب أبيضُ وكلـب أصـفرُ، فتـؤدِّي إلـى كـلِّ سـافدٍ شِـكْلَهُ وشِبْهه، في أكثر ما يكُونُ ذلك،

تأويل الظالع في شعر الحطيئة

وأما تأويل الظالع في قول الحطيئة:

تسدَّيتُها مِنْ بَعْدِ مَا نَام ظَالِعُ الكلابِ وأخْبى نارَهُ كلُّ موقِدِ

قال الأصمعيّ: يظلَع الكلبُ لِبعضِ ما يعرض للكلاب، فلا يمنعه ذلك مِنْ أن يهيجَ في زمـن هَيْـج الكلاب، فإذا رأى الكلبة المستحرِمة لم يطمَع في معاظلتها والكلابُ منتبهةٌ تنبَح، فَلاَ يَزَال يَنتَظِرُ وقتَ فَتْرةِ الكلاب ونومها، وذلك مِن آخر الليل، وقال أُحَيْحَة بن الجُلاَح:

ليتَني ليلةً إذا هَجـع ال نَّاسُ ونام الكلابُ صاحِبُها

طردية ثامنة لأبي نواس

وممَّا قِيل في الكلاب: من الرَّجز قول أبو نواس:

من آلِ ذُهلٍ في الذرى الرقاشِيّينَ في أعْلى العُلا
بهالِيلَ كرامِ يَسِيرون إلى صُوح الـلـوى
الـمُـنْـتَـمَـى
عن أعيُنهِمْ طِيبَ غِشَاشاً بعد ما طال الـسُّـرى
الـكَـرَى
إبلاء الفتى على إذا ما كوكبُ الصُّـبـح بـدَا
الـفـتـى
بغُصْفٍ كاليَعاسيب ثلاثَةٍ يقطعن حُـزَّان الـصُّـوَى
الأشداقِ غصْفٍ فـيَتلوي بأذناب قـلـيلات الـلَّـحـا

كتاب الحيوان
الجاحظ

سَمَعْمَعاتِ الضُّمْر من كلِّ مَضْبُور القَرَا عاري النَّسا
الطَّوى
المَتْنينِ مَنْحُوضِ شَرنبَثِ البُرثُنِ خَفّـاقِ الـشَّـوى
الـحـشـا
منه القصّ من غمَيسَنَّتَا صَفواء في حَـيْدِيْ صَـفـا
الـغـائِطُ مِـنْـهُ إن يُقادح المْروَ وشَـذّان الـحَـصَـا
إذا استسحَرَ في رَأْدبمربَإِ أوْفَى بـه عـلـى الضُّحـى
الـرُّبـا
من دونهـا سِـربَـلواشـزاً مـن أنَـسٍ إلـى خَـلاَ
يُدَعْثِرنَ أفاحيصَ عَلعَنَ واستلْهثن من غيْر ظـمـا
مبالغـاتٍ فـي نَـهـيمٍ كأَنَّما أعينُها جمـر الـغَـضـى
تطَلّعنَ مـعـاً كـالـبـرقِ الأرض يَهوينَ ولا لوح الهوا
في شَرطها لـمـلكواكبٌ يُرمَى الشّياطِـينُ بـهـا
يذْمَـرْنَ بـالإيسـادِ ذَمْــراًحتى إذا ما كنَّ منـهـنَّ كـهـا
عليهنّ من المـوت تجذبهـنَّ بـحـديداتِ الـشَّـبـا
يلعَطْن مَعْـبُـوط خليع الزَّورِ مرضُوض الصَّلا
مفْريِّ النِّـياطِ قـدكأنّـه مـبـتـهـلٌ إذا دَعـــا
الفَوْدَينِ مجلـوز يُقْفِينَ بالأكبادِ منهـا والـكُـلَـى
وبالقلوبِ وكَرَادِيس

طردية تاسعة لأبي النواس وقال أيضاً:

تَبَدَّى الصُّبْحُ من حِجَـابِـه وانعدلَ اللـيلُ إلـى مـآبِـه
القانصُ واغتـدَى بـه في مِقود يَردَعُ من جـذَابـه
طوراً على استصعـابـه وتارةً ينصبُّ لانـصِـبـابـه
يفـتَـرُّ مـن أنـيابـه مرهَفات السِّنِّ من حِرابِه
أنفَ الأرضِ في ذَهابِـه حتَّى إذا أشرَفَ مِن حِـدَابِـه
انحدار الطَّرف وانقـلابِـه بروضةِ القاعِ إلى أعجـابِـه
كالسَّهْمِ إذْ غـالَـى بِـه يكادُ أن ينسَـلّ مـن إهـابـه
كَلَمَعانِ البرقِ في سَحـابِـه حتَّى إذا ما كادَ أو حَـدَا بِـه
وانصاتَ للصَّوتِ الذي يُدْعَى به كأنَّما أُدْمجَ فـي خِـضـابِـه
لحْـيَيه إلـى أَقْـرَابِـه مشَهَّر الـغُـدُوِّ فـي إيابـه

طردية عاشرة لأبي النواس وقال أيضاً:

الـبـرق عـارضٍ لـمـاح انقضاض الكواكب المنصاح
انبتات الدَّلـو بـالـمـتَّـاح انسيابُ الحُوتِ بالمُـنْـدَاح
دنَا مـن راحةِ الـسَّـبَّـاحِ في السُّرعةِ مـن سِـرياحِ
عِـنْـدَ ثَـمَـل الـمِـرَاح إذا سَمَا الخاتـلُ لـلأَشْـبـاحِ
في الجـوِّ بـلا جَـنَـاحِ يفترُّ عن مِثلِ شَبَـا الـرِّمـاحِ
وكَـمْ ذِي جُـدَّة لَـيَاحِ ونازِبٍ أعْـفَـرَ ذي طِـمـاحِ
مضـرَّج الـصِّـفـاحِ

باب آخر في الكلب وشأنه

تفسير شعر قيل في الكلاب

قال طُفيلٌ الغَنَويّ:

إذا ما أنكر الكلـبُ أهْـلَـهُ جَمَوْا جارَهُمْ مِن كلِّ شنْعاءَ مُظْلِع

يقول: إذا تكفَّروا في السِّلاح لمْ تَعْرِفْهُم كلابُهُم، ولم يَدَّعِ جميعُ أصحابِ المعارفِ إلاَّ أنَّ الكلبَ أشدُّ ثِباتاً، وأصدقُ حِسَّاً، وفي ذلك يقول الآخر:

تَرفَعي صوتاً وكُوني قَصِيَّةً تَوَّبَ الدَّاعِي وأنكَرَنِي كَلْبي

يقول: إيّاكِ والصُّراخَ إذا عايَنْتِ الجيش، وقوله: أنكرني كلبي، يخبر أنَّ سلاحَهُ تامٌّ من الدِّرع والمِغْفَر والبَيضَة، فإذا تكفّر بسلاحه أنكره كلبُه فنبحَه، وأما قوله:

خَرِس الفَحل وسطَ الحُجورِ وصاحَ الكلابُ وعُقَّ الْوَلَدْ

فأمَّا قوله: إذا خَرِسَ الفحل، فإنَّ الفحلَ إذا عايَن الجيشَ وبوارِقَ السيوف، لم يلتفت لِفْتَ الحُجورِ، وأمَّا قوله: وصاح الكلاب، فإنَّ الكلابَ في تلك الحالة تنبَح أربابَها كما تنبح سَرَعَانَ الخَيل إليهم؛ لأنّها لا تعرفهم من عدُوِّهم، وأما قوله: وعُقَّ الولد، فإنَّ المرأةَ إذا صبَّحتهم الخيل، ونادى الرجال يا صباحاه ذُهِلت عن ولدها، وشغَلها الرُّعبُ عن كلِّ شيء، فجَعَلَ تركها احتمالَ ولدها والعطفَ عليه في تلك الحالة، عقوقاً منها، وهو قولُهم: نزلتْ بهم أمور لا يُنادَى وليدُها، وإنَّما استعاروا هذه الكلمة فصيّروها في هذا الموضعِ من هذا المكان، وقد ذكر ذلك مزرِّد بن ضِرَارٍ وغيرُه، فقال:

مِن شَتمِ الرجالِ بتوبةٍ اللّه مِنى لا يُنادَى وَلِيدُها

وقال الآخر:

على الأحرار من بَعْدِ وَشِقْوَةِ عَيشٍ لا يُنادَى وَلـيدُها

والذي يُخْرِسه إفراطُ البرد، وإلحاحُ المطر، كما قال الهذليُّ:

يَصْطَلي بالفَرْثِ جَازِرُهَا تَصُّ بالنّقَرَى المُثرِينَ دَاعيها
الكلبُ فيها غيرَ واحـدةٍ الصَّقيعِ، ولا تَسْرِي أفاعيها

وقال ابن هَرْمة:

الجارَ والمعصِّب والأضيا ف وهْناً إذا تحيّوْا لديَّا
يَلقَونَني إذا نَبحَ الكل وراءَ الكُسورِ نَبحاً خَفيَّا

وقال آخر:

كتاب الحيوان
الجاحظ

عميَ الكلبُ فـي ديمة وأخرسهُ اللَّه مِن غير صِرّ

يقول: الكلبُ وإن أخرَسَه البردُ الـذى يكـون مـع المطـر والرِّيـح التي تمرُّ بالصَّحارى المطيرة فتَبرُدُ، فإنَّ الكلب وإن ناله ذلك فإنّ ذلك من خِصبٍ، وليس ذلك من صِرّ،

نبح الكلاب السحاب

والكلب إذا أَلحّت عليه السحائب بالأمطار في أيام الشتاء لقَي جِنَّة فمتى أبصَرَ غيماً نبحه، لأنَّه قد عرَف ما يُلَقَّى من مِثله، وقي المثل: لا يَضُرُّ السَّحَاب نُبَاحُ الكلاب فقال الشاعر:

لا أغْزوُ وللدَّهر كَرَّة نَبحتْ نحوَ السماء كلابها

يقول: قد كنت أدَعُ الغَزو مخافَة العطش علـى الخيـل والأنفـس، فمـا عُـذرِي اليـوم والغُـدران كثيرة، ومَناقع المياه موفورة، والكلابُ لاتنبَح السحاب إلاَّ من إلحاح المطر وترادُفه، وقال الأفوه الأودِيّ، في نبح الكلاب السحاب، وذلك من وصف الغيم:

هَيْدَبٌ دانٍ ورعْـد وَلـجّةٌ وبرق تراهُ ساطعاً يتـبـلّـجُ
كلاب الحيِّ ينبَحْن مُؤْنِضْحَتْ بناتُ الماء فيها تعمَّجُ

قول أبي حيَّة النميري في الكلب

وقال أبو خالد النميريّ: وذكروا فرعون ذا الأوتاد عند أبي حيَّة النميريّ، فقال أبـو حيَّـة: الكلـبُ خير منه وأحزم قال: فقيل له كيف خَصَصْتَ الكلبَ بذلك؟ قال: لأنَّ الشاعر يقول:

لا أغْزُو وللدَّهر كرَّة نبحت نحوَ السماءِ كلابُها

وقال الفرزدق:

إن تهجو حـنـيفةَ سـادراً قبلك قد فاتوا يَدَ المـتـنـاوِل
كفِرعَوْنَ إذ يرمي السَّماءَ عليه السهم أفوقَ ناصلِـي

فهذا يرمى السماءَ بجهله، وهذا ينَبح السحابَ من جَودَة فطِنته.

تعصّب فهد الأحزم للكلب

وزعـم فهـدٌ الأحـزم أنَّ الكلـبَ إنَّمـا عَـرَف مخَـرج ذلـك الشـيء المؤذي له حتَّى نبحه بالقياس، لأنَّه إنما نَبحه بعـد أن تـوالى عليـه الأذى من تلك الجهة، وكان فهد يتعصَّب للكلب، فقلت له: وكذلك الحمار إذا رفعت عليه السَّوط مرَّ من تحتك مَرًّا حثيثـاً، فالقيـاس عَلَّمَهُ أنَّ السَّوط متى رُفِع حُطَّ، ومتى حُـطّ أصـابَه، ومـتى أصـابه ألم، فما فضْلُ الكلبُ في هذا الموضع على الحمـار، والحمـارُ هـو الموصوف بالجهل?

مما قيل في نباح الكلاب

قال الفرزدق:

نَبَحَ الكلبُ السحابَ ودُومَهَاامِهُ تعْشِي نَظْرةَ المتَأمِّـلِ

وقال الآخر:

لا تَنبحُ يا كَلْبَ الدَّوْمِ كنتَ نَبَّاحاً فما بالُ اليَوْمْ

قال: كان هذا رجلٌ ينتظر عِيراً له تَقـدَمْ، فكـان إذا جـاءت العِيـرُ نبــح، فاحتبســت عليــه العيــرُ، فقــال كــالمتمنِّي وكــالمنتظر المستبطئ: ما لك لا تنبح? أي ما للِعيرِلا تأتي،

فراسة إياس بن معاوية في الكلاب?

كتاب الحيوان
الجاحظ

وقال: خرج إياس بن معاوية، فسمع نُباح كلب فقال: هذا كلبٌ مشدود،ثم سمع نباحَه فقال: قد أُرسِل، فَانتهوْا إلى الماء فسألوهم فكان كما قال، فقال له غيلان أبو مروان: كيفَ علمتَ أنَّه موثَق وأنَّه أُطلق? قال: كان نباحُه وهو موثق يُسمَع من مكانٍ واحد، فلما أُطلق سمعتهُ يقرُب مرّةً ويبعد مرةً، ويتصرَّفُ في ذلك، وقالوا: مرَّ إياس بنُ معاوية ذاتَ ليلةٍ بماء، فقال: أسَمعُ صوتَ كلبٍ غريب، قيل له: كيفَ عرفتَ ذلك? قال: بُخضوع صوتِه وشِدَّة نُباح الآخر، فسألوا فإذا هو غريب مربوطٌ والكلابُ تنبَحه، استطراد لغويّ وقال بعض العلماء: كلب أبقَع، وفرس أبلق، وكبش أملح، وتيسٌ أبرق، وثور أشْيَه، ويقال كلب وكلاب وكَليب، ومَعزْ وماعِز ومَعيز، وقال لبيد:

حيثُ أمسَيْنَا قَرِيباً على جَسَدَاءَ تَنْبَحنَا الكليبُ

وقال عَلْقَمَة بن عَبَدة:

عن غِبِّ السُّرَى وكأنَّهُ لَعَةٌ تخشى القَنيص شَبُوبُ
بالأَرْطى لَها وأرادَها رجالٌ فبَذَّتْ نَبْلَهمْ وكَلِيب

وقال عُبادة بن مُحبَّرٍ السعدي:

للخَيلِ بَعْدَ أبي سرَاجٍ إذا ما أشنج الصِّرُّ الكَلِيبَا

وهؤلاء كلهم جاهليّون، رأى لحمّوية الخريبى في بقع الكلاب وسوادها وقال حمُّويَه الخُرَيْبي وأنشدُوه:

بالمُبَارَكِ بَعْدَ حينٍ تَخُوض غِماره بُقْع الكِلاَبِ

وأنشدوه:

أرسلت أُسْداً على سُودِ الكلابِ لَمْسَى شريدُهُمُ في الأَرض فُلاَّلا

فقال: لا خير في بُقْع الكلابِ البتة، وسُود الكلاب أكثرها عَقُوراً،

خير الكلاب والسنانير

وخيرُ الكلاب ما كان لونُه يذهب إلى ألوان الأسد من الصُّفْرةِ والحُمرةَ، والتبقيع هُجْنة، وخيْرُ السنانير الخلَنْجِيَّة، وخير كلاب الصَّيد البِيض، قَالوا: إنّ الأسَدَّ لِلهراشِ الحُمر والصُّفر، والسُّودُ لِلذِّئاب، وهي شرُّها، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لولاَ أنّ الكلابَ أُمَّة من الأممِ لأمَرْتُ بقتلها، ولكن اقتلوا منها كلَّ أسوَدَ بهيم"، وكلُّ شيءٍ من الحيوان إذا اسودَّ شعرُه أو جلدُهُ، أو صوفه، كان أقوَى لبَدنه ولم تكن معرفته بالمحمودة، خير الحمام وزعم أنّ الحمام الهُدَّاءَ إنما هو في الخُضرِ والنمر، فإذا اسودَّ الحمام حتَّى يدخل في الاحتراقِ صارَ مثلَ الزِّنجيِّ الشديد البطش، القليل المعرفة، والأسوَدُ لا يجيء من البعد، لسود هدايته، والأبيض وما ضرَب فيه البياض لا يجيء من الغاية، لضَعْف قواه، وعلى قدر ما يعتريه من البَياض يعتريه من الضّعف، فالكلب هو الأصفَر والأحمر، والحمام هو الأخضر والأنْمر، والسِّنَّور هو الخَلَنْجيُّ العسَّال، وسائر الألوان عيب، وقد يكون فيها ومنها الخارجيُّ كما يكون من الخيل، ولكنَّه لا يكادُ ينجب، ولا تعدُو الأمورُ المحمودة منه رأسَه، وقد يكون ربَّما أشْبَهَ وقرب من النَّجابة، فإذا كان كذلك كان كهذه الأمهات

والآبـاء المُنجبـة، إلاَّ أنّ ذلـكَ لا يتـمُّ منهـا إلا بَعْـدَ بطـون عِـدَّةٍ.

استطراد لغوي وقال أبو زيد: قال ردَّاد: أقول للرجُـلِ الَّـذِي إذا ركب الإبلَ فَعَقَرَ ظهُورَها من إتعـابه، هـذا رجـل مِعْقَـرٌ، وكـذلِك السَّرْج والقَتَب، ولا يقال للكلب إلاَّ عقُور، ويقال هو ضرْو للكلب الضاري على الصيد، وضروة للكلبة، وهـذا ضـرَاءٌ كـثيرة، وكلـب ضارٍ، وكلاب ضَوَارٍ، وقد ضرِيتْ أشدَّ الضراوة، وقال ذو الرُّمَّة:

أطلس الأطمارِ ليس له الضِّراءَ وإلا صَيْدَها نَشَب

وقال طفيل الغنوي:

مَرَاخيها الزِّجاجَ كأَنَّها ضِرَاءٌ أَحسَّتْ نَبأَةً من مكلِّبِ

ومنه قيل: إناء ضار وقد قال عمر رضي اللَّه تعالى عنه: إيَّاكمُ وهذِهِ المجـازِرَ فـإنَّ لهـا ضـرَاوَة كضرَاوَةِ الخمر، وقال الأصمعيّ: كلب أبقَعُ وكلبةٌ بقعاء، وفرس أبلقُ وفرس بَلقاء، وتَيـس أبْـرَقُ وعَنْـــزٌ بَرْقـــاء، وكـــذلك جَبَـــل أبـــرقُ وكســـاءٌ أبـــرق وكلـــب أبـــرق.

الغلام الشاعر وقال ابن داحة: نزل عندنا أعرابيٌّ ومعه ابنان له صغيران، وكان أحدهما مُستهتَراً باللَّعب بالكلاب، وكان الآخر مُستَهْتَراً بالحُملان، فقال الأعرابيُّ لصاحب الكلب:

أراكَ مع الكلاب جَنِيبةً وأرَى أخاكَ جَنِيبةَ الحُمْـلان

قال: فردَّ عليه الغلام:

الكلابُ وهَرْشُها مَنْ دُونَهـا كَانَ الوقيرُ فَريسةَ الـذُّؤبـانِ

والوقير: اسم للغنم الكثيرةِ السائمةِ مع ما فيها مِنَ الحمير وغير ذلك، وقال الشماخُ بنُ ضَرَارٍ:

فأوْرَدَهُنَّ تَقْرِيبـاً وشَـدًّا شرَائعَ لم يكدِّرْها الوَقيرُ

مما قيل من الشعر في نفع الكلاب

وقال الشاعر في تثبيت ما قال الغلام:

الذِّئابُ علىَ مَنْ لا كلابَ وتتَّقي صَوْلَةَ الْمُسْتأْسِدِ الضارِي

وقال الآخر:

الذئاب تَرى مَنْ لا كلاب له حَوْزَةَ المستثِفر الحامي

عفّة عمر بن أبي ربيعة وابن أبي عتيق وقال محمَّد بن إبراهيم: قَدِمَتِ امرأة إلى مَكَّةَ، وكانتْ ذات جمالٍ وعَفافٍ وَبَراعةٍ وشَارة، فأَعجبَت ابن أبي ربيعة، فأرْسَل إليها فخافت شِعْرَه، فلما أرادت الطَّواف قالت لأخيها: اخْرجُ مِعي، فَخَرَجَ مَعَها، وعَرَضَ لها عُمر فلمَّا رأى أخاها أعْرَض عنها، فأنشدت قولَ جَرير:

الذِّئاب على مَنْ لا كلاب وَتتَّقي حَوزَةَ المستأسِد الضَارِي

هذا حديثُ أبي الحسن، وأمّا بنو مَخْزومٍ فيزعُمونَ أنّ ابن أبي رَبيعة لم يَحُلَّ إزارةَ على حَرام قَطُّ، وإنما كان يذهب في نسيبه إلى أخلاقِ ابن أبي عَتيق، فإنَّ ابن أبي عتيقٍ كان مِن أهل الطَّهارة والعفاف، وكان مَن سمعَ كلامَه توهَّم أنَّه من أجرأ الناس على فاحشة، وما يُشبِه الذي يقولُ بنو مَخزومٍ مَا ذكروا عن قريش والمهاجرين؛ فإنّهم يقولون: إنّ عمر بن عبد اللَّه بن أبي ربيعة إنَّما سُمِّي بعمر بن الخطاب وإنّه ولد ليلةَ ماتَ عمر، فلما كان بعد ذلك ذكروا فسادَ هذا وصلاحَ ذلكِ فقالوا: أيُّ باطِلٍ وُضع، وأيُّ حقٍّ رفع ومثلُ هذا الكلامِ لا يقالُ لمن يُوصف بالعفَّة الثابتة، وصية شريح لمعلم ولده ولبُغض المُزاح في لعب الصبيان بالكِلاب واستهتارِهم بها، كَتَبَ شريح إلى معلِّمِ ولَدٍ له كان يَدَع الكتَّابَ وَيَلعب بالكلاب:

الصَّلاة لأكلبٍ يَلهو بها طَلبَ الهِراشِ مع الغُوَاة الرُّجَّسِ
وليأتينَّك غادياً بصحيفةٍ بها كصحيفة المتلمِّسِ
خَلوتَ فعَضَّه بَملاَمَةٍ عِظْمٌ موعِظةَ الأديب الأكيس
هممت بضرْبهِ فبِدِرَّةٍ ضرَبت بها ثلاثاً فاحْبِس
بأنّك ما فعلت فإنَّه مَا يُجَرِّعُني أعزُّ الأنفُس

وهذا الشعر عندنا لأعشى بني سُليم في ابنٍ له، وقد رأيتُ ابنه هذا شيخاً كبيراً، وهو يقوُل الشعر؛ وله أحَاديثُ كثيرةٌ ظريفة،

من دلائل كرم الكلب

وقال صاحب الكلب: ومما يدلُّ على قَدْرِ الكلب كثرةُ ما يجري على ألسنةِ النَّاس من مَـدْحِه بـالخير والشـرّ، وبالحمـد وبالـذمّ، حتَّى ذكر في القرآن مَرَّة بالحمد ومرّةً بالذمّ، وبمثـل ذلـك ذكـر في الحديث، وكذلك في الأشـعار والأمثـال، حـتى اسـتعمل فـي الاشتقاقات، وجرى في طريق الفأل والطِّيَرة، وفي ذكـر الرؤيـا والأحلام، ومع الجِن والحِنِّ والسِّباع والبهائم، فـإن كنتـم قضـيتُمْ عليهِ بالشر وبالنقص، وباللؤم وبالسقوطِ لأنَّ ذلك كلَّـه قـد قيـلَ فيه، فالذي قِيلَ فيه من الخيـر أكـثرُ، ومـن الخصـال المحمـودة أشهر، ولَيْسَ شيءٌ أجمعَ لخصال النقص من الخُمـول، لأنَّ تلـك الخصالَ المخالِفة لذلك، تُعطي من النَّباهةِ وتُقيم من الذكر على قَـدْرِ المـذْكورِ مـن ذلـك، وكمـا لا تكـون الخِصـال الـتي تُـورث الخمـول مورثـة للنباهـة، فكَـذلك خِصَـال النّباهـة فـي مجانبـة الخُمول، لأنَّ الملومَ أفضـلُ مـن الخامـل، الترجمـان بـن هريـم والحارث بن شريح وسمع الترجمانَ بن هُرَيْم عند يزيد بن عمـر بن هبيرة، رجلاً يقول: ما جاء الحارث ابن شريح بيوم خَيْر قَـطّ،

قال التَّرجمان: إلا يكنْ جاء بيوم خَير فقد جاء بيوم شَرّ، سياسة الحزم وبعدُ فأيُّ رئيسٍ كان خيرُهُ محضاً عـدِمَ الهْيَبـةَ، ومَـن لـم يَعْمَل بإقامة جزاءِ السـيئة والحسـنة، وقتـل فـي موضـع القتـل، وأحْيَا في موضع الإحياء، وعَفَـا فـي موضـع العفـو، وعـاقبَ فـي موضـع العقوبـة، ومَنَـع سـاعةَ المنـع، وأعطـى سـاعة الإعطـاء، خالَفَ الرَّبَّ في تدبيره، وظنَّ أن رحمته فـوق رحمـةِ ربـه، وقـد قالوا: بعضُ القتل إحيـاءٌ للجميـع، وبعـضُ العفـو إغـراء، كمـا أنَّ بعضَ المنع إعطاء، ولا خَيْر فيمن كان خيـرُهُ محْضـاً، وشَـرٌّ منـه مَـن كـان شـرُّه صـرفاً، ولكـن اخلِـط الوعـدَ بالوعيـد، والبِشـرَ بالعبوس، والإعطاء بالمنع، والحِلمَ بالإيقاع، فإنَّ الناسَ لا يَهابون ولا يصلُحون إلاَّ على الثّواب والعقاب، والإطماعِ والإخافـة، ومـن أخافَ ولم يُوقِعْ وعُرِفَ بذلك، كانَ كَمَنْ أطمَعَ ولم يُنْجزِ وعُـرِف بذلك، ومَنْ عُرِف بذلك دخلَ عليه بحسَب ما عُـرف منـه، فخيـر الخيرِ ما كان ممزُوجاً، وشرُّ الشرِّ مَا كانَ صرفاً، ولو كانَ النّاس يصـلُحون علـى الخيـرِ وحـدَه لكَـان اللَّـه عـزَّ وجـلَّ أولـى بـذلك الحكـم، وفـي إطبـاق جميـع الملـوك وجميـع الأئمـةِ فـي جميـع الأقطار وفي جميع الأعصار على استعمال المكروه والمحبـوب،

دليل على أنَّ الصواب فيه دونَ غيره، وإذا كان الناس إنما يصلحون على الشِّدَّةِ واللين، وعلى العفو والانتقام وعلى البذْل والمنع، وعلى الخير والشرِّ، عاد بذلك الشرُّ خيراً وذلك المنع إعطاء وذلك المكروه محبوباً، وإنَّما الشأنُ في العَوَاقب، وفيما يدوم ولا ينقطع وفيما هو أدْوَم، ومن الانقطاع أبعَدُ، وقال الشاعر، وَهويمدحَ قَوماً:

يُسألوا الخيرَ يُعطُوه وإن فالجهْدُ يُخرج منهم طِيبَ أخبارِ
تودَّدتَهمْ لانوا وإن شُهِكَشوْتَ أذَمارَ حَرْبٍ غيرَ أغمارِ

وقال العتبي:

بنو خيرٍ وشر كلَيهما جمِيعاً ومَعروفٍ ألمَّ وَمْنكرِ

وقال بَعْضُ من ارتجز يوم جَبَلة:

الْغُلاَمُ الأعسَرْ الخيرُ فيَّ والشرّ
فيّ أكثرْ

وقال عبدُ الملك بن مروان لزُفَر بن الحارث؛ وقد دخل عليه في رجالاتٍ قيس: ألستَ امرأً مِن كندة? قال: وما خيرُ مَن لا يُتَّقى حَسَداً، ويُدعَى رغبة، وقال ثُمامة: الشُّهرة بالشرِّ خيرٌ من أن لا أُعرفَ بخير ولا شّر، أمارات النباهة وكان يقال: يُستَدَلُّ على نباهة الرَّجل من الماضين بتَبايُنِ الناس فيه، وقال: ألا ترى أن عليّاً رضيَ اللَّه تعالى عنه قال: يَهلك فيَّ فئتان: محبٌّ مُفرط، ومبغض مُفرط، وهذه صفة أنبَهِ الناس، وأبعدهِم غايةً في مراتب الدِّين وشرَف الدنيا، ألا ترى أن الشاعر يقول:

العِلباء كالعِلبا ءِ لا حُلوٌ ولا مرُّ
مِن بني الجارُو دِ لا خير ولا شَرُّ

وقال الآخر:

عَيَّرتني يا ثكلتْني أمِّـي أسْود مثل الجُعَل الأحـمِّ
عُرْضَ الجبَلِ الأصمِّ ليس بذي القَرْنِ ولا الأجمِّ

وإذا كان الرجلُ أبرعَ الناس بَراعةً، وأظهَرهم فضـلاً، وأجمعهـم لخصال الشرف، ثمَّ كانت كلُّ خَصلةٍ مساويةً لأختها في التَّمـامِ، ولم تغلِب عليه خصلة واحدة، فإنَّ هذا الرَّجل لا يكادُ يوصـف إلاَّ بالسيادة والرياسة خاصّة إذا لم يكـن لـه مسـندٌ عمـا يكـون هـو الغالب عليه، وقالوا فيما يشبِه ما ذكرنا، وإن لم يكن هـو بعينـه، قال الشاعر:

لَيْبُـونَ أيسـارٌ ذوُو يُسُرٍوَّاس مَكـرُمَةٍ أبـنـاءُ أيسـارِ
تَلْقَ مِنهمْ تَقُل لاقَيْتُ مثلُ النُّجوم التي يسرِي بها الساري
سَـيِّدهـم

وقد قال مثل الذي وصَفنا جعفر الضبّيُّ في الفضل بن سهل: أيُّها الأمير أشْـكَتني عـن وصـفك تَساوي أفعالك في السُّؤدد، وحيَّرني فيها كثرَةُ عددها، فليس إلى ذكر جميعها سـبيلِ، وإن أردتُ وَصف واحدةٍ اعترضتْ أختها، إذْ لم تكن الأُولى أحقَّ بالذكر، ولست أصفُها إلاّ بإظهار العَجز عـن وَصفها، ولذلك قالوا: أحلم من الأحنف، وما هو إلاَّ في حلم معاوية وأحلم مِن قَيـس بـن عاصـم، ولم يقولوا: أحلمَ من عبد المطَّلب، ولاَ هو أحلم من هاشم، لأنَّ الحلم خَصلة من خصـاله كتمـام حلمه، فلمَّا كانت خصالهُ متساويةً، وخلالُـه مشـرفة متوازيـةِ، وكلُّها كـان غالبـاً ظ اهراً، وقـاهراً غامراً، سمِّي بأجمعِ الأشياء ولم يُسمّ بالخصلة الْوَاحدة، فيسـتدلَّ بـذلك علـى أنَّهـا كـانت أغلـب خصـــــــــــــــــــــال الخيـــــــــــــــــــــرِ علَيـــــــــــــــــــــه.

هجاء السفهاء للأشراف وإذا بلغ السَّيدُ في السُّؤدَدِ الكمالَ، حسده من الأشراف مـن يُظـنُّ أنَّـه الأحقُّ به، وفخرت به عشيرته، فلا يزال سفيهٌ من شعراء تلك القبائـل قـد غـاظه ارتفـاعُه علـى مرتبةِ سيَّد عشيرتَه فهجاه، ومن طلب عيباً وجَدَه، فإن لم يجدْ عيباً وجدَ بعضَ ما إذا ذكره، وجَـد مَن يغلط فيه ويحمله عنه، ولذلك هُجِيَ حِصنُ بن حذيفةَ، وهُجِيَ زُرارة ابن عُـدس، وهُجِـيَ عبـدُ

اللَّه بن جُدعان، وهجيَ حاجب بن زرارة، وإنَّما ذَكَرتُ لك هؤلاء لأنهم من سؤدَدِهم وطاعةِ القبيلة لهم، لم يذهبوا فيَمنْ تحت أيديهم من قومِهِمْ، ومن حلفائهم وجيرانهم، مَذْهَبَ كُليبِ بن ربيعة، ولا مذهب حذيفة بن بدر، ولا مذهبَ عيينة بنِ حصن، ولا مذهبَ لقيط بن زُرارة، ولأنَّ لقيطاً لم يأمر بسحب ضَمْرة بن ضمرة إلاَّ وهو لو بَقي لَجاوز ظلم كليب وتهكم عيينة، فإنَّ هؤلاَء وإن كانوا سادةً فقد كانوا يَظلمون، وكانوا بين أن يظلموا وبين أن يحتملوا ظلماً ممن ظلمهم، ولا بدَّ من الاحتمال كما لا بُدَّ من الانتصار، وقد قال عزَّ وجلَّ: "وَلَكُمْ في القِصاصِ حَياةٌ"، وإلى هذا المعنى رجَع قولُ الحكيم الأوَّل: بعضُ القَتلِ إحياءٌ للجميع، حزم السادة وعامَّة هؤلاء السَّادة لم يكنْ شأنهم أن يردُّوا الناسَ إلى أهوائهم، وإلى الانسياق لهم بعُنْف السَّوق، وبالحَرَبِ في القَوْدِ، بل كانوا لا يؤثرون التَّرهيبَ على الترغيب، والخشونة على التليين، وهم مع ذلك قد هُجُوا بأقبح الهجاءِ، ومتى أحبَّ السَّيِّدَ الجامعَ، والرئيسَ الكاملَ قومُه أشدَّ الحبِّ وحاطَهمْ عَلى حسب حبه لهم، كان بُغْضُ أعدائهم له على حسب حبِّ قومه له، هذا إذا لم يَتوثَّب إليه ولم يعترض عليه من بني عمّه وإخوته مَن قد أطمعتْه الحال باللَّحاق به، وحَسَدُ الأقاربِ أشدُّ، وعداوتُهم على حسب حسدهم، وقد قال الأوَّلون: رِضا الناس شيءٌ لا ينال، وقد قيل لبعض العرب: مَن السَّيِّدُ فيكم? قال الذي إذا أقبل هِبناه، وإذا أدْبَرَ اغتبناه وقد قال الأَوَّل: بَغْضَاء السُّوَق موصولة بالملوك والسادة، وتجري في الحاشية مجرى الملوك، صعوبة سياسة العوام وليس في الأرض عملٌ أكدّ لأهله من سِياسة العوامّ، وقَدْ قال الهذْليُّ يصف صُعوبة السياسة:

سياسة الأقوامِ فاعلَمْ لها صَعْدَاءُ مَطلبُها طويل

وقال آخرُ في شبيه بهذا المعنى:

النَّدى في كلِّ قلبٍ ثَنيَّةٌمَصْعَدٌ حَزْنٌ وُمْنحَدرٌ سَهْلُ
الفتى في كلِّ نيلٍ يُنِيلُه انقضى، لَوْ أنَّ نائله جَزْلُ

وقال عامر بن الطُّفيل:

وإنْ كُنتُ ابن سيِّدِ عامرٍ وفَارسها المشهور في كلِّ مَوكبِ
سوَّدَتني عامر من اللَّه أنْ أسمو بأمٍّ ولا أبِ

أحمي حِماها أذاها وأرْمي مَن رماها
وأتَّـقـي بِمَنْكبِ

وقال زياد بـن ظَبيـان لابنـه عُبيـد اللَّـه بـن زيـاد وزيـادٌ يُغرغِـر بنفسه: ألا أُوصي بك الأمير? قـال: لا، قـال: ولـم? قـال: إذا لـم يكنْ للحي إلاَّ وَصِيَّةُ الميِّت، فالحيُّ هو الميِّت، وقال آخر في هذا المعنى:

لا يأتي بغير تطلُّب

وقال بَشامة بن الغَدير في خلاف ذلك، وأن يثبت أن يكون منه كان:

أبي فيهم وَجَدِّي كليهما ويؤتَى أمره وهو مُحْتَبي
أتَعَمَّل للـسِّـيادة فِـيهِـمُ ولكِنْ أتَتني طائعاً غيرَ مُتْعب

بحث في السعادة ومن الناس من يقـول: إن العيـشَ كلَّـه فـي كثرة المال، وصحة البدن، وخمول الذكر، وقـال مَـن يخـالفه: لا يخلو صاحب البدَن الصَّحيحِ والمال الكثير، مِنْ أن يكون بـالأُمور عالماً، أو يكونَ بها جاهلاً، فإن كانَ بها عالماً فعلمُه بهـا لا يـتركه حتَّـى يكـون لـه مـن القـول والعَمـل علـى حسـب علمـه، لأنَّ المعرفة لا تكون كعـدمها، لأنَّهـا لـو كـانت موجـودة غيـرَ عاملـة لكانت المعرفة كعدمها، وفي القول والعملِ مـا أوجـبَ النَّباهـة، وأدنى حالاته أنْ تُخرِجه من حدِّ الخمول، ومتى أخرجته مـن حـدِّ الخمـول فقـد صـار معرَّضـاً لمـن يقـدر علـى سـلبه، وكمـا أنَّ

المعرفة لا بدَّ لها من عملٍ، ولا بدَّ للعمل مـن أن يكـون قـولاً أو فعلاً، والقول لا يكونُ قولاً إلاَّ وهناك مَقُول له، والفعـلَ لا يكـون فعلاً إلاَّ وهنـاك مفعـول لـه، وفـي ذلـك مـا أخْـرَج مـن الخمـول وعُرِف به الفاعـل، وإذا كـانت المعرفـةُ هـذا عملُهـا فـي التنـبيه على نفسها، فالمالُ الكثيرُ أحقُّ بأنَّ عملَـه الدّلالـةُ علـى مكـانه، والسِّـعايةُ علـى أهلـه، والمـالُ أحـقُّ بالنميمـة، وأولـى بالشـكر، وأخدع لصاحبه، بل يكون له أشدَّ قهراً، ولحيِّه أشـدَّ فسـاداً، وإن كانتْ معرفتُه ناقصةً فبقـدْر نقصـانها يجهـل مواضـع اللـذة، وإن كانت تامَّـةً فبقـدْر تمامهـا يُنْفَـى الخمـول ويُجلـبُ الـذِّكر، وبعـدُ فليس يَفْهم فضيلة السلامة، وحقائق رُشْدِ العافية، الـذين ليـس لهمْ من المعرفة إلاَّ الشَّدْو، وإلاَّ خلاَق أوساطِ الناس، ومتى كان ذلك كذلك، لم يُعرَف المـدْخَل الـذي مـن أجلـه يَكـره ذو المـال الشُّهرة، ومن عَرَفَ ذلـك علـى حقِّـهِ وصـدقِهِ، لـم يـدَعّه فهمُـهُ لذلك حتّى يدلَّ على فهمه، وعلى أنَّه لا يفهم هذا الموضـعَ حتَّـى يفهم كلَّ ما كان في طبقته من العلم، وفـي أقـلَّ مِـن ذلـك مـا يَبين به حاله مِن حـال الخامـل، وشـروط الأمـانيّ غيـرُ شـروط جوازِ الأفعال وإمكانِ الأمورِ، وليس شيء ألذُّ ولا أسـرُّ مِـن عِـزِّ

الأمر والنهي، ومن الظَّفرِ بالأعداء، ومن عَقْد المنَـن فـي أعنـاق الرجال، والسُّرورِ بالرِّياسة وبثمرة السيادة، لأنَّ هذه الأمورَ هي نصـيبُ الـرُّوح، وحَـظُّ الـذهن، وقِسْـمُ النَّفـس، فأَمَّـا المطعـم والمشرب والمنكح والمشمَّة، وكلُّ ما كان من نصيب الحـواسّ، فقد علمْنا أنَّ كُلَّ ما كانَ أشدَّ نَهَمـاً وأرغـبَ، كـانَ أتـمَّ لوجـدانه الطعم، وذلك قياسٌ على مواقع الطُّعْـم مـن الجـائع، والشـرابِ من العطشان، ولكنَّا إذا ميَّلْنـا بيـن الفضـيلة الـتي مـع السُّـرور، وبين لذّة الطعام، وما يُحدِث الشَّره له من ألمِ السهر والالتهاب والقلق وشدَّةِ الكلب، رأينا أنَّ صاحِبَهُ مفضولٌ غيـرُ فاضـل، هـذا مَعَ ما يُسَبُّ به، ومع حمله له على القبيح، وعلى أنّ نعمتَهُ مـتى زالتْ لم يكن أحدُ أشقى منْهُ، هذا مـع سـرور العـالم بمـا وهَـبَ اللَّـه لَـهُ مـن السـلامة مـن آفـة الشَّـرَه، ومِـن فسـادِ الأخلاط. وبعدُ فلا يخلو صاحبُ الثَّروة والصامتِ الكثيرِ، الخاملُ الذكر مِن أن يكـونَ ممّـن يرَغـب فـي المركـب الفـارِه، والثـوب الليـنِ، والجاريةِ الحسـنةِ، والـدار الجيّـدة، والمطْعَـم الطيِّـب، أو يكـون ممن لا يرغب في شيءٍ من ذلك، فـإن كـان لا يرغـب فـي هـذا النوع كلِّه، ولا يعمل في ماله للدَّار الآخرةِ، ولا يُعجَـب بالأُحدوثـة

الحسنة، ويكونُ ممن لا تعْدو لذّتُهُ أن يكون كثير الصـامت، فـإنّ هذا حمارٌ أو أفسَدُ طبْعاً من الحمـار، وأجْهَـل مـن الحمـار، وقـدْ رضي أن يكونَ في مَاله أسـوأ حـالاً مـن الوكيـل، وبعـدُ فلا بُـدَّ للمال الكثير من الحِراسـةِ الشَّـديدة، ومـن الخـوف عليـه، فـإن أعَملَ الحِراسة له، وتَعب في حفظه وَحَسَبَ الخوف، خرجَ عليه فضْلٌ، فإنْ هو لم يَخَفْ عليهِ ولاَ يكون ذلـك فـي سـبيل التوكُّـل فهو في طبـاع الحمـار وفـي جهْلـه، والـذي أوجـب لَـهُ الخمـول ليؤدِّيه إلى سلامة المال لَهُ، قَدْ أعْطـاهُ مـن الجهـلِ مَـا لا يكـون مَعَهُ إلاّ مثْلُ مقْدَار لذة البهيمةِ فـي أكـل الخَبَـط، وإنْ هـو ابتـاع فُـرَّةَ الـدواب، وفُـرَّةَ الخَـدم والجَـواري، واتخـذَ الـدارَ الجيِّـدة، والطعَام الطيِّب والثّوب الليّنَ وأشباهَ ذلك، فقد دلَّ علـى مَـالِهِ، ومَن كانَ كَذلِكَ ثُمَّ ظَهرتْ لَـهُ ضَـيْعَةٌ فاشـية، أو تجـارةَ مُرْبحـة، يحتمل مثلَ ذلكَ الذي يظهَر مـن نفقتـه، وإلا فـإنَّه سـيُوجَد فـي اللُّصُوصِ عْند أوَّل مَـن يقطـع عليْـهِ، أو مكـابرة تكُـون، أو تَعـب يؤخذ لأهله المال العظيم، ولو عنى بقوله الخمول وصحةَ البـدنِ والمال، فذَهب إلى مقدارٍ من المال مقبولاً ولكن مـا لمـن كـان

مـالُه لا يجـاوز هـذا المقـدارَ يَتهيَّـأ الخمـول، طبقـات الخمـول

ولعمري إنّ الخمولَ لَيكونُ في طبقاتٍ كثيرة، قال أبو نخيلة:

شكرتُك إنَّ الشُّكْرَ حَبْلٌ من يَقضِي ومَا كلُّ مَن أقْرَضْتَه نِعْمَةً

فأحييتَ من ذكري وما كان بعض الذكرِ أنبَه من بَعْضِ

قالوا: ولسقوط الخَامل من عُيون الناس، قالت الأعرابَّية لابنهـا: إذا جلستَ معَ الناسِ فإنْ أحسَـنْتَ أنْ تقـولَ كمـا يقولـون فَقُـلْ، وإلاَّ فخالِفْ تُذْكَر وأمَّا الأصمعيُّ فزعَمَ أنَّها قالت: فخالفْ ولو بأنْ تعلِّقَ في عنُقك أيرَ حمار، وليس يقـول هـذا القـولَ إلاَّ مَـنْ ليـسَ يعرِف شَكَر الغِنى، وتقلُّبَ الأمـوال إلـى مَـا خُلِقـتْ لَـهُ، وقَطْعَهـا عُقُلَها، وخَلْعَها عُذُرَها، وتِيهَ أصحابِها، وكثرةَ خُطـاهم فـي حفظِهـا وستْرها، وعجزْهم عن إماتةِ حركتها ومنعها من جميع مَا تُنازع إليه وتحمل عليه، ملحة من الملح وقد روينـا فـي المُلـحَ أنَّ رجلاً قـال لصاحبٍ لهَ: أبُوكَ الذي جهل قدْرَهُ، وتعدَّى طَـورَه، فشـقَّ العَصَـا، وفارَقَ الجماعة، لا جَرَمَ لقد هُزِم ثم أُسر ثمَّ قتلَ ثمَّ صُلب قال لَهُ صاحبهُ: دَعْني مِن ذكـر هزيمِـة أبـي، ومـن أسْـرهِ وقتِلـه وصـلبِهِ، أبُوكَ هلْ حدَّثَ نفسَه بشيء من هذا قطُّ?

حكم الأسباب في همم الناس

وليس إلى النَّاس بُعْدُ الهمم وقصَرُها، وإنما تجري الهمَـمُ بأهلهـا إلى الغايات، على قدر مَا يعـرِض لهـم مـن الأسـباب، ألا تَـرى أنّ أبعدَ النَّاس هِمَّة في نفسِه، وأشدَّهم تلفتاً إلى المراتب، لا تنازعه نفسه إلى طلب الخلافة، لأن ذلك يحتاجُ إلى نسب، أو إلى أمر قد وُطِّئ لَهُ بسبب، كسبَب طلبِ أوائل الخَوارج الخلافة بالدِّين وحدَه دونَ النَّسب، فإن صارَ من الخوارج فقـد حـدثَ لـه سـببُ إمكـانِ الطَّلـب، أكْـدى أم نجـح، وقـد زعـمَ نـاسٌ مـن العلمـاء أنَّ رجـالاً خُطِبت للسِّيادة والنَّباهة والطَّاعة في العشيرة.

سلطان الحظ في نباهة القبيلة

وكذلك القبيلة ربَّما سَعِدت بالحظّ، وربَّما حظيت بالجَدِّ، وإنَّما ذلك على قدر الاتفاق، وإنمـا هـو كالمعافَى والمبتلى، وإنما ذلك كما قال زهير:

المنايا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْتُمِتْهُ ومَنْ تُخْطئ فيَهْرَمِ

سلطان الحظ على الآثار الأدبية

وكما تَحْظَى بعض الأشعار وبعـض الأمثـال، وبعـضُ الألفـاظ دون غيرها، ودونَ ما يجرى مجراها أو يكونُ أرفَـعَ منهـا، قـالوا: وذلـك موجودٌ في المرزوق والمحروم، وفي المُحارَف والذي تجوز عليه الصَّدَقَةُ، وكم مِن حاذقٍ بصناعته، وكثير الجَوَلانَ في تجارته، وقـد بلـغ فَرغانَـة مـرَّة، والأنـدلس مـرة، ونقَّـب فـي البلاد، وربَـع فـي الآفاق، ومن حاذقٍ يُشَاوَر ولا يُسـتَعْمَل، ثـمَّ لا تجـدهما يَسـتَبِينان، من سُوءِ الحال وكثرة الدَّين، ومـن صـاحب حـربٍ منكـوب، وهـو اللَّيـثُ علـى براثنـه، مـعَ تمَـامِ العزيمـةِ وشـدَّة الشَّـكيمة، ونَفَـاذ البصيرة، ومـع المعرفـة بالمكيـدة والصَّـبْر الـدَّائمِ علـى الشـدَّة، وبَعْدُ؛ فكَمْ مِن بيت شعر قد سار، وأجـودُ منـه مقيـمٌ فـي بطـون الدَّفاتر، لا تزيده الأيَّامُ إلاَّ خمولاً، كما لا تزيد الذي دونَه إلاَّ شُـهرةً ورِفعةً، وكم من مَثلٍ قد طار به الحظُّ حتَّـى عرَفَتـه الإمـاءُ، ورَوَاه الصِّبيان والنِّساء،

أثر الحظ في نباهة الفرسان

وكذلك حظوظ الفُرسان، وقد عُرِفتْ شُهرةُ عنترة في العامَّة، ونباهـة عمـرو بـن مَعْـدِ يكَـرب، وضَرَبَ الناسُ المثلَ بعبيد اللَّه بن الحُرّ، وهم لا يعرفون، بل لم يسمعُوا قطُّ بعتُيَبـة بـن الحـارث بن شهاب، ولا بِبسطامِ بن قيس، وكان عامرُ بن الطفيل أذكَرَ منهما نسباً، ويـذكرون عُبيـدَ اللَّـه

بنَ الحُرِّ، ولا يعرفونَ شُعبة بن ظُهير ولا زُهيرَ بن ذُؤيب، ولا عَبَّادَ بنَ الحصين، ويـذكرون اللسـن والبيان والخطيب ابن القِرِّيَّة ولا يعرفون سَحبانَ وائل، والعامَّة لم يصل ذكر هؤلاء إليهم إلاَّ مـن قِبَل الخاصَّة، والخاصَّة لم تَذْكُر هؤلاء دون أولئك، فتركَتْ تحصيلَ الأمورِ والموازنَـةَ بيـن الرجـال وحكَمتْ بالسَّابق إلى القلب، على قدر طباع القلب وهيئته، ثـمَّ اسـتوت عِلـل العامَّـة فـي ذلـك وتشابهت، والعامَّة والباعَة والأغنياء والسِّفْلةُ كـأنَّهم أعـذارُ عـامٍ واحـد، وهـم فـي بـاطنهم أشـدُّ تشابهاً من التوأمين في ظاهرهما، وكذلك هم في مقادير العقول وفي الاعتراض والتسـرُّع، وإن اختلفت الصُّور والنَّغَم، والأسْنان والبلدان، تشابه طبائع العامّة في كلّ بلدة وفي كل عصر وذكر اللَّه عـزَّ وجـلَّ ردَّ قريـشٍ ومُشـرِكي العَـرَبِ علـى النـبيِّ صـلى اللـه عليـه وسـلم قـولَهُ، فـذكر ألفاظَهم، وجَهْد معانيهم، ومقادير هممهم التي كانت فـي وزن مـا يكـون مـن جميـع الأمـم إلـى أنبيائهم، فقال:"تَشَابَهتْ قُلُوبُهمْ" وقال: "أَتَواصَوْا بِهِ" ثم قال: "وَخُضـتمْ كالَّـذِي خَاضُـوا"، ومثـلُ هذا كثير، أَلا ترَى أَنَّكَ لا تَجدُ بُدًّا في كلِّ بلدةٍ وفي كلِّ عصر للحاكة مـن أن يكونـوا علـى مقـدارٍ واحد وجهة واحدةٍ، من السَّخَط والحمق، والغباوة والظلم، وكذلك النخَّاسون على طبقاتهم، من أصناف ما يبيعون، وكذلك السماكون والقَلاّسون وكذلك أصـحابُ الخُلقـان كلُّهـم، فـي كـلِّ دهـرٍ وفـي كـلِّ بلـدٍ، علـى مثـال واحـد، وعلـى جهـةٍ واحـدَة. وكلُّ حجَّامٍ في الأرض فهو شديد الاستهتار بالنبيذ، وإن اختلفوا في البُلدان والأجناس والأسـنان، ولا ترى مسجوناً ولا مَضْروباً عندَ السُّلطان إلاَّ وهُو يقول: إنّي مظلوم، ولذلك قال الشاعر:

يَخلق اللَّهُ مَسْجُوناً تسائلُـهُ مَالُ سِجْنك إلاّ قالَ مَظلومُ

وليس فـي الأرض خَصـمانِ يتنازعـان إلـى حـاكم، إلاّ كـلُّ واحـدٍ منهمُا يدَّعِي عدمَ الإنصاف والظُّلم على صاحبه.

مبالغة الإنسان في تقدير ما ينسب إليه

وليـس فـي الأرض إنسـانٌ إلاَّ وهُـوَ يطـرَب مـن صـوتِ نفسـه، ويعتريه الغَلطَ في شعرِه وفي ولده، إلاّ أنَّ الناسَ في ذلك علـى

طبقاتٍ من الغَلط: فمنهم الغرق المغمور، ومنهم من قد نال من الصواب ونال من الخطأ، ومنهم من يكون خطؤه مستوراً لكثرة صوابه، فما أحسَنَ حالَهُ ما لم يُمتَحَنْ بالكشف، ولذلك احتاج العاقل في العُجْبِ بولده، وفي استحسان كتبه وشعره، من التحفظ والتوقِّى، ومن إعادة النظَر والتُّهمة إلى أضعاف ما يحتاج إليه في سائر ذلك

جود حاتم وكعب بن مامة

والعامّة تحكم أنَّ حاتماً أجودُ العرب، ولو قَدَّمَتْه على هَرمٍ الجَوادِ لما اعترَضْتَه عليهم، ولكنَّ الذي يُحَدَّثُ به عن حاتم، لا يبلغ مقدارَ ما رَوَوْهُ عن كعبِ بن مامة، لأنَّ كعباً بذَلَ نفسَه في أعطية الكرم وبَذْل المجهود فساوى حاتماً من هذه الوجه، وبايَنَه ببذْل المُهجة ، ونحن نقول: إنَّ الأشعارَ الصحيحة بها المقدارُ الذي يوجبُ اليقين بأنَّ كعباً كان كما وصفوا، فلو لم يكن الأمرُ في هذا إلى الجُدود والحظوظ والاتِّفاقات، وإلى عللٍ باطنةٍ تجري الأمورُ عليها، وفي الغَوصِ عليها وفي مَعرِفتِها بأعيانها عُسر، لَمَا جرت الأمورُ على هذه المجاري، ولو كان الأمرُ فيها مفوَّضاً إلى تقدير

الرأي، لكان ينبغي لغالب بن صعصعةَ أن يكـونَ مـن المشـهورين بالجود، دون هرِمٍ وحاتم

كلف العامة بمآثر الجاهلية

فـإنْ زعمـتَ أنَّ غالبـاً كـان إسـلاميًّا وكـان حـاتمٌ فـي الجاهليـة، والناسُ بمآثر العرب في الجاهليَّة أشدُّ كلفاً، فقـد صـدقْت، وهـذا أيضاً يُنبئـك أنَّ الأمـور فـي هـذا علـى خلاف تقـدير الـرأي، وإنَّمـا تجري في الباطن علـى نسـقٍ قـائم، وعلـى نظـر صـحيح، وعلـى تقدير محكم، فقد تقدَّم في تَعْبيتهما وتسويتهما مَنْ لا تخفى عليـه خافيـة، ولا يفُـوتُه شـيءٌ ولا يُعجـزه، وإلاّ فمـا بـالُ أيَّـامِ الإسـلام ورجالها، لم تكنْ أكبرَ في النفوس، وأحلَّ في الصـدور مِـن رجـال الجاهليَّة، مع قُرب العهد وعِظَم خَطرِ ما ملكوا، وكـثرة مـا جـادت به أنفسُهم، ومع الإسلام الذي شملهم، وجعلـه اللَّـه تعـالى أولـى بهـــــــــــــــم مـــــــــــــــن أرحـــــــــــــــامهم.

ولو أنَّ جميعَ مآثر الجاهليَّة وُزنـت بـه، وبمـا كـان فـي الجماعـات اليسيرة من رجـالات قريـش فـي الإسـلام لأربـت هـذه عليهـا، أو لكانت مثلها.

كتاب الحيوان
الجاحظ

دلالة الخلق على الخالق

فليس لقَدْر الكلب والـدِّيك فـي أنفسـهما وأثمانهمـا ومناظرهمـا ومحلِّهما من صُدور العامَّة أسلفنا هذا الكلام، وابتدأنا بهذا القـول، ولسنا نقِف على أثمانهما من الفضَّة والـذَّهب، ولا إلـى أقـدارهما عند الناس، وإنما نَتَنَظَّرُ فيما وضع اللَّه عزَّ وجلَّ فيهما من الدَّلالـة عليه، وعلى إتقـان صُـنْعه، وعلـى عجيـب تـدبيره، وعلـى لطيـفِ حكمته، وفيما استخْزنهما مـن عجـائب المعـارف، وأودعهمـا مـن غوامض الأحساس، وسخّر لهمـا مـن عظـام المنـافع والمرافـق، ودلَّ بهمـا علـى أنَّ الـذي ألبَسـهُما ذلـك التَّـدبيرَ، وأودَعَهُمَـا تِلـك الحكم، يجبّ أن يفكَّر فيهما؛ ويعتَبَر بهمـا، ويسـبَّح اللـه عـزَّ وجـلّ عندهما، فغَشَّى ظاهرهما بالبرهان، وعمَّ باطنَهما بـالحِكم، وهيَّـج عَلَى النظر فيهما والاعتبار بهما؛ ليعلم كلُّ ذي عقل أنّه لـم يَخْلـق الخلق سُدًى؛ ولم يترك الصُّور هَمَلاً؛ وليعلموا أنَّ الله عزّ وجلّ لم يَـدَع شـيئاً غُفْلاً غيـر موسـوم، ونـثراً غيـر منظـوم، وسُـدًى غيـر محفوظ؛ وأنّه لايخطئه من عجيـب تقـديره، ولا يعطلـه مـن حلْـي تدبيره، ولا من زينة الحكم وجلال قدرة البرهان، ثمَّ عمّ ذلـك بيـن

الصُّؤابِة والفرَاشة، إلـى الأفلاك السـبعة ومـا دونَهـا مـن الأقـاليم السبعة.

تأويل الآية الكريمة: "ويخلق ما لا تعلمون".

وقد قال تعالى: "وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ"، وقد يتَّجه هذا الكلامُ في وجوه: أحدها أنْ تكون ها هنا ضروبٌ من الخلـق لا يعلـم بمكـانهم كثيرٌ من الناس، ولابدَّ أن يعرف ذلك الخَلْقُ معنَى نفسه، أو يعلمه صـفْوة جنُـودِ اللـه وملائكتـه، أو تعرِفَـه الأنبيـاء، أو يعرِفَـه بعـضُ الناس، لايجوز إلاّ ذلك، أو يكون الله عَّز وجلَّ إنما عنـى أنّـه خلـق أسباباً، ووهب عِلَلاً، وجعل ذلك رِفداً لما يظهرُ لنـا ونظامـاً، وكـان بعض المفسِّرين يقول: من أراد أن يعرف معنـى قـوله: "وَيَخْلُـقُ مَا لاَ تَعْلَمُون" فَلْيُوقِدْ ناراً في وسط غَيضه، أو فـي صـحراء بريّـة ثمّ ينظر إلى ما يغشى النـارَ مـن أصـناف الخلـق مـن الحشـرات والهمج فإنّه سيرى صُوراً، ويَتَعـرَّف خلقـاً لـم يكـن يظـنُّ أنَّ اللـه تعالى خلق شيئاً من ذلك العـالم، وعَلَـى أنَّ الخلـق الـذي يغْشـى نارَهُ يختلف عَلَى قدر اختلافِ مواضـعِ الغيـاض والبحـار والجبـال، ويعلم أنَّ مَا لم يبلغـه أكـثرُ وأعجـب، ومَـا أردُّ هـذا التأويـل، وإنّـه

ليدخل عندي في جملةِ مَا تدلُّ عليه الآية، ومَنْ لَـمْ يَقـل ذلـك لـم يفهَمْ عن ربِّه ولم يفقَهْ في دينه.

ديدان الخل والملح

كأنّك لا ترى أنَّ في دِيدانِ الخلِّ والملحِ، والدِّيدَانِ التي تتولد فـي السُّـموم إذا عَتقـت وعـرض لهـا العفـن وهـي بَعْـدُ قواتـل عـبرةً وأُعجوبة، وأنَّ التفكّر فيها مَشحذةٌ للأذهان، ومَنْبَهةٌ لذَوي الغفْلـة، وتحليلٌ لعقدة البُلْـدة، وسـببٌ لاعتيـاد الرويّـة وانفسـاح الصـدور، وعزٌّ فـي النفـوس، وحلاوةٌ تقتاتَهـا الـرُّوح، وثمـرةٌ تغَـذِّي العقـل، وتَرَقٍّ في الغايات الشريفة، وتَشَرُّفٌ إلى معرفَة الغايات البعيدة،

فأرة البيش والسمندل

وكأنّك لا تـرى أنَّ فـي فـأرة الـبيش وفـي السـمنْدَل آيَـةً غربيـة، وصفةً عجيبة، وداعيةً إلى التفكُّر، وسبباً إلى التعجُّب والتَّعجيب.

الجُعَل والورد

وكأنَّك لا ترى أنّ في الجُعَل، الذي متى دفنتَه فـي الـورد سـكنَتْ حركته وبطلتْ فـي رأي العيـن رُوحُ ه، ومـتى أعـدْتَه إلـى الـرَّوث

انحلّت عُقدته، وعادت حركتُه، ورجَع حسُّه أعجَبَ العجَبِ، وأحكم الحكم.

حصول الخلد على رزقه

وأيُّ شيء أعجبُ من الخُلْد وكيف يأتيه رزقه، وكيف يهيِّئ الله له ما يقوته وهو أعمى لا يبصر، وأصمُّ لا يسمَع، وبليدٌ لا يتصرُّف، وأبلهُ لا يعرِف، ومع ذلك أنّه لا يجوز بابَ جُحره، ولا يتكلّف سوى ما يجلبُ إليه رازقُه ورازق غيره، وأيُّ شيءٍ أعجبُ من طائرٍ ليس له رزقٌ إلاَّ أن يخلِّل أسنانَ التِّمساح، ويكون ذلك له.

الطائران العجيبان

وأيُّ شيءٍ أعجبُ من طائرين، يراهما الناسُ من أدنى جُدود البحر من شِقِّ البصرة، إلى غاية البحر من شِقّ السِّند، أحدهما كبيرُ الجُثّة يرتفع في الهواء صُعُداً، والآخَر صغير الجثَّةِ يتقلَّب عليه ويعبَث به، فلا يزال مرَّةً يرفرِفُ حَولَه ويرتقي على رأسه، ومرَّةً يطيرُ عند ذُنابَاهُ، ويدخلُ تحتَ جَناحه ويخرُج من بينِ رجليه، فلا يزال يغُمُّه ويَكرُبه حتَّى يتّقيه بذرقِهِ، فإذا ذَرَق شحا له فاه فلا

يخطئ أقصى حلقِه حتَّى كأنّه دحا به فـي بئـر، وحتّـى كـأنَّ ذَرْقَـه مِدحاةٌ بيد أُسوار، فلا الطـائر الصـغير يخطـئ فـي التلَقِّـي، وفـي معرفته أنّه لا رزق له إلاّ الذي في ذلك المكان؛ ولا الكبير يخطـئ التَّسديد، ويعلمُ أنّه لا ينجيـه منـه إلا أنْ يتّقِيَـه بـذرْقِه، فـإذا أوعـى ذلك الذَّرْق، واستَوْفى ذلك الرِّزق، رجع شبعانَ ريَّانَ بقُوتِ يـومه، ومضى الطائرُ الكبير لِطِيَّتِه، وأمرهما مشهورٌ وشـأنهما ظَـاهر، لا يمكن دفُعه ولا تُهَمَةُ المخبِرين عنه.

اختلاف بين الحيوان في الطباع

فجعل تعالى وعزَّ بعضَ الوحوش كَسُوباً محتالاً، وبعضَ الوحـوش متوكِّلاً غيرَ محتال، وبعـضَ الحشـرات يـدَّخِر لنفسـه رِزْقَ سـنَتِه؛ وبَعضاً يتَّكل على الثِّقةِ بأنَّ له كـلَّ يـوم قَـدْرَ كِفـايتِهِ، رزقـاً معَـدًّا وأمراً مقطوعاً، وَجَعَلَ بعضَ الهمَج يدَّخر، وبعضَه يتكَسَّب، وبعضَ الذكورة يعُولُ وَلده، وبعض الذكورة لا يعرف وَلده، وبعضَ الإنـاث تُخَرِّج ولدها، وبَعض الإناث تضيِّع ولدها وتكفلُ وَلدَ غيْرِهـا، وبَعْـضَ الأجناس معطوفَةً على كل وَلَد من جنسها، وبعض الإناث لا تعرف وَلدَها بعد استغْنَائهِ عنهـا، وبعـض الإنـاث لا تـزال تعرِفُـه وتعطـفُ

عليْهِ، وبعضَ الإناث تأكلُ وَلـدهَا، وكـذلك بعـض الـذكُورة، وبعـضَ الأجناس يُعادي كُلَّ ما يكسر بيضَـها أو يأكـل أولادَهَـا، وجعـل يُتْـمَ بعضِ الحيوان من قِبَل أمَّهاتها، وجعل يُتْمَ بعضها مـن قِبَـل آبائهـا، وجعـل بعضَـها لا يلتمـس الولـد وإن أتـاه الولـد، وجعـل بعضَـها مستفرِغَ الهَمِّ في حُبِّ الذَّرءِ والتماس الولدِ؛ وجعل بعضها يُـزَاوِج وبعضـها لا يـزاوِج ليكـون للمتوكـل مـن النـاس جهـةٌ فـي تـوكُّله، وللمتكسِّب جهـةً فـي تكسُّـبِه وليُحضِـرَ علـى بـالهم أسـباب البِـرِّ والعُقوق، وأسبابَ الحظْر والتربية، وأسبابَ الوَحشة من الأرحـام الماسَّة، افتراق المعاني واختلاف العلل ولمكانِ افـتراق المعـاني واختلافِ العلل، قال رسول الله صلى الله عليـه وسـلم لبعضـهم: اعقِلْهَا وتَوَكَّلْ، وقال لبلال: "أَنفِقْ بلاَل، ولاتخشَ مِـنْ ذي العَـرْش إقْلاَلاً".

فـافهموا هـذا التـدبيرَ، وتعلَّمـوا هـذه الحكـم، واعرفـوا مـداخلَها ومخارجَها ومفرَّقَها ومجموعَها؛ فإنَّ الله عـزَّ وجـلَّ لـم يُـرَدِّد فـي كتابه ذِكرَ الاعتبارِ، والحثَّ عَلَى التفكير، والترغيبَ في النظر وفي التثبُّت والتعرُّف والتوقُّف، إلاّ وهو يريد أن تكونوا علماءَ مـن تلـك الجهـــــة، حكمـــــاءَ مـــــن هـــــذه التعبئـــــة.

المعرفة والاستدلال ولولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى، كما أنّه لولا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى، لولا تمييزُ المضارِّ من المنافع، والرديِّ من الجيِّد بالعيون المجعولة لذلك، لما جعَل الله عزَّ وجلّ العيونَ المدرِكَةَ، والإنسان الحسَّاس إذا كانت الأمور المميَّزة عنده، أخذ ما يحتاج إليه وترك ما يستغني عنه وما يَضُرّ أخذه، فيأخذ ما يحبُّ ويدَعُ ما يكره، ويشكر على المحبوب ويصبر على المكروه، حتى يذكر بالمكروه كيفيَّة العِقاب ويَذكُر بالمحبوب كيفيّة الثواب، ويعرفَ بذلك كيفيَّة التضاعيف، ويكون ما يغمُّه رادِعاً له، وممتَحَناً بالصَّبْر عليه، وما يسرُّه باسطاً له ومُمْتَحَناً بالشكر عليه، وللعقل في خِلال ذلك مجال، وللرأي تقلب، وتَنشَقُّ للخواطر أسبابٌ، ويتهيّأ لصواب الرأي أبواب، ولتكون المعارف الحسِّية والوِجدانات الغريزيّة، وتمييز الأمور بها، إلى ما يتميز عند العقول وتحصره المقاييس، وليكون عملُ الدُّنيا سُلَّماً إلى عمل الآخرة، وليترَقَّى من مَعْرِفة الحواس إلَى مَعْرِفَةِ العُقول، ومن معْرِفَة الرويّة من غايةٍ إلَى غايةٍ؛ حتَّى لاَ يرضى من العِلم والعَمَل إلاّ بما أدّاه إلَى الثَّواب الدائم، ونجَّاه من العِقاب الأليم،

ما يحسن الكلب مما لا يحسنه الإنسان

سنذكُرُ طَرَفاً ممَّا أودَعَ الله عزَّ وجلَّ الكلـبَ ممَّـا لاتحسـنُه أنـت أيُّها الإنسان، مع احتقارِك لـه وظلمِـك إيَّـاه، وكيـف لا تكـون تلـك الحكمُ لطيفةً، وتلك المعاني غَرِيبةً، وتلك الأحساسُ دقيقة، ونحنُ نَعلم أنَّ أدقَّ الناس حِسّاً وأرقّهُم ذِهناً وأحضَرَهم فَهْمـاً،وأصَـحَّهم خاطِراً وأكملَهُمْ تَجْرِبَة وعلماً، لَوْ رَامَ الشيء الذي يحسنُه الكلـب في كثيرٍ من حالات الكلب لَظَهَر له من عجزِه وخُرْقه، وكلال حدِّه وفَساد حسِّهِ، ما لا يعرف بدونه إنَّ الأمور لَم تُقسَـم علـى مقـدار رأيه، ولا عَلَى مبلغِ عقلِه وتقديره، ولا علـى محبَّتِـه وشـهوته؛ وأنّ الذي قسم ذلك لا يحتاج إلى المشاورَة والمعاونَـة، وإلـى مكاتَفـةٍ ومُرافدة، ولا إلى تجرِبة ورويّة، ونحن ذاكـرون مـن ذلـك جملاً إن شاء الله تعالى.

خبرة الكلب في الصيد

اعلم أنَّ الكلب إذا عـاين الظِّبـاءَ، قريبـةً كـانت أو بعيـدةً، عـرف المعْتَـلَّ وغيـر المعْتـل وعـرَف العَنـز مـن التَّيـس، وهـو إذا أبصـرَ القطيعَ لم يقصِد إلاّ قصدَ التَّيس وإنْ علم أنّه أشدُّ حُضراً، وأطولُ

وثْبةً، وأبعـدُ شـوطاً ويَـدَعُ العنـز وهـو يـرى مـا فيهـا مـن نقصـان حُضْرها وقصر قابِ خَطوها، ولكنَّه يعلم أنّ التَّيس إذا عدا شــوطاً أو شـــــــــــــوطين حَقِـــــــــــــبَ ببـــــــــــــوله.

ما يعرض للحيوان عند الفزع وكـلُّ حيـوانٍ إذا اشـتدَّ فزعـه، فـإنّه يَعرِض له إمَّا سَلَس البول والتقطير، وإمَّا الأُسْرُ والحَقَب، وكـذلك المضروب بالسياط على الأكتـاف، وبالعصـيِّ علـى الأسـتاه، ومـا أكـثر مـا يعـتريهم البـول والغـائط، وكـذلك صـار بعـضُ الفرُسـان الأَبطال إذا عايَنَ العدُوّ قطَّرَ إلـى أن يـذهب عنـه، لهَـولِ الجَنـان، وإذا حَقِبَ التَّيس لم يستطع البَول مـع شـدَّة الحُضـر، ومـع النَّفْـزِ والزَّمَع، ووضع القوائم معاً ورَفعِها مَعاً، فـي أسـرَعَ مـن الطَّـرْف فيثقُـل عَـدْوُهُ، ويقصـرُ مَـدَى خُطـاه، ويعـتريه البُهْـر حتَّـى يلحقـه الكلبُ فيأخـذه، والعنـز مـن الظِّبـاء إذا اعتراهـا البـولُ مـن شـدَّه الفزَع لم تجمعه، وحذفت بـه كـإيزاغ المَخَـاض الضّـوارِبِ، لسَـعَةِ السَّبِيل وسهولةِ المخرج، فتصـير لـذلك أدومَ شَـدّاً، وأصـبرَ علـى المطاولـــة.

فهذا شيءٌ في طبعِ الكلب معرفتُه، دونَ سائر الحيـوان. والكلـب المجرِّب لا يحتاجُ في ذلك إلى مُعاناةٍ، ولا إلى تعلُّم، ولا إلى رويّــة

ولا إلى تكلف، قد كفاه ذلك الذي خَلَق العَقل والعاقل والمعقُول، والداءَ والدواءَ والمداواةَ والمداوِي، وقسَم الأُمور علـى الحكمـة، وعلى تمام مصلحة الخليقة.

ذكاء الكلب ومهارته في الاحتيال للصيد

ومن معرفة الكلـب، أنَّ المُكلِّـب يُخرجـه إلـى الصـيد فـي يـومِ، الأَرضُ فيه ملبَسة من الجليد، ومغشَّـاةٌ بالثّلـجِ، قـد تراكـم عليهـا طبقاً عَلَى طبَق، حتَّى طبَّقها واستفاض فيهـا، حتَّـى ربَّمَـا ضـربتْه الريح ببَرْدها، فيعود كلُّ طبقٍ منها وكأنّه صفاةٌ ملسـاء، أو صـخرةٌ خلْقاء، حتى لا يثبت عليهـا قَـدَمٌ ولا خُـفٌّ، ولا حـافر ولا ظِلـف، إلاَّ بالتثبيت الشديد، أو بالجَهْدِ والتَّفريق فيمضي الكلاّبُ بالكلب، وهو إنسانٌ عَاقل، وصـيَّادٌ مجـرِّب، وهـو مـع ذلـك لا يـدري أيـنَ جُحـر الأَرنب من جميعِ بَسائِطِ الأرض، ولا موضعَ كُناس ظـبيٍ، ولا مَكْـوِ ثعلب، ولا غيرَ ذلك من موَالج وحوشِ الأرضِ؛ فيتخَّرق الكلب بيـنَ يديه وخَلفَهُ، وعن يمينه وشماله ويتشمّمُ ويتبصّر، فلا يزال كـذلك حتَّى يقِف على أفواه تلك الجِحَرة، وحتى يُثير الذي فيهـا بتنفيـس الذي فيها، وذلك أن أنفاسها وبُخارَ أجوافهَا وأبدانِها، وما يخرج من

الحرارة المستكنّةِ في عمق الأرض ممّا يُذيب ما لاقاهَا من فَمِ الجُحْر، من الثَّلجِ الجامد، حتى يرقَّ ويكاد أن يثقبه وذلك خفيٌّ غامض، لا يقع عليه قانص ولا راعٍ، ولا قائف ولا فلاّح، وليس يقع عليه إلاّ الكلب الصائد الماهر، وعلى أنّ لِلكلب في تَتَبُّع الدُّرَّاج والإصعادِ خَلْفَ الأرانب في الجبل الشاهق، من الرِّفق وحسن الاهتداء والتأتِّي ما يخفى مكانه على البيازرة والكلاّبين.

الانتباه الغريزي في الكلب

وقد خبّرني صديقٌ لي أنّه حبس كلباً له في بيتٍ وأغلَقَ دونه الباب في الوقت الذي كان طبَّاخه يرجع فيه من السوق ومعَه اللحم، ثمَّ أحدَّ سِكِّيناً بسكين، فنبَح الكلب وقَلق، ورام فتحَ الباب؛ لتوهمّه أنَّ الطَّبَّاخ قد رجَع من السوق بالوظيفة، وهو يحد السِّكِّين ليقطع اللَّحم ، قال: فلما كان العشيُّ صنَعْنَا به مثلَ ذلك، لنتعرَّف حالَه في معرفة الوقت، فلم يتحرّك، قال: وصنعتُ ذلك بكلبٍ لي آخر فلم يَقْلَقْ إلاّ قلقاً يسيراً، فلم يلبث أنْ رجَعَ الطّباخ فصنَع بالسّكِّين مثل صنيعي، فقلِق حتَّى رام فتحَ الباب، قال فقلت: والله لَئنْ كان عرفَ الوقتَ بالرَّصْد فتحرَّك له، فلما لم

يشَمَّ ريـحَ اللحـم عـرَف أنَّـه ليـس بشـيء، ثـمَّ لمـا سـمع صـوتَ السِّكِّين والوقتُ بَعْدُ لم يَذْهب، وقد جيء باللحم فشمَّ رِيحَ اللَّحم مـن المطبـخ وهـو فـي الـبيت، أو عـرف فَصْـل مـا بيـن إحـدادِي السِّكِّين وإحدادِ الطباخ، إنّ هذا أيضـاً لَعَجَـب، وإنّ اللحـمَ ليكـون بينـي وبينَـه الـذراعان والثلاث الأذرع، فمـا أجـدُ ريحَـه إلاّ بَعْـدَ أنْ أُذْنِيَـــــه مـــــن أنفـــــي، وكـــــلُّ ذلـــــك عجـــــب.

ولم أجِدْ أهل سكّة أَصطَفانُوس، ودار جاريَـةَ، وباعَـةَ مُرَبَّعَـةِ بنـي مِنْقَرٍ يشُكُّون أنَّ كلباً كان يكونُ في أعلـى السـكة، وكـان لايجـوز مَحْرَس الحارس أيامَ الأسبوع كلِّه، حتَّى إذَا كان يومُ الجمعة أقبلَ قَبْلَ صلاة الغداة، من موضعه ذلك إلى باب جاريَة، فلا يزال هنـاكَ مادام على مِعْلاقِ الجزَّار شيءٌ من لحم، وباب جاريَة تُنحـر عنـدَه الجُزُر في جميع أيَّام الجمع خاصَّة، فكان ذلك لهـذا الكلـب عـادةً، ولم يره أحدٌ منهم في ذلك الموضع في سائر الأيَّام، حتَّى إذا كـان غداةَ الجمعة أَقبَل. فليس يكونُ مِثلُ هذا إلاّ عن مقداريّةٍ بمقـدار ما بين الوقتين، ولعلَّ كثيراً من الناس ينتابون بعّض هذه المواضع في يومِ الجمعةِ، إمّا لصلاةٍ، وإمّا لغير ذلـك، فلا يَعْـدِمُهُم النِّسـيان من أنفسهم، والاستذكار بغيرهم، وهذا الكلبُ لم ينسَ من نفسه،

ولا يستذكر بغيره، وزعم هؤلاء بـأجمعهم أنَّهـم تفقَّـدوا شـأنَ هـذا الكلب منذ انتبهوا لصَنِيعه هذا، فلم يجِدُوه غادرَ ذلك يومـاً واحـداً، فهذَا هذا.

قصّة في وفاء الكلب

وأنشد أبو الحسن بن خالويه عن أبي عُبيدة لبعض الشعراء:

عنهُ جارُهُ وشـقـيقُـه وينبِش عنه كلْبُهُ وَهْو ضارِبُهْ

قال أبو عبيـدة: قيـل ذلـك لأنَّ رجلاً خـرج إلـى الجَبّـان ينتظـر رِكابَه فأتبعه كلـبٌ كـان لـه، فضـرب الكلـبَ وطـردَه، وكـره أن يتبعه، ورماه بحجر، فأبى الكلـبُ إلاّ أن يـذهب معـه، فلمـا صـار إلى الموضع الذي يريد فيـه الانتظـار، ربـضَ الكلـبُ قريبـاً منـه، فبينا هو كذلك إذ أتاهُ أعداءٌ لَهُ يطلبونه بطائلةٍ لهم عنـده، وكـان معه جار لَهُ وأخوه دِنْيـاً، فأسـلماه وهربـا عنـه، فجـرح جِراحـاتٍ ورُمي بهِ في بئرٍ غيرِ بعيـدة القعـر، ثـم حَثَـوْا عليـه مـن الـتراب حتَّى غَطَّى رأسه ثم كُمِّـمَ فـوقَ رأسِـه منـه، والكلـبُ فـي ذلـك يَزجُم ويَهِرُّ، فلمَّا انصرفوا أتى رأسَ البئْر؛ فما زال يَعوي وينبـث عنه ويحثو التُّرَابَ بيده ويكشف عـن رأسـه حـتى أظهـر رأسـه، فتنفّـسَ ورُدَّتْ إليـه الـرُّوح؛ وقـد كـاد يمـوتُ ولـم يبـق منـه إلاّ

حُشاشة، فبينا هو كذلك إذ مَرّ ناس فأنكروا مكان الكلب ورأوه كأنّه يحفِر عن قبر، فنظروا فإذا هم بالرَّجُلِ في تلك الحال، فاستشالوه فأخرجوه حيَّاً، وحَملوه حتَّى أدَّوه إلى أهله، فزعم أنّ ذلك الموضعَ يُدْعَى ببئْر الكلب، وهو مُتيامِن عن النَّجف، وهذا العملُ يدل عَلَى وَفَاء طبيعي وإلفٍ غريزي ومحاماةٍ شديدة، وعلى معرفةٍ وصبرٍ، وعلى كرم وشكر، وعلى غناءٍ عجيب ومنفعةٍ تفوق المنافع، لأَنّ ذلك كلَّه كان من غير تكلف ولا تصنُّعٍ.

مؤمن بن خاقان والأعرابي وقال مؤمَّل بن خاقان، لأعرابيٍّ من بني أسد، وقد أكَلَ جَرْوَ كلب: أتأكل لحم الكلب وقد قال الشاعر:

أسديٌّ جاعَ يوماً ببلَدةٍ وكان سميناً كلبُه فهو آكلُه

أكُلَّ هذا قَرَماً إلى اللحم؟ قال: فأنشأ الأسديُّ يقول:

بحظِّ اللَّيثِ طُعْماً وشَهْوَةً فسائِل أخا الحَلْفَاءِ إن كنتَ لا تدري

طلب الأسد للكلب

قال: وذلك لأنَّ الأسَدَ لا يحرِص على شيءٍ من اللُّحمانِ حِرصَه على لحم الكلب، وأَمّا العَامَّة فتَزعُم أَنَّ لحُوم الشاءِ أحبُّ

اللُّحمانِ إليه، قَالُوا: ولذلك يُطيـف الأسـدُ بجَنَبَـاتِ القُـرى، طلبـاً لاغـترار الكلـب؛ لأنَّ وثبـة الأسـد تُعجِـل الكلـب عـن القيـام وهـو رابض، حتَّى رُبَّما دعاهم ذلك إلى إخراج الكلب من قُراهم؛ إلاّ أنْ يكون بقرب ضِياعهم خنازيرُ، فليس حينئذٍ شيءٌ أحـبَّ إليهـم مـن أن تكثر الأُسد عنـدهم، وإنَّمـا يُخرجـون عنهـم فـي تلـك الحـالات الكلاب، لأنَّهم يخافونها علـى مـا هـو عنـدهم أنفَـسُ مـن الكلـب، وهذه مصلحةٌ في الكلب، ولا يكون ذلك إلاّ في القُرى التي بقُربِ الغَيْضَـــــــــــــــــــــــةِ أو المأسَـــــــــــــــــــــــدة.

علة طلب الأسد للكلب فزعـم لـي بعـض الـدَّهاقِينِ قـولاً لا أدري كيف هو، ذكر أنَّهم لا يشكُّونَ أنَّه إنَّما يطلبُ الكلبَ لحَنَقه عليه، لا من طريقِ أنّ لحمَه أحبُّ اللُّحمان إليـه، وإنَّ الأسـدَ ليَـأتي مَنـاقِع الميـاه، وشـطوطَ الأنهـار، فيأكـل السَّـراطين والضـفادع، والـرَّق والسلاحف، وإنَّه أشرَهُ مِنْ أَنْ يختارَ لحماً على لحم، قـال: وإنَّمـا يكون ذلك منه إذا أرادَ المتطرِّفَ من حمير القرية وشائها وســائِر دوابِّها، فإذا لَجَّ الكلبُ في النُّباح انتبهوا ونذِروا بالأسَد، فكانوا بَيْـنَ أن يحصِّنوا أموالَهم وَبينَ أن يهجهجوا به، فيرجـعَ خائبـاً، فـإذا أراد ذلك بدأ بالكلب؛ لأنْ يأمَنْ بذلك الإنذار، ثمَّ يسـتولي علـى القريـة

بمـــا فيهـــا، فإنَّمـــا يطـــالب الأســـدُ الكلابَ لهـــذه العلَّـــة. من حيـل الأسـد فـي الصـيد وسـمعتُ حـديثاً مـن شُـيُوخ مَلاَّحـي الموصـل وأنـا هـائب لـه ورأيـتُ الحـديثَ يـدُور بينهـم، ويتقبّلـه جميعُهم، وزعموا أنّ الأسدَ رُبَّما جاء إلى قَلس السفينة، فيتشـبَّث به ليلاً، والملاَّحون يمدُّون السفينةَ فلا يشكُّون أنَّ القَلْس قد التفَّ عَلى صخرة، أو تعلَّق بِجذْم شجرة، ومن عـاداتهم أنْ يبعثـوا الأوَّل مـن المـدَّادين ليحلّـه، فـإذا رجـع إليـه الملاّح ليمـدّه تمـدّد الأسـدُ بالأرض، ولزِق بها وغمّض عينيه كي لا يُبصَر وبيصُهُما بالليل، فـإذا قرُب منه وثـب عليـه فخطفَـه، فلا يكـون للملاّحيـن هـمٌّ إلاّ إلقـاء أنفُسهم في الماء وعبورَهم إليه، وربما أكله إلاّ ما بقيَ منه، ورُبما جرَّ فريسته إلى عِرِّيسهِ وعرينه، وإلى أجرائه وأشـبالِهِ، وإنْ كـانَ ذلك عَلى أميال،

سلاح الكلب وسلاح الدِّيك

قالوا: فليس الدِّيك من بابَةِ الكلب؛ لأَنّـهُ إنْ سـاوَرَهُ قَهَـرَهُ قَهْـرَاً ذريعاً، وسلاحُ الكلب الذي هو في فيـه، أقـوى مـن صِيصـة الـديك التي في رجله، وصوته أندَى وأبعَد مَدَى وعينه أيقظ.

دفاع عن الكلب

والكلب يكفي نفسه ويحمي غيره، ويعُول أهلَه، فيكـون لصـاحبه غُنمه وليس عليه غُرمه، ولَمَا يَرمَحُ الدوابُّ من الناس، ولَمَا يَحرن ويجمَع، وتنطَح وتقتُل أهلها في يـومٍ واحـد، أكثَـرُ ممَّـا يكـونُ مـن جميع الكلاب في عام، والكبش يَنْطَحُ فيعقِـر ويقتـل، مـن غيـر أنْ يُهاج ويُعبَث به، والبرذَون يَعضُّ ويرمَح من غير أن يُهاج به ويُعبَث، وأنت لا تكادُ ترى كلباً يَعضُّ أحداً إلاّ من تهييج شديد، وأكـثر ذلـك أيضاً إنَّما هو النُّباح والوعيد.

معرفة الكلب صاحبه وفرحه به

والكلب يعرِف وجهَ ربِّه من وجه عبده وأمَتِه، ووجهَ الزائـر، حتَّـى ربَّما غاب صاحب الدار حولاً مجرَّماً، فإذا أبصرَه قادِماً اعتراه من الفرَح والبصبصة، والعُواء الذي يـدلُّ علـى السـرور، وعلـى شـدِّة الحنين ما لا يكون فيه شيءٌ فوقه.

قصّة في وفاء كلب

وخبَّرني صديقٌ لي قال: كان عندنا جـروُ كلـب، وكـان لـي خـادمٌ لهِجٌ بتقريبه، مولعٌ بالإحسان إليـه، كـثيرُ المعاينـة لـه، فغـاب عـن البَصرة أشهراً، فقلت لبعضِ مَـنْ عِنْـدي: أتظنـون أنّ فلانـاً يعنـي الكلب يُثبت اليومَ صورةَ فلان يعني خادمَه الغائب وقد فارقَه وهو جرو، وقد صار كلباً يشغَر ببـوله? قـالوا: مـا نشـكُّ أنّـه قـد نسـيَ صورتَه وجميعَ بـزِّه كـان بـه، قـال: فبينـا أنـا جـالسٌ فـي الـدار إذ سمعت من قِبَلِ باب الدار نُباحَه، فلم أَرَ شِكْلَ نبـاحه مـن التـأنُّب والتعثيث والتوعّد، ورأيت فيه بَصبصةَ السُّرور، وحنين الإلْـف، ثـمَّ لم ألبَث أن رأيتُ الخـادمَ طالعـاً علينـا، وإنَّ الكلـبَ ليلتَـفُّ علـى ساقيه، ويرتفِـع إلـى فخـذيه، وينظـر فـي وجهـه، ويصـيح صـياحاً يستَبِين فيه الفرحُ، ولقد بلَغ من إفـراط سُـرورهِ أنِّـي ظَننـتُ أنّـه عُرِض، ثمَّ كان بعد ذلك يغيـب الشَّـهرين والثلاثـة، أوْ يمضـي إلـى بغدادَ ثم يرجع إلى العسكر بعد أيَّام، فـأعرف بـذلك الضّـرْب مـن البصبصة، وبذلك النـوع مـن النُّبـاح، أنَّ الخـادمَ قـدِم، حتَّـى قلـتُ لبعض من عندي: ينبغي أن يكون فلان قد قدم، وهو داخل عليكـم مع الكلب، وزعم لي أنّه ربَّما أُلْقِيَ لهذا الجرو إلـى أن صـار كلبـاً تَامّاً، بعضَ الطعام فيأكل منه ما أكل، ثم يَمضي بالبـاقي فيخبـؤُه،

وربَّما أُلْقِيَ إليه الشيءُ وهو شَبْعان فيحتمله، حتَّى يأتِيَ بـه بعـضَ المخابِئ فيضعه هناك، حتّى إذا جاع رجَع إليه فأكله.

أدب الكلب

وزعم لي غِلماني وغيرُهم من أهل الدَّرب، أنَّه كان ينبح على كلِّ راكبٍ يدخل الدرب إلى عراقيب برذونه، سائسـاً كـان أو صـاحبَ دابّةٍ إلاّ أنّـه كـان إذا رأى محمـدَ بـن عبـدِ الملـكِ داخلاً إلـى بـاب الدربِ أو خارجاً منه، لم ينبَحْ البتَّة، لا عليه ولا على دابَّته، بل كـان لا يقف لـه علـى البـاب ولا علـى الطريـق، ولكنَّـه يـدخل الـدِّهليز سريعاً، فسألتُ عن ذلك فبلغني أنه كان إذا أقبل صاحَ به الخـادم، وأهوَى له بالضَّرب، فيدخل الدِّهليز، وأنه ما فعل ذلك بــه إلاّ ثلاثَ مرارٍ، حتَّى صار إذا رأى محمَّدَ بنَ عبدِ الملكِ، دخـل الـدِّهليز مـن تلقاء نفسه، فإذا جاوزَ وثب عَلَى عراقيب دوابِّ الشاكريَّة، ورأيت هذا الخبرَ عندَهم مشهوراً، قال: وكُنَّا إذا تَغَـدَّيْنَا دنـا مـن الخِـوان فزجرناه مرَّةً أو مرَّتين، فكـان لا يقرَبُنـا، لمكـان الزَّجـر، ولا يَبعُـدُ عن الخوان لعلَّةِ الطمع، فإن ألقينا إليه شـيئاً أكلَـه ثَـمَّ، ودنـا مـن أجل ذلك بعضَ الدُّنوِّ، فكُنَّا نستظهِرُ عليـه، فنرمـي باللُّقمـة فـوقَ

مَربِضِه بأذرُع، فإذا أكلها ازداد في الطّمَع، فقرَّبه ذلك من الخِوان، ثمَّ يجوز موضعَه الذي كان فيه، ولولا ما كنا نقصِد إليه من امتحان ما عندَه، ليصيرَ ما يظهرُ لنا حديثاً، لكان إطعام الكلب والسِّنّور من الخِوان خطأ من وجوه: أوَّلُهَا أن يكون يصير له به دُرْبة، حتَّى إنَّ منها ما يمدُّ يَده إلى ما على المائدة حتَّى ربما تناول بفيه ما عليها، وربَّما قاء الذي يأكل وهم يَرَونه، وربَّما لم يرضَ بذلك حتَّى يعُودَ في قيئه، وهذا كله ممَّا لا ينبغي أن يحضُرَهُ الرئيس، ويشهدَه ربُّ الدار، وهو عَلَى الحاشية أجوز. الأكل بين أيدي السباع فأمَّا علماءُ الفرسِ والهِند، وأطبَّاء اليونانيِّينَ ودُهاةُ العرب، وأهلُ التَّجربة من نازِلة الأمصار وحُذّاق المتكلّمين، فإنهم يكرهون الأكلَ بين أيْدِي السِّباع، يخافون نفوسَها وأعينها، لِلَّذي فيها من الشَّرَه والحِرص، والطَّلَب والكَلَب، ولِمَا يتحلَّلُ عند ذلك من أجوافها من البخار الردِيء، وينفصل مِن عيونها من الأُمور المفسِدة، التي إذا خالطتْ طباعَ الإنسان نقضَتْه، وقد رُوي مثلُ ذلك عن الثَّوري عن سِماك بن حَرْب عن ابن عبّاس أنّه قال على مِنبر البَصرة: إنّ الكلاب من الجِنّ، وإنّ الجِنَّ من ضَعَفَةِ الجِنّ، فإذا غشِيكم منها شيءٌ فألقوا

إليه شيئاً واطردوها، فإنّ لها أنفسَ سوء، ولذلك كانوا يكرَهون قِيَامَ الخدمِ بالمذَابِّ والأشربةِ على رُؤُوسهمْ وهم يأكلون؛ مخافة النفس والعَين، وكانوا يأمرون بإشباعهم قبلَ أنْ يأكُلوا، وكانوا يقولون في السِّنَّور والكلب: إمَّا أنْ تطردَه قبل أن تأكلَ وإمَّا أن تشغَلَهُ بشيء يأكله، ولو بعظم، ورأيتُ بعضَ الحكماء وقد سقطت من يده لقمةٌ فَرَفَعَ رأسه، فإذا عينُ غلامٍ له تحدّق نحوَ لقمته، وإذا الغلامُ يزدَرِدُ ريقه لتحلُّب فمِه من الشَّهوة، وكان ذلك الحكيمُ جيِّدَ اللَّقْم، طيِّب الطعام، ويضيِّق على غلمانه، فيزعمون أنّ نُفوسَ السِّباع وأعينَها في هذا الباب أردأ وأخبَث وبينَ هذا المعنى وبين قولهم في إصابة العينِ الشيء العجيبَ المستحسَنَ شِرْكَةٌ وقَرَابَة؛ وذلك أنَّهم قالوا: قد رأينا رجالاً ينسب ذلك إليهم، ورأيناهم، وفيهم من إصابة العَين مقدارٌ من العدد، لا نستطيع أن نجعل ذلك النّسَق من باب الاتِّفاق، وليس إلى ردِّ الخبر سبيل؛ لتواتره وترادُفِه، ولأنّ العِيانَ قد حقّقه، والتجربة قد ضُمّت إليه،

العين التي أصابت سهل بن حنيف

وفي الحديث المأثور في العين التي أصابت سَهْل بن حُنيف فأمرَ رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم فـي ذلـك بالـذي أمَـرَ، وذلـك مشهور.

كلام في العين والحسد

قـالوا: ولـولا فاصـل ينفصـل مـن عيـن المستحسِـن إلـى بـدن المستحسَن، حتَّى يكون ذلك الداخلُ عليه هو النـاقضَ لقُـواهُ لَمَـا جاز أن يلقى مكروهاً البتَّة، وكيف يلقى المكروه من انسـاقَ فـي حَيزه وموضِعه، والذي أصابته العين في حيّزه أيضاً وموضعه، من غير تماسٍّ ولا تصادُم، ولا فاصل ولا عامل لاقـى معمـولاً فيـه، ولا يجوز أنْ يكون المعتل بعد صحّته يعتـلُّ مـن غيـر معنـى بـدنُه، ولا تنتقض الأخلاط ولا تتزايل إلاّ لأمرٍ يعرِض، لأنه حينئـذٍ يكـونُ ليـس بأولى بالانتقاض من جسمٍ آخـر، وإن جـاز للصـحيح أنْ يعتـلّ مـن غير حادث، جاز للمعتلّ أنْ يبرأ من غير حادث، وكذلك القولُ فـي الحركة والسكون، وإذا جاز ذلك كان الغائبُ قياساً علـى الحاضـر الذي لم يدخل عليه شيء من مستحسِن لـه، فـإذا كـان لابـدَّ مـن معنى قد عَمِل فيه، فليس لذلك المعنى وجه إلاّ أن يكونَ انفصـل

إليه شيء عَمِل فيه، وإلاّ فكيف يجـوزُ أن يعتـلّ مـن ذاتِ نفسـه، وهو على سلامتِه وتمام قوّتِه، ولم يتغيَّرْ ولم يحدُث عليه مايغيِّره، فهو وجسم غائب في السَّلامة من الأعـراض سـواءٌ، وهـذا جـواب المتكلِّميـــن الـــذين يصـــدِّقون بـــالعين، ويُثبتـــون الرُّؤيـــا. صـفة المتكلميـن وليـس يكـونُ المتكلـمُ جامعـاً لأقطـار الكلام متمكِّناً في الصناعة، يصلح للرئاسة، حتَّى يكون الذي يُحسِن مـن كلام الدِّين في وزن الذي يُحسِن من كلام الفلسفة، والعالِمُ عندنا هو الذي يجْمَعهما، والصيب هو الـذي يجمَـع بيـن تحقيـق التوحيـد وإعطاء الطبائع حقائقهـا مـن الأعمـال، ومـن زعـم أنّ التوحيـدَ لا يصلح إلا بإبطال حقائق الطبائع، فقد حمل عجْزَه على الكلام فـي التوحيد، وكذلك إذا زعمَ أنّ الطبـائعَ لا تصـحُّ إذا قرنتَهـا بالتوحيـد، ومـــن قـــال فقـــد حمـــل عجـــزَه علـــى الكلام فـــي الطبـــائع. وإنَّما يَيْأس منك الملحد إذا لـم يَـدْعُكَ التـوقُّر علـى التوحيـد إلـى بَخس حقوقِ الطبائع؛ لأنّ في رفع أعمالها رفعَ أعيانها، وإذا كـانت الأعيان هي الدالّة على الله فرفعْتَ الدّليلَ، فقد أبطلتَ المـدلول عليه، ولعمري إنّ في الجمع بينهما لَبعضَ الشِّدّة. وأنا أعـوذُ بـالله

تعالى أنْ أكون كلّما غَمزَ قناتي بـاب مـن الكلام صَـعْبُ المـدخل، نقضْتُ ركناً من أركان مقالتي ومن كان كذلك لم يُنتفَعْ به.

القول في إصابة العين ونحوها

فإن قال قائل: وما بلغ من أمر هذا الفاصِل الذي لا يشعر بِهِ القـوم الحضـورَ ولا الـذي انفصـل منه، ولا المارّ بينهما، ولا المتلقِّي له ببدنِه وليس دونهُ شيء، وكيف لـم يعْمَـلْ فـي الأقـربِ دونَ الأبعد، والأقربُ إنسان مثله، ولعلَّه أن يكون طبعهُ أشدَّ اجتذاباً للآفات، وبعد، فكيف يكون شيءٌ يصرَع الصحيحَ ويُضجِع القائم، وينقُض القوى، ويُمرِض الأصحَّاء، ويصدَع الصَّخر ويهشِـم العظْـم، ويقْتُل الثَّور، ويَهدُّ الحمار، ويجري في الجَماد مَجراه في النبات، ويجري في النَّبـات مجـراه فـي الحيوان، ويجري في الصّلابة والملاسة جريهُ في الأشياء السـخيفة الرِّخـوة؛ وهـو ممَّـا ليـس لـه صدم كصدم الحجر، أو غَرْب كغرْب السَّيف، أو حدٌّ كحدِّ السِّنان؛ وليس من جنس السمّ، فيحمل على نفوذ السُّمّ؛ وليس من جنس الغذاءِ فيُحمل علـى نفـوذ الغِـذاء، وليـس مـن جنـس السِّـحر فيقال إنَّ العُمَّار عملوا ذلك من طريق طاعتهم للعزائم، فلعلَّ ذلك إنَّما كـان شـيئاً وافـق شـيئاً، قيل لهم: قد تعلمون كيف مقدارُ سَمِّ الجرَّارة أو سـمّ الأفْعـى، وكيـف لـو وزنتـم الجَـرَّارة قبـل لسعِها وبعده لوجدتموها على حالٍ واحدة، وأنت ترى كيف تفسَخ عْقدَ بدن الفيل، وكيـف تنقـض قوى البعير، من غير صدم كصدم الحجر، وغربٍ كغرب السَّيف، وحدٍّ كَحَـدِّ السـنان، فـإنْ قلـت: فهل نابُ الأفْعَى وإبرةُ العقرب إلاّ في سبيلِ حدِّ السنان؟ قلنـا: إنَّ البعيـرَ لـو كـان إنمـا يَتَفَسَّـخ لطعْن العَقرب بإبرتها لمَا كان ذلك يبلغ منها مقدار النَّخس فقَط، ولكنَّه لابُدَّ أن يكون ذلك لأحـد أمرَين: إمَّا أن تكون العقربُ تمجّ فيه شيئاً من إبرتها، فيكون طبـع ذلـك وإن قـلَّ يفسـخ الفيـلَ والزَّندبيل، وإمَّا أن يكون طبعُ ذلك الدَّم إذا لاقاهُ طبعُ ذلك النـاب وتلـك الإبـرة أن يُجمـد فيقتـل بالإجماد، أو يذيب فيقتل بالإذابة، فأيَّهما كان فإنَّ الأمرَ فيه على خلاف ما صـدَّرتم بـه المسـألة. ولا تنازعَ بين الأعـراب والأعـرابُ نـاس إنّمـا وضـعوا بيـوتَهم وأبنيتهـم وسـطَ السِّـباع والأحنـاش والهمَج، فهم ليس يعبُرون إلاّ بها، وليس يعرفون سواها وقد أجمعوا على أنّ الأفْعَـى إذا هرِمـت

فلم تَطعَمْ ولم يبقَ في فمها دم أنَّها تنكز بأنفها، وتطعن به، ولا تعضُّ بفيها، فيبلغ النَّكزُ لها ما كان يبلغ لها قبلَ ذلك اللَّدغُ، وهل عندنا في ذلك إلا تكذيبُهم أو الرجوعُ إلى الفاصل الذي أنكرتموه، لأنَّ أحداً لا يموت من تلك النّخسة، إن كان ليس هناك أكثر من تلك الغمْزة، وقال العجَّاج، أو ابنه رؤبة:

كَمنْ أدخَلَ في جُحْرٍ يدهأخطأ الأفْعَى وَلاَقى الأسودا

ثم قال:

لا بالسَّمِّ منه أقصدا

وقال الآخر:

ما شمّ من خَضْرَاءَ أيبسها أو مسَّ من حجرٍ أوْهَاهُ فانصدعا

وقد حدَّثَني الأصمعِيُّ بِفَرْق ما بينَ النَّكْز وغيره عند الأعراب، وههنا أمثال نضْرُِها، وأمور قد عاينْتموها، يذلَّلُ بها هذا المعنى عندَكم ويسهُل بها المدخَل، قولوا لنا: ما بالُ العجينِ يكون في أقصى الدار ويفلق إنسان بِطِّيخةِ في أدنى الدار، فلا يفلح ذلك العجين أبداً ولا يختمر? فما ذلك الفاصلُ? وكيف تقولون بصدمٍ كان ذلك كصدم الحجر، أو بغرب كغرب السيف وكيف لم يعرِض ذلك الفساد في كلِّ معجون هو أقربُ إليه من ذلك العجين، وعلى أنَّ نكْز الحيَّةِ التي يصفُه الشُّعَراء بأنَّ المنكوزَ ميِّت لا محالة، في سبيل ما حدَّثني به حاذقٌ من حذَّاق الأطباء، أنّ رجلاً يضرب الحيَّة مِن دواهي الحيّات بعصاهُ فيموت

الضّاربُ، لأنهم يرون أنّ شيئاً فَصلَ من الحيَّةِ فجرى فيها حتَّى داخل الضارب فقتله، والأطباء أيضاً والنَّصارى أجْرأ على دفع الرُّؤْيا والعين، وهذه الغَرائبِ التي تُحكى عن الحيَّات وصرْعِ الشيطان الإنسانَ، من غيرهم.

فأمَّا الدُّهريّة فمنكِرةٌ للشياطين والجنِّ والملائكة والرُّؤيا والرُّقى، وهم يرون أنَّ أمرَهم لا يتمُّ لهم إلاّ بمشاركةِ أصحاب الجَهالات.

وقد نجدُ الرجُل ينقف شحم الحنظل، وبينه وبين صاحبه مسافة صالحة، فيجد في حلقه مَرارة الحنظل، وكذلك السُّوس إذا عولِج بهِ وبينه وبين الإنسانِ مسافة متوسّطة البعد، يجِدُ في حلقهِ حلاوة السوس، وناقف الحنظل لا تزال عينه تهمُل مادام ينقفه، ولذلك قال ابن حُذام، قال أبو عبيدة: وهو الذي يقول:

غداةَ البينِ يومَ تحمَّلوا لَدَى سَمُرَاتِ الحيِّ ناقفُ حنْظل

يخبر عن بكائه، ويصِف دُرُورَ دَمعتِه في إثْر الحمول، فشبَّه نفسه بناقف الحنظل، وقد ذكره امرؤ القيس قي قوله:

على الطّلَلِ القديم لعَلّنا الدِّيارَ كما بكى ابن حمامِ

ويزُعمون أنّه أوّل مَن بكى في الدِّيار، وقد نجِدُ الرَّجُلَ يقطَع البصل، أو يُوخِفُ الخَرْدل فتدمع عيناه، وينظر الإنسان فيديمُ

النّظرَ في العين المحمرة فتعتري عينَه حُمرة، والعرب تقول: لَهُو أعدَى من الثُّؤَباء، كما تقول: لَهُو أعدى من الجَرَب، وذلك أنّ مَـن تثاءَب مِراراً، وهو تُجاه عينِ إنسان، اعترى ذلك الإنسان التثـاؤب، ورأيت ناساً من الأطباء وهـم فلاسـفة المتكلِّميـن، منهـم مَعْمـر، ومحمد بن الجَهْم، وإبراهيم بـن السِّـنْديّ، يكرهـون ذُنُـوَّ الطـامثِ من إناءِ اللبن لتَسُوطه أو تعالجَ منه شيئاً، فكأنّهم يرونَ أنَّ لبــدَنِها ما دام ذلك العرَضُ يعرِض لها، رائحةً لها حِدَّةٌ وبخار غليظ، يكــون لذلك المَسُوط مُفسِداً.

من أثر العين الحاسدة

ولا تُبْعِدَنَّ هذا من قلبك تباعداً يدعُوك إلى إنكاره، وإلى تكـذيب أهله، فإنْ أبيتَ إلاّ إنكارَ ذلك، فما تقول في فَرسٍ تحَصَّن تحــتَ صاحبه، وهو فـي وسـط مـوكِبه، وغبـارُ المـوكِب قـد حـالَ بيـن اسـتبانةِ بعضـهم لبعـض، وليـس فـي المـوكب حِجْـر ولا رمَكـة، فيلتفتُ صاحبُ الحِصان فيرى حجراً أو رمكة، على قـاب غَـرَضٍ أو غَرَضين، أو غَلوة أو غلوتين، حدِّثني، كيـف شـمَّ هـذا الفـرس ريحَ تلك الفرسِ الأنـثى، ومـا بـاله يـدخل داراً مـن المـدُّورِ، وفـي

الدَّار الأخرى حِجْرٌ، فيتحَصَّن مع دخوله من غيـر معاينـة وسَـمَاعِ صهيل وهذا الباب سيقع في موضعه إن شاء اللّـه تعـالى، وقـال أبو سعيد عبد الملك بن قريب: كان عندنا رجُلان يَعينان النــاس، فمرَّ أحدهما بحوضٍ من حجارة، فقال: تاللّهِ ما رأيتَ كاليوم قطَّ فتطاير الحوض فِلقَين، فأخذه أهلُه فضبَّبوه بالحديد، فمـرَّ عليـه ثانيةً فقال: وأبيك لقلَّما أضرَرْتُ أهلَكَ فيـك فتطـاير أربـعَ فِلَـق. قال: وأمَّا الآخر، فإنَّه سمعَ صـوتَ بَـولٍ مـن وراء حـائط فقـال: إنَّـك لشَـرُّ الشَّـخب فقـالوا لـه: إنـه فلانٌ ابنـك، قـال: وانقطـاع ظهراه قالوا: إنه لا بأسَ عليـه، قـال: لا يبـولُ واللَّـه بَعْـدَها أبـداً قال: فما بال حتَّى مات، قال الأصـمعيّ: ورأيـت أنـا رجلاً عَيُونـاً فدُعيَ عليه فعَوِرَ، قال: إذا رأيتُ الشيءَ يُعجبني، وجدتُ حرارةً تخرجُ من عَيني، قال: وسمع رجلٌ بقـرةً تُحلَـب فـأعجبه صـوتُ شَخْبها، فقال: أيتَّهن هذه، فخافوا عينَـه فقـالوا: الفلانيّـة لأخـرى وَرَّوا بها عنها فهلكتـا جميعـاً: المُـوَرَّى بهـا والمـورَّى عنهـا، وقـد حَمَل النَّاسُ كما ترى على العين ما لا يجـوز، ومـا لا يسـوغ فـي شيء من المجازات، وقولُ الذي اعورَّ: إذا رأيتُ الشيءَ يعجبني وجدتُ حرارةً تخرج من عيني، مِنْ أعظـم الحجـج فـي الفاصـل

من صاحب العين إلى المعين، استطراد لغويقال: ويقال إنَّ فلاناً لَعَيون: إذا كان يتشوَّف للناس ليصيَبهم بعين، ويقال عِنْـتُ فْلاَنـا أعِينه عيْنـاً: إذا أصـبتَه بعيـن، ورجـل مَعيـن ومعيـون: إذا أصـيب بالعين، وقال عبَّاس بن مِرداس:

قومُك يحسِبونكَ سيِّداً وإخال أنك سيِّدٌ مـعَـيونُ

ويقال للعَيون: إنَّه لَنَفُوسٌ، وما أنفسَـه، أي مـا أشـدَّ عينـه، وقـد أصابته نَفس أو عين.

دفاع عن الكلب

وأمَّا قول القائل: إنَّ من لؤمِ الكلب وغدرِه أنَّ اللصَّ إذا أراد دارَ أهله أطعَمَ الكلبَ الذي يحرسهم قَبْلَ ذلك مِراراً ليلاً ونهاراً، ودنـا منه ومسح ظهَرهُ، حتى يُثبـت صـورتَه، فـإذا أتـاه ليلاً أسْـلمَ إليـه الدارَ بما فيها فإن هذا التأويل لا يكونُ إلاّ من نتيجـةِ سـوءِ الـرأي، فإنَّ سوءَ الرأي يصوِّر لأهله الباطلَ في صورة الحقِّ، وفيـه بعـضُ الظُّلم للكلب وبعض المعاندة للمحتجّ عن الكلب، وقد ثَبتَ للكلب استحقاقُ المدح من حيثُ أرَادَ أن يهجـوَه منـه، فـإن كـان الكلـبُ بِفرط إلفِه وشـكرِه كـفَّ عـن اللـصِّ عنـدَ ذِكـر إحسـانه، وإثبـات

صورتِهِ، فما أكثرَ منْ يُفْرِط عليه الحياءُ حتَّى ينسب إلـى الضَّـعف والكرم وحتَّى ينسَب إلى الغفلة، ورُبَّما شاب الرَّجُلُ بعضَ الفطنة ببعض التَّغافل، ليكون أتَمَّ لكَرمه، فإنَّ الفطنة إذا تمَّت منعت مـن أمورِ كثيرة، ما لم يكن الخِيـمُ كريمـاً والعِـرْق سـليماً. وإنـك أيُّهـا المتأوِّل، حينَ تكلِّف الكلبَ مع ما قد عَجَّلَ إليه اللصّ من اللَّطَـف والإحسـان أنْ يتـذكّرَ نعمـةً سـالفة، وأنْ يحـترس مـن خديعـة المحسِن إليه، مخافة أنْ يكونَ يُريغُ بإكرامه سوءاً لَحسَـنُ الـرأيِ فيه، بعيدُ الغايةِ في تفضيله، ولو كان للكلبِ آلة يعرِف بها عواقبَ الأمورِ وحوادثِ الدهور، وكان يوازن بينَ عواجلها وأواجلها، وكـان يعرف مصادرها وموارِدَها، ويختار أنقص الشـرّين وأتـمَّ الخيريـن، ويتَثبَّتُ في الأمور، ويخـاف العَيـب ويأخـذ بحجَّـةٍ ويُعطـي بحجَّـة، ويعرف الحُجَّة من الشُّبهة، والثِّقَةِ من الرّيبة، ويتثبَّـت فـي العلَّـة، ويخاف زَيغ الهوى وسرَف الطبيعة، لكانَ من كبارِ المكلَّفين ومـن رُؤُوس الممتَحنين.

أختيار الأشياء والموازنة بينها لدى العاقلين

والعادةُ القائمة، والنَّسَقُ الذي لا يُتَخَطَّى ولا يغادَرُ، والنظامُ الذي لا ينقطع ولا يختلـط، فـي ذوي التمكيـن والاسـتطاعة، وفـي ذوي العقـول والمعرفـة، أنَّ أبـدانَهم متَّـى أحسَّـت بأصـناف المكـروه والمحبـوب، وازَنـوا وقـابَلوا، وعَـايَرُوا وميَّـزوا بيـن أتـمِّ الخيريـن وأنقص الشرّين، ووصـلوا كـلَّ مضـرِة ومنفعـة فـي العاجـل بكـلِّ مضرَّةٍ ومنفعة في الآجل وتتبعوا مواقعها، وتدبَّروا مساقطَها، كما يتعرَّفونَ مقاديرَها وأوزانها، واختاروا بعدَ ذلك أتمَّ الخيرين وأنْقَصَ الشّـرين، فأمـا الشـر صـرفاً والخيـر محضـاً فـإنّهُم لا يتوقّفـون عندهما، ولا يتكلّفون الموازَنةَ بينهما، وإنَّما ينظرون في الممـزوج وفي بعض ما يخشى في معارضـته، ولا يوثـقُ بَمَعـرّاهُ ومُكَشَّـفِه، فيحملونه على خلاص الذِّهن، كما يحمَل الذّهب على الكيـر، وأمّـا ذوات الطَّبائع المسخَّرة والغريزة المحبولة فإنما تَعمَل مـن جهـة التسخير والتنبيه، كالسمّ الذي يقتـل بالكَمِّيَّـة ولا يغـذو، وكالغـذاء الذي يغذو ويقتل بالمجاوَزة لمقـدار الاحتمـال، وإن هيَّـأ اللَّـه عـزَّ وجلّ أصنافَ الحيوان المسخَّرة لدرْك ما لا تبلغه العقولُ اللطيفة، بلغَتْه بغير معاناةٍ ولا رويّة ولا توقُّف، ولا خوفٍ من عاقبـة، ومـتى تقـدَّمتْ إلـى الأمـور الـتي يعالجهـا أهـلُ العقـول المبسـوطة،

المتمكِّنة بطبائعها، المقصورةِ غير المبسوطة، لم يمكنْها أن تعرفَ من تلك الطبيعة ما كان موازيّاً لتلك الأمور ببديهةٍ ولا فكرة، وإذا كانت كذلك فليس بواجب أن تكون كلَّما أحسنَتْ أمراً أمكنَها أن تُحْسنَ ما كان في وزنه في الغُموض والإلطاف، وفي الصَّنعةِ التي لا تمكِنُ، إلاّ بحُسن التأتّي وبِبُعد الرويّة، وبمقابِلة الأمورِ بَعضهَا ببعض، وهذا الفنُّ لا يُصابُ إلاّ عند من جِهتُه العقل، ويمكنُه الاستدلالُ، والكفُّ عنه والقطعُ له إذا شاء، وإتمامُه إذا شاء، وبلوغَ غايته، والانصرافُ عنه إلى عَقيبِه من الأفعال، ومَنْ جهتُهُ تعرّفُ العِلل، ويُمكنُهُ إكراه نفسِهِ على المقاييس والتكلُّف والتأتّي، ومتى كانت الآلة موجودةً فإنّها تُنبيك على مكانها، وإلا كان وجُودها كعدمها، وبالحسِّ الغريزيّ تُشعرِ صاحبَها بمكانها، لا يحتاج في ذلك إلى تلقِينٍ وإشارة، وإلى تعليم وتأديب، وإن كان صاحبُ الآلة أحَمقَ من الحبارى، وأجهَلَ من العقرب،

الإلهام في الحيوان

والعاقل الممكَّن لا يفضلُ في هذا المكان على الأشياء المسخَّرة، ولا ينفصل منها في هذا الباب.

وليس عند البهائم والسباع إلاَّ ما صُنعت له، ونصبت عليه، وأُلهمتْ معرفَته وكيفيَّةَ تكلُّفِ أسبابِها والتعلُّم لها من تلقاء أنفسها، فإذا أحسَنَ العنكبوتُ نسْجَ ثَوِيِّهِ وهو من أعجب العجب، لم يحسن عملَ بيت الزنبورِ، وإذا صنع النَّحلُ خلاياه مع عجيب القِسْمة التي فيها، لم يحسنْ أن يعملَ مثلَ بيتِ العنكبوت، والسُّرْفة التي يقال: أصنَعُ من سُرفة لا تُحسن أن تُبني مثلَ بيتِ الأرَضَة، على جفاءِ هذا العمل وغِلظِهِ، ودقَّة ذلك العمل ولطافته، وليسَ كذلك العاقلُ وصاحبُ التمييز، وَمَن مَلك التصرّفَ، وخُوِّل الاستطاعة، لأنّه يكون ليسَ بنجَّارٍ فيتعلَّم النِّجارة، ثمَّ يبدو له بعدَ الحذقِ الانتقالُ إلى الفِلاحةِ، ثمَّ ربّما ملها بعد أن حذَقها، وصار إلى التجارة.

أسمح من لافظة

وقال صاحب الكلب: وزعمتَ أنَّ قولهم أسَمحُ مِنْ لافظة أن اللافظة الدِّيك، لأنّه يَعَضُّ على الحبَّةِ بطرفَي منْقاره، ثمّ يحذفُ بها قُدَّام الدَّجاجة، وما رأينا أحداً من العلماء ومِن الذين روَوا هذا المثلَ يقول ذلك، والناسُ في هذا المثل رجلان: زعم أحدُهما أنَّ

اللافظة العنز؛ لأن العنز تَرعى في رَوضةٍ وتأكل من مَعْلَفها وهـي جائعة، فيدعوها الراعي وصاحبُها باسِمها إلى الحلْـب، فتـترك مـا هي فيه حتى تُنْهَـك حلبـاً، وقـال الآخـر: اللافظـة الرَّحَـى، لأنّهـا لا تمسك في جَوْفها شيئاً مما صار في بطنها، وكيف تكون اللافظــة الديكَ وليس لنا أن نلْحِق في هذه الكلمة تاء التأنيث في الأســماء المذَكَّرِة، واللافظة مع هـاء التـأنيث أشـبه بـالعنز والرّحَـى، وإنَّمـا سمَّينا الجملَ راويةً، وحاملَ العلمِ راويَةً، وعلاَّمة، حين احتجَّ أهــلُ اللغةِ على ذلك ولم يختلفوا فيه، وكَيفَ ولا اختلافَ بينهم أنّ الديك خارجٌ من هذا التأويل، وإنّ اختلافهم بين العنْزِ والرَّحى، وبعد فقـد زعم ثُمامة بن أشـرَس رحمـه اللَّـه تعـالى: أنَّ دِيكَـة مَـرْو تطـرُد الدَّجاج عن الحبِّ، وتنزِع الحبَّ من أفواه الـدَّجاج، وقـال صـاحب الديك: قـولهم: أسَـمح مـن لافظـة لا يليـق بـالرَّحى، لأنَّ الرَّحَـى صَخْرَةٌ صمَّاء، والذي يُخرج ما في بطنها المُدير لها، والعـربُ إنَّمـا تمدح بهذه الأسماء الإنسان وما جَرَى مجراه في الوجوه الكثيرة، ليكون ذلك مَشحذَةً للأذهانِ، وداعيةً إلى السِّـباق وبلـوغ الغايـات وأمَّا ترْك الشَّاة للعلَف فليس بلفـظٍ للعلَـف، إلاّ أنْ يحملـوا ذلـك على المجـازات البعيـدة، وقـد يكـون ذلـك عنـد بعـض الضَّـرورة،

والشّاة ترضع من خِلْفِها حتَّى تأتي على أقصى لبـن فـي ضـرعها، وتنثُر العلَفَ، وتقلبُ المِحْلَب، وتنطَح من قام عليها وأتاها بغذائها، وهي من أمْوَق البهائم، وزوجُها شَتيم المحيّـا، منتِـنُ الريـح، يبـولُ في جوف فيهِ وفي حاقّ خياشيمِه، وتقول العرب: مـاهُو إلاَّ تيـسٌ في سفينةٍ، إذا أرادوا به الغَبَاوة ومَا هُوَ إلاَّ تيس، إذا أرادوا به نتْـنَ الريح، والعنْزُ خَرقاءُ، وأبوها وهو التَّيْسُ أخرَقُ منها، وَأمـرُ الـدِّيكِ وشـأنهُ، وكيْـفَ يلفِـظُ مـا قَـد صَـارَ فـي منقـاره، وكيـف يُـؤثِرُ بـه طَرُوقَته مِن ذَاتِ نفسِه شيءُ يـراهُ النـاسُ، ويـراه جَميِـعُ العبـاد، وهذه المكرمة، وهذا الغَزَل، وهذا الإيثـار، شـيءٌ يـراهُ النـاس لـم يكنْ في ذَكَرٍ قَطُّ ممَّن يزاوِج إلاَّ الديك، والدِّيكُ أحقُّ بهـذا المثـل، فإنْ كنتُم قد صَدَقتم على العرب في تأويل هذا المثل فهـذَا غلـطٌ من العرب وعصبيَّة للَّبَنِ، وعشق للدَّقيق، والمثـلُ إنَّمـا يلفِـظ بـه رجلُ من الأعراب، وليس الأعرابيُّ بقُدْوةٍ إلاَّ فـي الجـرِّ والنصـب والرفع وفي الأسـماء، وأمَّـا غيـر ذلـك فقـد يخطـئ فيـه ويصـيب فالدِّيك أحقُّ بهـذا المثـل الـذي ذكرنـا، وسـائرِ خصـاله الشـريفة، والذي يدلُّ على أنَّ هذا الفعلَ في الدِّيك، إنَّما هو من جهة الغـزَل لا غير، أنه لا يفعلُ ذلـك إذا هـرِم وعجَـزَ عـن السِّـفاد، وانصـرفت

رغبتُه عنهنَّ وهو فـي أيَّـام شَـبابِه أنْهَـمُ وأحَـرص علـى المـأكول، وأضنُّ على الحَبِّ، فما لَهُ لم يُؤْثِرهنّ به عنْدَ زهده، ويُؤْثِرهُنَّ عنـد رغبته? وما بالُهُ لم يفعل ذلك وهو فرُّوج صغير، وصـنَع ذلـك حِيـن أطاقَ السفاد? فترْكه لذلك في العجز عنهـنَّ، وبـذلُه فـي أوقـات القوة عليهنَّ دليل على الذي قلنا، وهذا بَيِّـن لا يـرُدُّهُ إلاّ جَاهـل أو معاند.

دفاع عن الكلب

وقال صـاحب الكلـب: لسـنا نُنكِـر خِصـالَ الـدِّيك ومنـاقبَه مـن الأخبارِ المحمودة، ولولا ذلك مـا ميَّلْنـا بينَـه وبيـن الكلـب، ومَـنْ يميِّلُ بين العسَل والخـلِّ فـي وجـه الحلاوة والحموضـة? وكيـف يفضل شيءٌ على شيء وليسَ في المفضولِ شيءٌ من الفضل? والذي قُلتم من قذْقِه الحـبّ قُـدَّامَ الـدَّجاج صـحيح، وليـس هـذا الذي أنكرْنـا، وإنَّمـا أنكْرنـا موضـعَ المثـل الـذي صـرفتموه إلـى حجّتكـم، وتركتـم الـذين مـا زال النـاس يقلِّـدونهم فـي الشـاهد والمثل، وإن جاز لكم أن تردُّوا عليهم هذا المثـلَ جـاز لكـلِّ مَـن كرِهَ مثلاً أو شاهداً أنْ يردَّ عليهم كما رددتـمْ، وفـي ذلـك إفْسَـادُ

أمرِ العَرَبِ كله، فإنْ زعمتَ أنّ الديك، كانَ أحقَّ بـه، فخصـومُك كثير ولسنا نحيط بأوائل كلامهم، على أيِّ مقاديرَ كانوا يضعونها، ومن أيِّ شيء اشتقُّوها، وكيف كان السبب، ورُبَّ شيءٍ أنكرنَاهُ فإذا عرفنا سبَبه أقررنَـا بـه، وقـال أبـو الحسـن: مـر إيـاسُ بـنُ معاوية بديكِ ينقـر حبًّـا ولا يفرقُـهُ، فقـال: ينبغـي أن يكـون هـذا هرِماً، فإنَّ الهرِم إذا أُلقي له الحـبُّ لـم يفرقْـهُ ليجتمـع الـدجاجُ حـولَهُ، والهـرِم قـد فنيـتْ رغبتـهُ فيهـنَّ، فليـس همَّـهُ إلاّ نفسَـهُ. ورووا عنهُ أنّهُ قال: اللافظة الديك الشابُّ،وإنَّهُ يأخذ الحبَّـة يـؤْثر بها الدَّجاجَ، والهرِمُ لا يفعل ذلك، وإنَّما هـو لافظـةٌ مـادام شـابّاً، وقال صاحب الكلب: وذكر ابن سِيرِينَ عن أبي هُريـرة: أن كلبـاً مرَّ بامرأةٍ وهو يلهَثُ عند بئر، فنزعَتْ خُفَّها فسـقَتْه، فغَفَـرَ اللَّـه تعالى لها، وعنه قال: غفَـر اللَّـه لبَغِـيٍّ أو لمؤمنـة مـرّ بهـا كلـبٌ فنزَعت خُفَّها فسقته، وقـال صـاحب الكلـب: وقـال ابـن دَاحَـة: ضرب ناسٌ من السُّلطاءِ جـاراً لهـم، ولبَّبـوه وسـحبوه وجـرُّوه،، وله كلبٌ قد ربَّاه، فلم يزَلْ ينبَحُ عليهم ويشقِّق ثيابِهم، ولـولا أنَّ المضروبَ المسحوبَ كان يكفُّه ويزجُره، لقد كان عقَـر بعضَـهم أو منَعه منهم. قال إبراهيمُ النَّظَّام: قدَّمتم السِّنَّور على الكلـب،

ورويتم أنْ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمرَ بقتل الكلابِ واستحياءِ السنانير وتقريبِها وتربيتها، كقوله عند مسألته عنها: إنَّهُنَّ من الطَّوَّافَاتِ عليكُمْ، وكلُّ منفعةٍ عنْدَ السِّنَّوْرِ إنّما هي أكلُ الفأر فقط، وعلى أنَّكُم قلَّما تجدون سنّوراً يطلُب الفَأْر، فإن كان مما يَطلُبُ ويأكلُ الَفَأرَ، لم يعدمكم أن يأكلَ حمَامَكُمْ وفِراخَكُمْ والعَصافَيرَ التي يتلهَّى بهَا أولاَدُكُمْ، والطائرَ يُتَّخَذُ لِحُسنهِ وحُسنِ صَوْته، والذي لاَبُدّ منه الوثوبُ علِى صِغَار الفرارِيج، فإنْ هو عفَّ عَن أموالكُمْ لم يَعفّ عَن أموال جيرانكُمْ، ومنافع الكلب لاَ يحصيها الطَّوامير، والسّنّور مع ذلك يأكل الأوزاغَ والعقارب، والخنافيس، وبناتِ وَرْدان، والحيّات، ودخَّالاتِ الآذان والفأرَ والجُرذان، وكلَّ خبيثةٍ وكلّ ذاتِ سمّ، وكلَّ شيءٍ تعافه النفس، ثمَّ قلتم في سؤر السِّنَّور وسؤر الكلب ما قلتم، ثمَّ لم ترضوا به حتَّى أضفتموه إلى نبيِّكُم صلى الله عليه وسلم.

أطيب البهائم أفواها ولا يشُكُّ الناس أنْ ليس في السباع أطيبُ أفواهاً من الكلاب، وكذلك كلُّ إنسانٍ سائِل الريق سائِل اللعاب، والخُلوف لا يعرض للمجانين الذين تسيلُ أفواههم، ومن كان لا

يعتريه الخلوف فهو من البخَر أبعَدُ، وكمَا أنَّ طولَ انطباق الفم يُورث الخلوف، فكَثرةُ تحَلُّبِ الأفواه بالريق تنفي الخُلوف، وحتَّى إنّ من سال فُوه من اللعاب فإنَّما قضوا له بالسلامةِ من فيهِ، وإن استنكَهوه مع أشباهِهِ وجَدُوه طيِّباً، وإن كان لا يقَربُ سِواكاً على الريق، وكذلك يقال، إن أطيبَ النَّاسِ أفواهاً الزِّنج، وإنْ كانت لا تعرفُ سَنُوناً ولا سِواكاً.

على أنّ الكلبَ سبُع، وسباعُ الطيرِ وذواتِ الأربع موصوفَةٌ بالبخَر، والذي يضْرَب به في ذلك المثل الأسَدُ، وقد ذكره الحكَمُ بن عبدل في هِجاَئِهِ محمَّدَ بنَ حسَّان فقال:

كَنكْهَةِ أخْدرِيٍّ شتيمٍ شابِكِ الأنْيَاب وْرْدِ

وقال بشَّار:

وأَفسَى من الظَّرْبان في ليلةٍ وأخْلَفُ مِنْ صقرٍ وإنْ كانَ قد طعِمْ

يهجو بها حمادَ عجْرَد، ويقال: ليس في البهائم أطيبُ أفَواهاً من الظباء.

رضيعُ مُلَهم

وزعم علماءُ البَصريِّين، وذكر أبو عبيدة النحويُّ، وأبو اليقظان سُحيم بن حفص، وأبو الحسن المدائني، وذكر ذلك عن محمَّدِ

بن حفص عـن مَسْـلمَةَ بـن محـارب، وهـو حـديثٌ مشـهورٌ فـي مشيخة أصحابنا من البصريِّين، أنَّ طَاعوناً جارِفاً جاءَ عَلـى أهـلِ دار، فلم يشكَّ أهلُ تِلك المحَلَّةِ أنَّه لم يَبْقَ فيها صَـغيرٌ ولا كـبير، وقد كان فيها صَبِيٌّ يرتضع، ويحبو ولا يقـوم علـى رجليـهِ، فعمَـد مَن بقي من المطعونين من أهل تلك المحَلَّةِ إلى باب تلك الدار فسدَّهُ، فلمَّا كان بعد ذلك بأشهرُ تحوَّل فيها بعـضُ وَرَثَـةِ القـوم، ففتح البابَ، فلمَّا أفضَى إلى عَرْصة الدّار إذا هو بصِبيٍّ يلعبُ مع أجراء كلبةِ، وقد كاَنت لأَهـل الـدار، فراعَـهُ ذلـك، فلـم يلبَـثْ أَنْ أقبلتْ كلبةٌ كانت لأهل الدار، فلمَّا رآها الصبيُّ حبا إليها، فأمكنتْه من أطبائها فمصَّها، فَظَنُّوا أنّ الصّبيّ لما بقي فـي الـدارِ وصـارَ منسِيًّا واشتدَّ جوعُهُ، ورأى أجراءَها تستقي من أطبائها، حَبا إليها فعطفـت عليـه، فلمَّـا سـقَتْهُ مـرَّةً أدامـتْ ذلـك لَـهُ، وأَدَامَ هـو الطلـــب.

والذي أَلَهَم هذا المَوْلودَ مَصَّ إبهامه سَاعَةَ يُولَدُ مـن بطـن أُمّـهِ، ولم يعرف كيفيَّةَ الارتضـاع، هـو الـذي هـداه إلـى الارتضـاع مـنْ أطباءِ الكلبةِ، وَلَوْ لم تكُن الهدايَةُ شيئاً مجعولاً فـي طـبيعته، لمـا مَصَّ الإبهامَ وحلمَـةَ الثّـدْي، فلمّـا أفـرط عليـهِ الجـوعُ واشـتدَّت

حالُهُ، وطلبَتْ نفْسُهُ وتلك الطبيعةُ فيهِ، دعَتْهُ تلك الطبيعة وتلـكَ المَعْرِفَهُ إلى الطلب والدنوّ، فسبحانَ مَنْ دبَّرَ هذا وألهمه وسَوّاهُ ودلَّ عَلَيْهِ إلهام الحمام ومثلُ هذا الحديث ما خُبِّر به عن بـابويه صاحب الحمام، ولو سمعت قصَصه في كتاب اللُّصوص، علمـتَ أَنَّه بعيدٌ من الكذب والتزيد، وقد رأيته وجالسته ولم أسـمعْ هـذا الحديثَ منه، ولكنْ حدَّثني به شـيخٌ مـن مشـايخ البصـرة، ومـن النُّزول بحضرة مسجد محمد بن رَغبان، وقال بابويه: كان عندي زوجُ حمـامٍ مقصـوص، وزوجُ حمـام طيّـار، وفرخـانِ مـن فـراخ الزَّوج الطيار، قال: وكان في الغُرفة ثَقْبٌ في أعلاها وقـد كنـتُ جعلت قُدَّام الكَوَّة رفًّـا ليكـون مَسـقطاً لمـا يـدخلُ ويخـرج مـن الحمام، فتقدَّمتُ في ذلك مخافةَ أن يعرض لي عارضٌ فلا يكون للطَّيار منفذ للتكسُّب ولـورود المـاء، فبينَـا أنـا كـذلك إذْ جـاءني رسولُ السـلطان، فوضَـعَني فـي الحبـس، فنسِـيت قـدْر الـزَّوج الطيَّار والفرخين، وما لهما مـن الثمـن، ومـا فيهمـا مـن الكـرم، ومتُّ من رَحمةِ الزَّوْج المقصوص، وشغلني الاهتمـامُ بهمـا عـن كـثير ممـا أنـا فيـه، فقلـت: أمَّـا الـزَّوْجُ الطيَّـارُ فإنَّهمـا يخرجـان ويرجِعان ويزُقّان، ولعلَّهما أن يَسْلَما ولعلَّهما أن يذهبا وقد كنـتُ

ربَّيتهما حتى تحصَّنا ووَرَّدَا فإذا شبَّ الفرخان ونهضا مع أبويهمـا، وسقطا على المعلاة، فإمّا أن يثبُتـا وإمَّـا أنْ يـذهبا، ولكـنْ كيـفَ يكونُ حَالُ المقصوصَيْنِ، ومَنْ أسوأُ حالاً منهمـا؟ فَخُلِّـي سَـبِيلي بَعْدَ شهر، فلم يكن لي همٌّ إلاَّ النَّظَر إلى مـا خلَّفـت خلْفـي مـن الحمام، وإذا الفرخان قد ثَبتَا وإذا الزَّوْجَانِ قد ثبتا، وإذا الزَّوجان الطيَّاران ثبتا على حالهما، إلاّ أنِّي رأيتهما زاقَّين، إذ علامـةُ ذلـك في موضع الغَبَبِ، وفي القِرطِمتَين، وفي أصولِ المنـاقير، وفـي عيونهمـا، فقلـت: فكيـف يكونـان زاقَّيـن مـع اسـتغناءِ فرخَيهمـا عنهما؟ ولا أشكُّ في موت المقصوصين، ثمَّ دخلتُ الغرفـة فـإذا هما على أفضلِ حال، فاشتدَّ تعجُّبي من ذلك، فلم ألبَثْ أن دَنَـوا إلى أفواه الزَّوج الكبار يصنعان كما يصنع الفرْخ في طلب الزَّقِّ، ورأيتهما حين زقَّاهما، فإذا هما لما اشتدّ جوعُهما، وكانا يريانهمـا يزقّان الفَرخَين وَيَريانِ الفرخَيـن كيـفَ يسـتطعمان ويسـتَزِقَّانِ، حملَهُما الجوعُ وحبُّ العيش، وَتَلَهُّبُ العطش، ومـا فـي طبعِهمـا من الهدايَةِ، على أَنْ طلبا مَـا يطلَـبُ الفـرْخُ، فَزَقّاهمـا ثـم صـار الـزَّقُّ عـادةً فـي الطيَّـار، والاسـتطعَامُ عـادةً فـي المقصـوص.

من عجائب الحمام ومِن الحمام حمامٌ يزُقُّ فراخه ولا يزقُّ شيئاً

من فِراخ غيره، وإن دنا منه مع فراخهِ فرخٌ مِنْ فراخ غيره، وشاكَلَ فرخيه في السِّنِّ واللَّون طردهما ولم يزقَّهما، ومن الحمام ما يزقُّ كلَّ فرخٍ دنا منه، كما أنَّ من الحمام حماماً لا يزُقُّ فراخَه البتّةَ حتَّى يموت، وإنَّما تعظُم البليّةُ على الفَرخ إذا كان الأبُ هو الذي لا يزقّ، لأنَّ الوِلادةَ وعامَّة الحضْن والكَفْل على الأمّ، فإذا ظهر الولد فعامَّةُ الزَّقِّ على الأب، كأنه صاحب العِيال والكاسِب عليهم، وكالأمِّ التي تلد وتُرضِع.

الطائر العجيب: كاسر العظام وأعجبُ من هذا، الطائرُ الذي يقال له كاسر العظام، فإنّه يبْلغُ من بِرِّ الفراخِ كلِّها بعد القيَامِ بشأن فراخ نفسه، أنّهُ يتعاهد فرخَ العُقَاب الثالث، الذي تخرجه من عُشِّها، لأنَّها أشرَهُ وأرغَبُ بَطناً، وأقسى قلباً وأسوأُ خُلقاً مِنْ أنَ تحتَمِلَ إطْعامَ ثلاثَة، وهي مَعَ ذلك سريعة الجَزع، فتخرج ما فَضَلَ عن فرخين، فإذا أخرجتْه قبله كاسرُ العِظام وأطْعَمهُ، لأنْ العُقابَ من اللائي تبيض ثلاثَ بيضات في أكَثر حالاتها.

دفاع أسدي عن أكل قومه لحوم الكلاب قال: وعُيِّر رجلٌ من بني أسدِ بأكل لحوم الكلاب، وذَهبَ إلى قوله:

فَقْعَسِيٌّ لمْ أكلته لِمـهْ
خافكَ اللّهُ عليهِ حَرَّمهْ
أكَلتَ لحمَهُ ولا دَمَهْ

قال: فقال الأعرابي: أمَا علِمت أنْ الشِّـدَة والشـجاعة، والبـأْسَ والقـوة مـن الحيـوان، فـي ثلاثَـةِ أصـنافٍ: العقـاب فـي الهـواء، والتمساح في ساكن الماء، والأَسَد في ساكن الغياض، وليس في الأرض لحمٌ أشهى إلى التمساح ولا إلى الأَسـد مـن لحـم الكلـب، فإن شئتمْ فعُدُّوه عـدُوًّا لهمـا، فإنّهُمـا يـأكلانِهِ مـن طريـق الغَيـظ وطلـــــب الثـــــأر، وإن شـــــئتم فقولـــــوا غيرذلـــــك.

الطبيعة الأسدية في بني الأسد وبنو أسَـدٍ أُسْـد الغيـاض، وأشـبهُ شيءٍ بالأسد، فلـذلك تشـتهي مـن اللُّحمـان أشـهاها إلـى الأَسـد، والدَّليلُ على أنّهُمْ أُسْد، وفي طباعِ الأُسْد، أنّكَ لـو أحصَـيْتَ جميـعَ القتلى من سـادات العـرب ومِـنْ فُرسـانهم، لَوَجْـدَت شَـطْرَها أو قَريباً من شَطرها لبني أسد.

أنفة الكلب

قالوا: ثمَّ بعدَ ذلك كلِّه أنَّ الكلبَ لا يرضى بالنوم والرُّبـوض علـى بياض الطريق، وعلى عَفَرِ الـتراب، وهـو يـرى ظَهْـر البِسـاط، ولا

يرضَى بالبِساط وهو يجد الوِسادة، ولا يرضى بالمطارح دون مرافق المطارح فمن نُبْله في نفسه أن يتخيَّر أبداً أنبلَ موضِع في المجلس، وحيثُ يدَعُه ربُّ المجلس صيانةً له وإبقاء عليه إلاَّ أن يتصدَّر فيه منْ لا يجوز إلاَّ أنْ يكون صدراً، فلا يقصِّر الكلب دونَ أن يرقَى عليه، وقد كان في حُجج معاوية في اتخاذ المقصورة بعد ضرب البُرَك إيّاه بالسيف، أنّه أبصرَ كلباً على منبره.

هذا على ما طُبع عليه من إكرام الرَّجُل الجميل اللباس، حتَّى لا ينبحُ عليه إن دنا من باب أهله، مع الوُثوب على كل أسوَد، وعلى كلِّ رثِّ الهيئة، وعلى كلِّ سفيهٍ تشبهُ حالُه حالَ أهل الرِّيبة، ومِن كِبْره وشدَّة تجبُّره، وفَرْط حمِيَّته وأنفته واحتقاره، أنْه متى نبح على رجُلٍ في الليل، ولم يمْنعه حارسٌ ولم يمكنه الفوت، فدواؤه عند الرجل أنّه لا ينجيه منه إلاَّ أن يقعُدَ بين يديه مستخزياً مستسلماً، وأنّه إذا رآه في تلك الحال دنا منهُ فشَغرَ عليه؛ ولم يَهجْه، كأنَّه حينَ ظفر به، ورآه تحت قدرته، رأى أنْ يسِمَه بميسَمِ ذُلٍّ، كم ا كانت العربُ تجزُّ نواصِيَ الأسرى من الفُرسان، إذا رامت أنْ تخلِّيَ سبيلَها وتمنَّ عليها، ولو كَفَّ العربيُّ عن جزِّ

ناصيته، لوسَمَه الأسْيَرُ من الشِّعر والقـوافي الخالـداتِ البـواقي، التي هي أبقى من المِيسَم، بمـا هـو أضـرُّ عليـه مـن جَـزِّ ناصـيتِه، ولعلَّهُ لا يبلُغُ أهلَه حتَّى تستويَ مـع سـائر شـعرِ رأسـه، ولكـنَّ ذُلَّ الجزِّ لا يزال يلُوح في وجهه، ولايزال له أثرٌ في قلبه.

تقدير مطرف للكلب

وذُكر أنَّ مُطرِّف بن عبد اللَّه كان يكـره أنْ يقـال للكلـب اخسـأ، وما أشبه ذلك، وفي دعائه على أصحاب الكلب الذي كان أربابُه لا يمنعونه من دُخول مُصَلاَّه، قال: اللهمَّ امنعهـم بركـة صـيِده دليـل علـــــــــــى حسْـــــــــــنِ رأيـــــــــــه فيـــــــــــه.

من أقوال المسيح عليه السلام قالوا: ومرَّ المسيحُ بن مريـم فـي الحَوارِيِّين بجِيفة كلب، فقال بعضهم: ما أشدَّ نتنَ ريحه قال: فهلاَّ قلتَ: ما أشدَّ بياضَ أسنانه. قالوا: وقال رجلٌ لكلب: اخسأْ، ويْلكَ فقال هَمَّام بن الحارث: الويلُ لأهلِ النَّار.

هراش الكلاب

والهِراش الذي يجري بينها وهو شَـرٌّ، يكـون بيـنَ جميـع الأجنـاس المتَّفِقة، كالبرذون والبرذون، والبعير والبعيـر، والحمـار والحمـار، وكذلك جميع الأجناس، فأمَّا الذي يفـرط ويتـمُّ ذلـك فيـه، ويتمنّـع ناس من النّـاس، ويقـع فيـه القِمـار، ويتَّخـذ لـذلك، وينفـقَ عليـه، ويُغالَى به، فالكلبُ والكلب، والكبـشُ والكبـش، والـدِّيكُ والـدّيك، والسُّمانَى والسُّمانَى، التحريش بين الجرذان فأَمَّـا الجُـرَذ فـإنَّه لا يقاتل الجُرَذَ حتَّى يشدَّ رجل أحدهما في طرف خيط، ويشدّ الجُرَذ الآخـر بـالطرف الآخـر، ويكـون بينهمـا مـن المسـاواة والالتقـاء، والعضِّ والخمش، وإراقـة الـدَّم وفَـرْي الجلـود، مـا لا يكـون بيـن شيئين من الأنواع التي يُهارَش بها. والذي يُحدث للجُرْذان طبيعـة القتالِ، الرِّباطُ نفسُه، فإن انقطع الخيطُ وانحـلَّ العَقْـد، أخـذَ هـذا شرقاً وهذا غرباً، ولم يلتقِيا أبـداً، وإذا تقـابلت جِحَـرةَ الفـأر، وخَلا لَها الموضعُ، فبيْنَها شرٌّ طويل، ولكنه لا يعدُو الوعيد والصـخَب، ولا يلتقـــــــــي منهمـــــــــا اثنـــــــــانِ أبـــــــــداً.

قصة ثمامة فيما شاهده من الفأر وحدَّثني ثمامة بن أشْرَس قال: كان بقيَ في الحبس جُحْـر فـأر، وتِلْقـاءَه جُحـرُ آخـر، فَيـرَى لكـلِّ واحدٍ منهما وعيداً وصياحاً ووثوباً، حتَّى يُظَنَّ أنَّهُما سيلتقيان ثم لا

يحتجزان حتّى يقُتلَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه، فبينا كلُّ واحـدٍ منهمـا فـي غايـة الوعيـد، إذ مـرَّ هاربـاً حتَّـى دخـل جُحـره، فمـا زالا كذلك،حتَّى أتى اللَّه تعالى بالفرَج وخُلِّي سبيلي.

جودة الشم عند الكلاب السلوقية

وزعم أنَّ السَّلوقيَّةَ الطويلةَ المناخر أجودُ شَمّاً، والشمُّ العجيب والحسُّ اللطيف من ذلك، إلاَّ أنَّ ذلك في طلـب الـذكور للإنـاث والإناثِ للذُّكور خاصة، وأمَّـا شـمُّ المـأكول، واسـترواحُ الطُّعـم، فللسِّباع في ذلك ما ليـس لغيرهـا، وإنَّ الفـأرَ لَيَشـمُّ، وإنَّ الـذَّر والنمل لَيَشمُّ، وإنَّ السنانير لتشَمُّ، وكذلك الكلب، وله في ذلــك فضيلة، ولا يبلغُ مَا يبلغ الذئب وقال أعرابيّ:

أبو الصّحيم من أربـابـهـا صَبَّ عليه اللـه مـن ذِئابـهـا
لا ينحاشُ مِن كـلابـهـا يلتهِمُ الطـائرَ فـي ذَهـابِـهـا
الجَرْيَةِ الأولَى فلا مَشَى بها

ألا تراه يجتهد في الدُّعاء عليها بذئبٍ لا ينحاشُ من الكلاب.

باب ما يُشَبَّه بالكَلْبِ وليس هو منْه?

وإذا جرى الفرس المحجِّل شبَّهوا قوائمَه بقوائم الكلب إذا ارتفعت في بطنـه، فيصـير تحجيلُهـا كأنَّه أكلُبٌ صغارٌ تعدو، كما قال العُمانيُّ:

تحت البَطْن منه أكلُبَـا بِيضاً صِغاراً ينتهشْنَ المَنْقَبا

وقال البدريّ:

أجراءَ كـلابٍ بِـيضِ دونَ صِفاقَيْه إلى التَّغْرِيضِ

وقال الآخر:

قِطّاً أو كلاباً أربَعَـا دون صِفاقيه إذا ما ضَبَعا

ويصفون الطَّلْعَ أوَّل ما يبدو صغاراً بآذانِ الكلابِ البِيضِ، وقال في ذلك الرَّاجزُ:

جُمَّاراً على سحـيض يَخرِج بعد النَّجْم والتبعيض
كآذَانِ الكلابِ البيضِ

ويُوصَف صوتُ الشَّخْب في الإناء بهرير هراش الكلاب، قال أعرابيّ:

خِلْفيها إذَا مـا هـرَّا جروَا كلابٍ هُورِشا فَهرّا

وقال الآخر:

صوتَ شَخْبِها المسحنْفِر بينَ الأباهِيمِ وبين الخِنْصـرِ
أجراءٍ ولما تُثْغِـرِ

وقال أبو دُوَاد:

طامِح الطَّرْفِ إلى وَهَوْهةِ الكلب.

جواب صبي

وزعم الهيثم بن عدي قال: كان رجل يُسمَّى كلباً، وكـان لـهُ بُنَـيٌّ يلعبُ في الطريق، فقال له رجلٌ: ابن مَنْ? فقال: ابن وَوْ وَوْ وَوْ

ما يستحبّ في ذنب كلب الصيد

ويحبّون أن يكون ذنَب الكلْبِ الصَّائِدِ يابساً، ليس له من اللحم قليل ولا كثير، ولذلك قال:

بأذنابٍ قليلاتِ اللِّحَا

وقال الشاعر:

وطَلْبَ ابنِ غـلاّقِ لـيَقـرِيَنـي كالغابط الكلبَ يبغي الطِّرْقَ في الذَّنب

الطِّرق: الشحم اليسير، يقال: ليس به طِرْق.

طيب لحم أجراء الكلاب

ويقال: ليس في الأرض فَرخٌ ولا جروٌ ولا شيءٌ من الحيـوان أسـمنَ ولا أرطـبَ ولا أطيـبَ مـن أجراء الكلب، وهي أشبهُ شيءٍ بالحمام، فإنَّ فِراخَ الحمام أسمنِ شيءٍ مادامت صغاراً من غيــر أن تسمَّن، فإذا بلَغتْ لم تقبل الشحم، وكذلك أولادُ الكلاب. وقال الآخر:

وأغضَفِ الأذْن طاوي البَطْنِ لِوَهْـوَهٍ رَذِم الـخـيشـومِ هَـرَّارِ مُضْطَمِرِ

الأصمعِيّ قال: قال أعرابيٌّ: أصابتنا سَنة شديدة، ثم أعقبتْها سنةٌ تتابَعَ فيها الأمطارُ فسمِنت الماشية، وكثُرت الألبان والأسمان، فسَمِن وِلْدان الحيِّ، حتَّى كأنَّ استَ أحدهم جرو يتمطَّى.
طلب أبي دلامة أبو الحسن قال: قال أبو العبَّاس أميرُ المؤمنين لأبي دُلامة: سَلْ قال: كلباً، قال: ويلَك ما تصنع بالكلب? قال: قلت أصيدُ به، قال: فلك كلب، قال: ودابَّةً، قال: ودابّة، قال: وغلاماً يركَب الدابة ويَصيد، قال: وغلاماً، قال: وجاريَة، قال: وجارية، قال: يا أمير المؤمنين كلبٌ وغلامٌ وجاريَة ودابّة، هؤلاء عِيال، ولابدَّ مِن دار، قال: ودار، قال: ولابدَّ لهؤلاء من غَلّةِ ضَيعة، قال: أقطعناك مائَةَ جَرِيبٍ عامرةً ومائَةَ جريبٍ غامرة، قال: وأيُّ شيء الغامرة? قال: ليس فيها نبات، قال: أنَا أقطِعك خمسَمائَةِ جريبٍ من فيافي بني أسد غامرةً، قال: قد جعلنا لك المائتين عامِرتين كُلَّها، ثمَّ قال: أبقيَ لك شيء? قال: نعم، أقبِّل يدك، قال: أمَّا هذه فدعْها، قال: ما منعتَ عيالي شيئاً أهون عليهم فقْداً منه?.
علمه حيلة فوقع في أسرها

الحسن عن أبي مريم قال: كـان عنـدنا بالمدينـة رجـلٌ قـد عليه الدَّين حتَّـى تـوارى مـن غرمـائه، ولـزِم منزلـه، فأتـاه له عليه شيءٌ يسير، فتلطَّفَ حتَّى وصل إليـه، فقـال لـه: تجعلُ لي إنْ أنـا دللتـك علـى حيلـةٍ تصـيرُ بهـا إلـى الظهـورِ والسَّلامةِ من غرمائك? قال: أقضِيكَ حقَّك، وأزيدُك ممَّا عنـدي تقُرُ به عينك، فتوثَّق منه بالأيمان، فقـال لـه: إذا كـان غـداً الصَّلاةِ مرْ خادمَـك يكنُـسْ بابَـك وفِنـاءَك ويـرشَّ، ويبسُـطْ دكّانك حُصراً، ويضَعْ لك متَّكأ، ثمّ أمهِل حـتى تصـبَح و يمـرَّ ثمّ تجلس، وكـلُّ مَـن يمـرُّ عليـك ويسـلّم انبـح لـه فـي ولا تزيدَنَّ على النُّباح أحداً كائنـاً مَـن كـان، ومَـنْ كلّمـك أهلِك أو خدمك أو من غيرهم، أو غريمٍ أو غيره، حتَّى تصـير الوالي فإذا كلَّمك فانبَحْ له، وإيَّاك أن تَزيـدَه أو غيـرَه علـى فإنَّ الواليَ إذا أيقَنَ أنَّ ذلك منك جِـدٌّ لـم يشُـكَّ أنَّـه قـد لك عارض من مَسٍّ فيخلِّيَ عنك، ولا يغري عليـك، قـال: فمرَّ به بعضُ جيرانه فسلّم عليه، فنبَح في وجهه، ثم مرَّ ففعل مثلَ ذلك، حتَّى تسامع غرماؤه فأتاه بعضُـهم فسـلّم

فلم يزِدْه على النُّباح، ثـمَّ آخـرُ، فتعلَّقـوا بـه فرفعـوه إلـى الوالي، فسأله الوالي فلم يزدْه على النُّباح، فرفَعه معهـم إلـى القاضي، فلم يزده على ذلك، فأمَرَ بحبسـه أيَّامـاً وجعـلَ عليـه العيون، وملَك نفْسَه وجعَلَ لا ينطِق بحرفٍ سـوى النُّبـاح، فلمَّـا القاضي ذلك أمرَ بإخراجه ووضعَ عليه العيونَ فـي منزلـه، لا ينطِق بحرفٍ إلاَّ النباحَ، فلما تقـرَّرَ ذلـك عنـد القاضـي غرماءَه بالكفِّ عنه، وقال: هذا رجـلٌ بِـهِ لَمَـم، فمكـث مـا اللهُ تعـالى، ثـمَّ إنَّ غريمَـه الـذي كـان علّمـه الحيلـة، أتـاه متقاضياً لِعِدتِه فلمَّا كلمه جعل لا يزيدهُ علـى النُّبـاح، فقـال لَـهُ يا فلان وعليَّ أيضـاً، وأنـا علَّمتـك هـذه الحيلـة? فجعـل لا على النُّباح، فلمَّا يئس منه انصرف يائساً مما يطالبه بِـهِ.

المتعاديين في وجه عدوِّهما المشـترك قـال أبـو الحسـن سلمة بن خطّاب الأزديّ، قال: لمَّا تشاغل عبـدُ الملـك بـنُ بمحاربةِ مُصـعَبِ بـنِ الزُّبيـر، اجتمَـعَ وجـوهُ الـرُّوم إلـى فقالوا لـه: قـد أمكنَتْـك الفُرْصـةُ مـن العَـرب، بتَشـاغُل مع بعض، لوقوع بأسهم بينهم، فـالرأيُ لـك أن تغزوَهـم

بلادهم، فإنَّك إن فعلتَ ذلك بهـم نلـتَ حاجتَـك، فلا تـدَعْهم تنقضيَ الحربُ التي بينهـم فيجتمعـوا عليـك فنهـاهم عـن وخطَّأ رأيَهم، فأبوا عليه إلاّ أن يغـزُوا العـربَ فـي بلادهـم، رأى ذلك منهم أمَـرَ بكلبَيـنِ فحـرَّش بينهمـا، فـاقتتلا قتـالاً شديداً، ثمَّ دعا بثعلبٍ فخلاَّه، فلما رأى الكلبان الثعلبَ، تركا مـا فيه، وأقبلا عليه حتَّى قتلاه، فقال ملك الروم: كيف تـرون? العربُ، تقتتلُ بينها، فإذا رأونا تركوا ذلـك واجتمعـوا علينـا فعرَفوا صدقه، ورجَعوا عن رأيهم.

كرم الكلاب

قـال: وقـال المغيـرةُ لرجـلٍ خاصـم إليـه صـديقاً لـه، وكـان الصديقُ توعَّدَه بصداقة المغيرة، فـأعلمه الرجـلُ ذلـك، وقـال: يتوعَّدَني بمعرفتك إيَّاه، وزعم أنَّهـا تنفعـه عنـدَك، قـال: إنَّهــا واللــه لتنفَــع، وإنَّهــا لتنفَــعُ عنــد الكلــب العقــور. كان الكلبُ العقورُ كذلك، فما ظنُّك بغيره? وأنت لا تصـيب الناس مَن تنفع عنده المعرفةُ من ألفٍ واحداً. وهذا الكــرمُ الكلاب عامٌّ، والكلبُ يحرُس ربَّـه، ويحمـي حريمـه شـاهداً

وذاكراً وغافلاً، ونَائِماً ويقظان، ولا يقصِّر عـن ذلـك وإن ولا يخذُلهم وإن خذَلوه.

نوم الكلب

والكلبُ أيقَظُ الحيوان عيناً في وقتِ حاجتهم إلى النوم، وإنَّما نـومه نهـاراً، عنـد اسـتغنائِهم عن حراسةٍ، ثمَّ لا ينام إلاَّ غِـراراً وإلاَّ غِشَاشـاً، وأغلـبُ مـا يكـوم النّـومُ عليـه وأشـدُّ مـايكون إسكاراً له أنْ يكونَ كما قال رؤبة:

مَطْلاً كنُعاسِ الكَلْبِ

بذلك القَرْمَطَة في المواعيد، وكذلك فـإنَّه أنْـوَمُ مـايكونُ يفتحَ عينَه بقدْر ما يكفيه للحراسة، وذلـك سـاعةً، وهـو فـي كلِّه وأسمَعُ من فرَس، وأحذَرُ من عَقْعَـق، مـع بُعـد صـوته.

رجل من العرب في الجمال

وقيـلَ لرجُـل مـن العـرب: مـا الجمـال? فقـال: غُـؤور العينَيـن، وإشراف الحاجبين، ورُحْب الأشداق، وبُعْدُ الصوت.

علاج الكلب واحتماله

هذا مع قلة السآمة، والصَّبْرِ علـى الجفـوة، واحتمـالِ الجراحـات الشِّداد، وجوائف الطعان ونوافِذِ السهام، وإذا نـاله ذلـك لـم يَـزَلْ

ينظِّفه بريقه؛ لمعرفته بأنَّ ذلك هو دواؤه حتَّى يبرأ، لا يحتـاج إلـى طبيب، ولا إلى مِرْهم ولا إلى علاج.

طول ذماء الضب والكلب والأفعى

وتقول العرب: الضبُّ أطولُ شيءٍ ذَمَاء، والكلبُ أعجبُ في ذلك منـه، وإنَّمـا عجبـوا مـن الضَّـبِّ، لأنَّـه يَغْبُـر ليلتـه مـذبوحاً مفـرِيَّ الأوداج، ساكنَ الحركـة، حتَّـى إذا قـرِّب مـن النـار تحـرّك، كـأنَّهم يظنُّون أنَّه قد كان حياً، وإن كان فـي العيـن ميّتـاً، والأفعَـى تبقـى أيَّامـاً تتحـرَّك مـا يعـتريه الاختلاج بعـد المـوت فأمَّـا الـذي يعـتريه الاختلاج بعد جُموده ليلةً، فلحْمُ البقـر والجُـزُر، تختلـج وهـي علـى المعاليق اختلاجـاً شـديداً، والحيَّـة يُقطَـعُ ثلثهـا الأسـفل، فتعيـش وينبُت ذلك المقطوع.

حياة الكلب مع الجراح الشديدة

قال: والكلـب أشـدّ الأشـياءِ الـتي تعيـش علـى الجـراح، الـتي لا يعيش عليها شيء إلا الكلبُ، والخنزيرُ، والخُنْفَساء.

قوة فكّ الكلب وأنيابه

والكلبُ أشدُّ الأشياء فَكّـاً، وأرْهفهـا نابـاً، وأطيَبُهـا فمـاً، وأكثرهـا ريقاً، يُرمَى بالعظم المدْمَج، فيعلم بـالغريزة أنَّـه إن عضَّـه رضّـه، وإن بلعَه استمرأه.

إلف الكلب وغيره من الحيوان للإنسان

وهــو ألــوفٌ للنــاس، مشــاركٌ مــن هــذا الموضــع العصــافيرَ والخطاطيفَ والحمـامَ والسـنانير، بـل يزيـد علـى ذلـك فـي بـاب الخاصِّ وفي باب العامِّ، فأمَّا باب الخاصِّ، فإن من الحمام مـا هـو طُورانيٌّ وحشيٌّ، ومنه ما هو آلفٌ أهلي، والخُطَّاف مـن القواطـع غير الأوابد، إذا قطع إلى الإنس لم يَبْنِ بيتَه إلاَّ في أبعدِ المواضـع، مـن حيـثُ لا تنـاله أيـديهم، فهـو مقسـومٌ علـى بلاده وبلادِ مـن اضطرَّته إليه الحاجة، والعصـافير تكـون فـي القـرب حيـثُ تمتنـع منهـم فـي أنفسـها، والكلاب مخالطـةٌ لهـا ملابِسـة، ليـس منهـا وحشيّ، وكلُّها أهلي، وليس من القواطع ولا من الأوابـد مـا يكـون آنس بالناس من كثير ممَّا يوصف بالأنس والإلف مـن الكلاب دون سـواها، وفـي السَّـنانير الوحشَّـيةُ والأهليـة.

وعلى أنّ إلفَ الكلب فوقَ إلف الإنسان الألوف، وهو فـي الكلـب

أغـرَبُ منـه فـي الحمـام والعصـفور؛ لأنَّـه سـبع، والحمـام بهيمـة والسبع بالسباع أشبه، فتركَها ولم يناسـبها، ورغِـب عنهـا، وكيـف، وهو يصيد الوُحوشَ ويمنع جميعَ السِّباع من الإفساد? فذلك أحمَـدُ له وأوجَبُ لشكره، ثمَّ يصيرُ في كثيرٍ من حالاته، آنَسَ بالنَّاس منه بالكلابِ دِنيَّةً وقُصْرةً، ولا تراه يلاعبُ كلباً ما دام إنسانٌ يلاعبه، ثمَّ لم يرْضَ بهذه القرابة وهذه المشاكلة، وبمقدار ما عليه من طبـاع الخُطَّاف والحمام والعصفور، وبمقدار ما فضَّلها الله تعالى بِهِ من الأُنس، حتَّى صار إلى غايةِ المنافع سُلَّماً، وإلى أكثر المرافق.

الحاجة إلى الكلاب

وليس لحارس الناس ولحارسِ أموالهم بُدٌّ من كلب، وكلَّمـا كـان أكبرَ كان أحـبَّ إليـه، ولا بـدَّ لأقـاطيع المواشـي مـن الكلاب، وإلاَّ فإنّها نهب للذئاب ولغير الذئاب ثـمّ كلابِ الصّـيد، حتَّـى كـان أكـثرُ أهل البيت عِيالاً على كلِّ كلب مقلدات الأنسان من الحيوان وقـد صار اليـومَ عنـدَ الكلـب مـن الحكايـات وقَبـول التلقيـن، وحُسْـن التصريف في أصناف اللَّعِب، وفي فِطَن الحكايـات مـا ليـس فـي

الجوارح المذلَّلةِ لذاك، المصرَّفةِ فيه، وما ليس عند الدبِّ والقــرد والفيل، والغَنَم المكيَّة، والبَبغَاء،

الكلب الزِّينيّ

والكلب الزِّينيّ الصِّينيّ يُسرَج على رأسه ساعاتٍ كثيرةً من اللَّيْل فلا يتحرَّك، وقد كان في بني ضَبَّةَ كلب زينيٌّ صينيّ، يُسرَج على رأسه، فلا ينبِض فيه نابِض، ويدعونه باسمه ويُرمى إليه بِبِضْعَةِ لحم والمِسْرَجةُ على رأسه، فلا يميل ولا يتحرَّك، حتَّى يكونَ القومُ هم الذين يأخذون المصباح من رأسه، فإذا زايَل رأسَه وثَب على اللحم فأكله، دُرِّب فدَرِب وثُقِّف فَثَقِف، وأُدِّب فقَبِل، وتعلَّق في رقبته الزنْبلة والدَّوْخَلّة وتوضع فيها رُقعة، ثم يمضي إلى البقَّال ويجيء بالحوائج. تعليم الكلب والقرد

ثمَّ صار القَرَّادُ وصاحبُ الرُّبَّاح مِنْ ثمَّ يستخرِجُ فيمـا بيـن الكلْـب والقِـرد ضُـروباً مـن العمَـل، وأشـكالاً مـن الفِطَـن، حتَّـى صـاروا يطحنون عليه، فإذا فرغ من طحنه مضَوا به إلى المُتمَعَّك، فيُمعَّك

كما يُمعَّك حمار المُكَارِي وبغلُ الطحَّان، وقرابةٌ أخـرى بينـه وبيـن الإنسان: أنّه ليس شيءٌ من الحيوان لـذكره حجْـمٌ بـادٍ إلا الكلـبُ والإنســـان.

ما يسبح من الحيوان وما لا يسبح والكلبُ بعد هذا أسبحُ من حيّـة، ولا يتعلَّق بِهِ في ذلك الثَّور، وذلك فضيلةٌ له على القِرد، مـعَ كـثرةِ فِطَن القِرْد وتشبُّهِهِ بالإنسان؛ لأنّ كلَّ حيوانٍ فـي الأرض فـإنَّه إذا ألقي في الماء الغَمْر سبح، إلاّ القردَ والفـرسَ الأعسَـر، والكلـب أسبحُها كلِّها، حتّى إنّه ليُقَدَّم في ذلك على البقرة والحيَّة.

أعجوبة في الكلاب من الأعاجيب

وفي طباع أرحامِ الكلاب أُعجوبَـة؛ لأنَّهـا تَلقَـح مـن أجنـاس غيـر الكلاب، ويُلقحها كما يلقح منها، وتلقح من كلابٍ مختلفـة الألـوان، فَتؤدِّي شَبَه كلِّ كلب، وتمتلئ أرحامُها أجراءً من سِفاد كلبٍ، ومن مرةٍ واحدة، كما تمتلئ من عدَّة كلابٍ ومـن كلـبٍ واحـد، وليسـت هــــــــــذه الفضــــــــــيلة إلاّ لأَرحــــــــــام الكلاب.

فخر قبيلتين زنجيـتين قـالوا: والزِّنـج صِـنفان، قبيلـة زنجيَّـة فـوق قبيلة، وهما صِنفان: النمـل والكلاب، فقبيلـةٌ هـم الكلاب، وقبيلـةٌ

هـم النمـل، فخـر هـؤلاء بـالكثرة، وفخـر هـؤلاء بالشـدَّة، وهـذان الاسمان هُمَا ما اختارَاهما لأنفسِهما ولم يُكرَها عليهما.

حديث أكلك كلب الله

قال: ويقال إنّ النبي صلى الله عليه وسـلم قـال لعُتْبـة بـن أبـي لهَب: أكلك كلبُ اللـه فـأكله الأسـد، فواحـدةٌ: قـد ثبـت بـذلك أنَّ الأسد كلبُ الله، والثانية: أنّ الله تبارك وتعـالى لا يُضـاف إليـه إلاَّ العظيمُ، من جميع الخير والشرِّ، فأمـا الخيـر فقولـك: بيـت اللـه، وأهـل اللـه، وزُوَّار اللـه، وكِتـاب اللـه، وسـماء اللـه، وأرض اللـه، وخليلُ الله، وكَلِيم اللّه، وروح اللـه، ومـا أشـبه ذلـك، وأمـا الشـرُّ فكقولهم: دعْه في لعنَـةِ اللـه وسـخَط اللـه، ودعْـه فـي نـار اللـه وسَعيره، وما أشبه ذلك، وقد يسمِّي المسلِمون والنَّاس كلباً.

تسمية بنات آوى والثعالب والضباع بالكلاب

وقد زعم آخرون: أنَّ بناتِ آوى، والثعالبَ والضِّباعَ، والكلابَ كلَّها كلاب، ولذلك تَسافَدُ وتَلاَقح، وقال آخرون: لعَمري إنَّهـا الكلاب إذا أردتم أن تشبِّهوها، فأمَّا أن تكـونَ كلابـاً لِعلَّـةٍ أو عِلَّـتين والوجـوهُ

التي تخالف فيها الكلاب أكثر فإنَّ هذا ممّا لا يجوز، وقول مَنْ زعم أنّ الجواميس بقرٌ وأنّ الخيلَ حُمُرٌ، أقربُ إلى الحقِّ من قولِكم، وقولِ من زعَم أنّ الجواميس ضأنُ البقر، والبقَر ضأنٌ أيضاً، ولذلك سمَّوا بقرَ الوحْشِ نِعاجاً، كأنهم إنما ابتغوا اتِّفاق الأسماء، ومابالُ من زعم أنَّ الأسَد والذئب والضبع والثعلبَ وابنَ آوى كلابٌ أحقُّ بالصواب ممَّن زعم أنَّ الجواميس ضأنٌ والبقر ضأنٌ والماعزُ كلها شيء واحد، وهذا أقربُ إلى الإمكان؛ لتشابهها في الظِّلف والقُرون والكروش وأنَّها تجتَرُّ، والسِّنَّور والفهد والنمر والبَبْر والأسد والذئب والضبع والثّعلبُ إلى أن تكونَ شيئاً واحداً أقرب، وعلى أنَّنا لم نتبينْ إلى الساعة أنَّ الضِّباع والكلابَ وبناتِ آوى والذئابَ تتلاقح؛ وما رأينا على هذا قط سِمْعاً ولا عِسْباراً، ولا كلَّ ما يعُدُّون، وما ذِكْرهم لذلك إلاَّ من طريق الإخبار عن السُّرعة، أو عن بعضِ ما يُشبه ذلك، فأمّا التلاقُح والتركيب العجيب الغريب، فالأعراب أفطنُ والكلام عندهم أرخص منْ أن يكونوا وصَفُوا كلَّ شيءٍ يكون في الوحش، وكلَّ شيءٍ يكون في السّهل والجبل، مما إذا جمع جميعُ أعاجيبه لم يكنْ أظرفَ ولا أكثرَ ممَّا يدَّعون من هذا التَّسافُد والتّلاقُح والتراكيب في

الامتزاجـات، فكيـفَ يَـدَعُون مـا هـو أظـرفُ، والـذي هُـو أعجـب وأرغب، إلى ما يستوي في معرفته جميعُ الناس? تتمَّة القول في حديث السابق وقال آخرون: ليس الكلبُ من أسماء الأسد، كمـا أنْ ليـس الأسـد مـن أسـماء الكلـب، إلاّ علـى أنْ تمـدحُوا كلبَكـم فيقـول قـائلكم: مـاهو إلاّ الأسـد؛ وكـذلك القـول فـي الأسَـد إذا سـمَّيتموه كلبـاً، وذلـك عنـد إرادة التصـغير والتحقيـر، والتـأنيب والتقريع؛ كما يقال ذلـك للإنسـان علـى جهـة التشـبيه، فـإن كـان النبي صلى الله عليه وسلم قال "ذلـك فـإنَّ ذلـك علـى بعـض مـا وصفْنا لك، ويقول أهل حمص: إنهم لا يُغلَبون؛ لأن فيهـا نـورَ اللـه في الأرض، وما كلبُ الله إلا كنُور الله. والله، تبارك وتعالى عُلُـوّاً كبيراً، لا تضاف إليه الكلابُ والسنانيرُ والضِّـباعُ والثعـالب، والنـبي صلى الله عليه وسلم لم يقل هذا قطُّ، وإنْ كان قالَه فعلـى صـلةِ كلامٍ أو علـــــــــــــــــــى حكايـــــــــــــــــــةِ كلام.
وقال صاحب الكلب: قد وضَح الأمر، وتلقَّاه النـاس بـالقَبول، فـي أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: أكَلَـك كلـبُ اللـه وهـو يعنـي الأسد، ومن دفع هذا الحديثَ فقد أنكرَ علاماتِ الرسول صلى الله عليه وسلم.

التسمية بمشتقات الكلب

والنَّاسُ قد سمَّوا الناسَ بكلـبٍ وكُليـب وكِلاب وأكلـبُ ومكـاليب ومكالبة بنو ربيعة، وكليب بن ربيعة بـن عـامر، وفـي العـرب مـن القبائل كلب، وبنو الكلْبة، وبنو كلاب، وأكلـبُ بـن ربيعـةَ بـنِ نـزار عِمارةٌ ضخمةٌ، وكلْب بن وَبْرة جِذْمٌ من الأجذام وهم نفرُ جُمجُمة، وكلّ سادات فهو يكنى أبا كليب، ومن ذلك عمـرو ذو الكلـب وأبـو عمرو الكلب الجرمي وأبو عامر الكلب النحوي، وكيف لا يجوز مع ذلك أنْ يسمَّى الأسد بالكلب، وكلُّ هؤلاء أرفَـعُ مـن الأسـد? وقـد قالوا: كلب الماء، وكلبُ الرحى، والضَّبَّة التي في الرحل يقال لها الكلـب، والكلـب: الخشـبة الـتي تمنـع الحـائط مـن السُّـقوط، وتُشخَص في القناطر والمسنَّيات، والكلب الـذي فـي السـماء ذو الصُّوَر، ويقال: داء الكَلَب، وقـد اعـتراه فـي الطعـام كلـب، وقـد كلب عليهم في الحرب، ودِمَاءُ القوم للكَلْبى شـفاء، ومنـه الكلْبـة والكلْبتان والكُلاَّب والكلُّوب ثمَّ المكلِّـب والمكلـب وهـذا مختلـف مشتقٌّ من ذلك الأصل، ومنه عَلُّويَهْ كلب المطبـخ، وحمـويه كلـب الجـــنّ.

بين أبي علقمة المزني وسوار بن عبد الله ولما شهدَ أبو علقمة المُزَنيُّ عند سوّار بنِ عبد الله أو غيره من القضاة و توقَّفَ في قَبول شهادته، قال له أبو علقمة: لم توقَّفتَ في إجازة شهادتي? قال: بلغني أنَّك تلعَب بالكِلاب والصُّقور، قال: مَنْ خبَّرك أنِّي ألعب فقد أبْطَل، وإذا بلغك أنِّي أصطادُ بها فقد صدَقَك مَنْ أبلغك، وإنِّي أخبرك أنِّي جادٌّ في الاصطياد بها غيرُ لاعبٍ ولا هازئ، فقد وقَفَ المبلِّغ على فرقِ ما بينَ الجدِّ واللَّعب، قال: ما وقَفَ ولا وقَّفته عليه، فأجازَ شهادتَه قوله تعالى: يَسْألونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ وقد قال الله تعالى: "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحلَّ لَهُمْ" فقال لنبيِّه: "قلْ أُحلَّ لكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الجَوَارِح مُكلِّبِين"، فاشتَقَّ لكلِّ صائدٍ وجارحٍ كاسب مِنْ بازٍ، وصقرٍ، وعُقاب، وفَهْد، وشاهين، وزرَّقٍ، ويؤيؤ، وباشق، وعَنَاق الأرض، من اسم الكلب، وهذا يدلُّ على أنّه أعمُّها نفعاً، وأبعدها صِيتاً، وأنبهها ذكراً، ثمَّ قال: "تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمكُمُ الله فَكُلوا مِمّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسمَ اللهِ عَلَيْهِ" فذكر تعليمَهم لها إذ أضافَ ذلك إلى نفسه، ثمَّ أخبَرَ عن أدَبها وأنَّها تُمسِك على أربابها لا على أنفسها، وزعَم أصحاب الصَّيْد أنْ ليس في الجوارح شيءٌ أجدرُ أن يُمسِك على

صاحبه ولا يُمسِكَ على نفسه من الكلب تأويل آية أصحاب الكهف قال اللـه تعـالى لنـبيِّه صـلى اللـه عليـه وسـلم: "أَمْ حَسِـبْتَ أَنّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنَا عَجَبـاً، إذ أوَى الْفِتْيَـةُ إلَـى الْكَهْفِ فَقَالُوا: رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً"، فخبَّر كما ترى عن دعائهم وإخلاصهم، ثمَّ قال جلّ وعزَّ: "فَضَـرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ في الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَـمَ أَيُّ الحِزْبَيْـنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً"، ثمَّ قال عزَّ وجلّ: "نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْـكَ نَبَـأَهُمْ بِالحَقِّ إنّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا برَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى، وَرَبَطْنَا عَلَـى قُلُـوبهِمْ إذْ قَامُوا فَقَالُوا: رَبُّنَا رَبُّ السَّـمواتِ وَالأَرْضِ لَـنْ نَـدْعُوَ مَـنْ دَونِـهِ إلهاً لَقَدْ قُلْنَا إذاً شططاً" ثم قال: "فَأوُوا إلَى الْكَهْـفِ ينشـر لَكُـمْ رَبُّكمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ويُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أمْرِكُمْ مِرْفَقاً، وَتَرَى الشَّـمْسَ إذا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَـنْ كَهْفِهِـمْ ذَاتَ الْيَمِيـنِ وَإذَا غَرَبَـتْ تَقْرِضُـهُم ذَاتَ الشِّمال" ثمّ قَـالَ بعـدَ هـذه الصِّـفة لحـالهم، والتمكيـن لهـم مـن قلـوب السَّـامعين، والأُعجوبـةِ الـتي أتـاهم بهـا: "وَكَلْبُهُـمْ بَاسِـطٌ ذرَاعَيْهِ بالْوَصِيدِ" ثمَّ قال: "لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَ لَمُلئْتَ منْهُمْ رُعْباً" فخبَّر أنَّهم لم يستصحبوا مِن جميـع مَـن يـألفُ النَّاس ويرتفقون به، ويسكنون إليه، شيئاً غيـرَ الكلـب، فـإنَّ ممّـا

يألفُ النَّاس ويرتفقون به، ويسكنون إليه، شيئاً غيرَ الكلـب، فـإنّ ممّا يألفُ النَّاس ويرتفقون بـه، ويسـكنون إليـه: الفـرسَ والبعيـرَ والحمار والبغل، والثَّور والشاة، والحمامَ والدِّيَكـة، كـلّ ذلـك ممـا يرتفَـق بـه ويُستصـحب فـي الأسـفار، وينقَـل مـن بلـدٍ إلـى بلـد. والناس يصطادون بغير الكلب، ويسـتمتعون بـأمور كـثيرة، فخبَّـر عنهم بعد أن جعلهـم خيـاراً أبـراراً، أنّهـم لـم يختـاروا استصـحابَ شيءٍ سوى الكلب، وليس يكون ذلك من المـوفّقين المعصـومين المؤيَّدين، إلاّ بخاصّةٍ في الكلب لاتكون فـي غيـره، ثـمَّ أعـاد ذكـر الكلب، ونبَّأ عـن حـاله، بـأنْ قـال عـزَّ وجـلَّ: "إذ يَتَنَـازَعُونَ بَيْنَهُـمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِـمْ قَـالَ الَّـذينَ غَلَبُـوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِداً، سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُـمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُم كَلْبُهُـمْ رَجْمـاً بِـالْغَيْبِ وَيَقُولُـونَ سَـبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُم قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إلاّ قَليلٌ، فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إلاّ مِرَاءً ظَاهِراً وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَـداً" وفـي قـولهم في الآية "ثَلاَثَةٌ رَابِعُهُم كَلْبُهُـمْ وَيَقولُـونَ خَمْسَـةٌ سَادِسُـهُم كَلْبُهُـمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُم كَلْبُهُمْ" دَلِيلٌ عَلَى أنَّ الكلبَ رفيـعُ الحـال، نـبيه الـذِّكر، إذ جُعِـل رابعَهـم، وعُطـف ذِكْـرُه علـى

ذكرهِمْ، واشتقَّ ذكْره من أصل ذكرهـمْ، حتَّـى كـأنَّه واحـدٌ منهـم، ومـن أكفـائهم أوْ أشـباههِم أو ممَّـا يقـاربهم، ولـولا ذلـك لقـال: سيَقُولون ثلاثَةٌ معهم كلبٌ لهم، وبينَ قول القائل معهم كلبٌ لهم، وبين قوله)رَابِعُهُم كَلْبُهُم(فرقٌ بيِّـن وطريـق واضـح، فـإنْ قلتـم: هذا كلام لم يحكه الله تعالى عن نفسـه، وإنَّمـا حكـاه عـن غيـره، وحيث يقـول: "ثَلاثَـةٌ رَابِعُهُـمْ كَلْبُهُـمْ وَيَقُولُـونَ خَمْسَـةٌ سادِسُـهُمْ كَلْبُهُمْ" وَقَدْ صَدَقتُم، والصِّفة على مـا ذكرتـم؛ لأنَّ الكلامَ لـو كـان منكراً لأنكره الله تعالى، ولو كان معيباً لعابه الله، فإذْ حكـاه ولـم يَعِبْهُ، وجعله قرآناً وعظّمه بذلك المعنى، ممّـا لا ينكـرَ فـي العقـل ولا في اللغة، كان الكلام إذا كان على هـذه الصـفة مثلَـه؛ إذ كـان الله عزّ وجلّ المنْزل له الاستطاعة قبل الفعـل ومثـلَ ذلـك مثَّـلَ بعضُ المخالفين في القدَر، فإنّه سأل بعـضَ أصـحابنا فقـال: هـل تعرفُ في كتاب الله تعالى أنَّـه يُخبِـرُ عـن الاسـتطاعة، أنّهـا قبـلَ الفعل? قال: نعم، أتى كثيرٌ، مِنْ ذلك قـولُه تعـالى "قَـالَ عِفْرِيـتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِـنْ مَقامِـكَ وإنِّـي عَلَيْـه لَقَـويٌّ أَمِينٌ"، قال المخالف: سألتك أنْ تخبرني عن الله، فأخبرتني عـن عفريتٍ لـو كـان بيـنَ يـديَّ لبَرَقـتُ فـي وجهـه قـال صـاحبُنا: أمّـا

سليمانُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فقد تركَ النَّكيـرَ عليـه، ولـو كان مثلُ هذا القول كفْـراً وافـتراءً علـى اللـه، ومغالبـةً وتفويضـاً للمشيئة إلى النفس، لكان سليمان ومَن حضـره مـن المسـلمين من الجِّن والإنس أحقَّ بالإنكـار، بـل لـم يكـن العِفريـتُ فـي هـذا الموضع هو الذي يسرع فيه ويذكر الطاعة، ولا يتقـرَّب فيـه بـذكر سرعة النفوذ، ويبشر فيه بأنّ معه مـن القـوِّة المجعولـة مـا يَتَهَيـأ لمثله قضاءُ حاجته، فيكذب ثمَّ لا يرضى بالكذب حتَّى يقـول قـولاً مستنكراً، ويدَّعي قوَّة لا تُجعَل له، ثمّ يستَقبل بالافتراء علـى اللـه تعالى والاستبداد عليه، والاستغناء عنه نبيّاً قدْ ملك الجنَّ والإنـس والرِّياحَ والطير، وتسْييرَ الجبال، ونطقَ كـلِّ شـيء، ثـمَّ لا يزجـره فضـلاً عـن أنْ يضـربَه، ويسـجُنه فضـلاً عـن أن يقتلـه. وبعدُ، فإن الله تبارك وتعالى لم يجعل ذلـك القـول قرآنـاً، ويـترك التنبيه على ما فيه من العَيب، إلاّ والقول كان صِدقاً مقبولاً، وبعد، فإن هذا القولَ قد سمعه رسول الله صلى الله عليه وس لم، وتلاهُ على الناس، وما زالوا يتلونه في مجالسهم ومحاريبهم، أفَما كـان فـي جميـع هـؤلاء واحـدٌ يعـرف معرفتـك، أو يغضَـبُ للـه تعـالى غضبك?.

كتاب الحيوان
الجاحظ

دفاع عن الكلب

قال صاحب الكلب: لو اعترضْتَ جميعَ أهل البدو في جميع الآفاق مـن الأرض، أنْ تُصِـيبَ أهـلَ خيمةٍ واحدة، ليس عندهُمْ كلبٌ واحد فما فوقَ الواحد لمَـا وجـدته، وكـذلك كـانوا فـي الجاهليَّـة، وعلى ذلك هم في الإسلام، فمن رجعَ بالتخطئة على جميع طوائف الأمـم، والتـأنيبِ والاعـتراض على جميع اختيارات الناس، فليتَّهم رأيَه؛ فإنَّ رأيَ الفردِ ولاسيّما الحسـودُ، لا يَفـي بـرأي واحـد، ولا يرى الاستشارة حظاً وكيف بأنْ يَفيَ بجميع أهل البدو من العرب والعجـم، والـدليل علـى أنَّ البَدْوِ قد يكون في اللُّغة لهما جميعاً قولُ الله عزَّ وجلَّ: " وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَـدْوِ مِـنْ بَعْـدِ أَنْ نَـزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْـوَتِي"، ولـو ابتُلـي صـاحبُ هـذا القـول بـأن يَنـزل الباديـة، لتحـوَّل رأيُـه، واستبدَلَ بهِ رأيَ من قد جرّب تقريبَ الكلب وإبعادَه، وقد قال أبو عَبَّادٍ النميري: لا يكون البُنْيَـان قريَةً حتى ينبحَ فيه كلبٌ، ويزْقوَ فيه ديك، ولمَّا قال أحمد بنُ الخَارَكي: لا تَصير القريةُ قريَةً حتَّى يصيرَ فيهـا حائـكٌ ومعلِّـم، قـال أبـو عبَّـاد: يـا مجنـونُ إذا صـارتْ إلـى هـذا فقـد صـارت مدينـة. وللكلب إثباتُه وجهَ صاحبِه، ونظرُه في عينيه وفي وجهه، وحبُّه له، ودُنُّوه منـه، حتَّـى ربَّمـا لاعبـه ولاعب صبيانَه بالعضِّ الذي لا يؤثِّر ولا يُوجِع، وهي الأضراسُ التي لو نشَّبها في الصـخر لنَشِـبت، والأنيابُ التي لو أنحى بها على الحصَى لرضَّها، وقد تراه ومـا يصـنع بـالعظْم المدمَـج، وبـالفِقْرة من الصُّلب القاسي الذي ليس بالنَّخِر البالي، ولا بالحديثِ العهِد بالودَك الذي يلين معـه بالمضْـغ ويَطيب، فتراه كيف يرضُّه ويفتّته، ثمَّ إن مانَعَه بعضَ الممانعةِ، ووافـقَ منـه بعـضَ الجـوع، كيـف يبتلِعه وهو واثـق بِاسـتمرائه وهضْـمه، أو بـإذابته وحَلِّـه. ولـه ضـروبٌ مـن النَّغَـم، وأشـكال مـن الأصوات، وله نوح وتطريب، ودُعاء وخُوار، وهَرِير وعُواء، وبَصبصة، وشـيءٌ يصـنَعه عنـد الفـرح، وله صوتٌ شبيهٌ بالأنينِ إذا كان يَغْشَى الصيد، وله إذا لاعَبَ أشكاله فـي غُـدُوات الصَّـيفِ شـيءٌ بينَ العُواء والأنين، وله وطءٌ للحصى مثله بأن لـو وطـئ الحصـى علـى أرض السـطوح لا يكـون مثله وطء الكلب يربى على وزنـه مـراراً، وإذا مـرَّ علـى وادٍ جامـدٍ ظـاهرِ المـاء، تنكّـبَ مواضـعَ الخريـــــــــــــــــــــــــــر فـــــــــــــــــــــــــــي أســـــــــــــــــــــــــــفله.

قال الشاعر ورأى رجلاً اسمه وثَّاب واسم كلبِه عمرو فقال:

له اللّـه مِن التَّوفيق أسبابا
نفسِه عَمْراً وسمَّى الكلبَ وَثَّابا

أطْباء الكلبة والخنزيرة والفهدة

قال: والكلبة كـثيرةُ الأطبـاءِ، وكـذلك الخنزيـرة، وللفَهـدة أربعـة أطباء من لَدُنْ صدرِها وقرب إبطيها إلى رفغيها، وللفيـل حلمتـان تصغران عن جثّته، وهما مما يلي الصَّدر مثل الإنسان، والذّكُر في ذلك يشبَّه بالرجل؛ لأنْ للرجل ثديَيْن صغيرَين عن جثته.

واقية الكلاب

ويقال: إنَّ على الكلابِ واقيةً من عبث السُّفهاء والصِّبيان بها، قال دُريد بن الصِّمَّة، حين ضرَبَ امرأتَه بالسيف ولم يقتلْها:

الْعَينَ أَنْ عُصِبتْ يداهـا إن يُعصبَان على خِضَابِ
فأبقَـاهُـنَّ أنَّ لـهـنَّ جَـدّاً وواقية كواقـية الـكـلاب

وقال الآخر:

اللَّه مِن شَرِّها فإنَّ الكلابَ لها واقيَهْ

ويروى:

سينْجِيه مِنْ شرِّها شرُّه

وقال غيره:

قتلتُك بالهجاء فلم تمُتْ إن الكلاب طويلة الأعْمارِ

وقال بِشر بن المعْتمر:

دَأباً في طلاب الثّرَا فكُلُّهم من شأنه الخَـتْـرُ
تنهَشـهـا أذْؤبٌ لها عُواءٌ ولـهـا زَفـرُ

كتاب الحيوان
الجاحظ

استطراد لغوي قال: ويقال قرَح الكلب ببوله يقرح قرْحاً، إذا بال، قال: وقال أبو الصَّقر: يقـرَح ببوله حين يبول، وشغر الكلب يشغَر إذا رفَع رجْلُه، بال أو لم يبل، ويقال شغرتُ بالمرأة أشغُرها شغْراً إذا رفعتَ رِجلَها للنِّكاح، قال: ويقال عاظَل الكلبُ مُعاظَلَةً، يعني السِّفاد، قال أبو الزحف:

الكلبِ مَشَى للكلبَةِ العِظالَ مُصْحراً بالسَّوءَة

قال: ويقال كلبٌ عاظِل وكَلابٌ عُظّل وَعظَالى، وقال حسان بن ثابت الأنصاري:

بَخيرٍ من يَزِيدَ وخَالدٍ بخيْرٍ من معاظلة الكلبِ

قال مالِكُ بن عبد اللَّه الجَعْديّ، يوم فيفِ الرِّيح: حدَّثني أبي، لقدْ نظرتُ يَوْمَئذٍ إلى بني عبد الحارث بن نمير، فما شبَّهتُهم إلاَّ بالكلاب المتعاظلة حَوْلَ اللواء.

وقاَل أبو بَرَاء عامرُ بن مالكٍ ملاعبُ الأَسِنَّة لاعبه الحارث واليوم قال فقال منذ يومئذ، قال: والسَّلوقيّة منسوبَةٌ إلى سَلوقَ من بلاد اليَمن، لها سلاحٌ جيِّد وكلاب قُرَّه، وقال القَطَاميُّ:

ضَوَارٍ مِنْ سَلوقَ له طَوْراً تُعانِدُه وتنفعه

تعفير البهائم والسباعَ أولادها قالُوا: وليس في الأَرض بهيمةٌ ولا سبع أنثى تريد فِطامَ ولدها وإخراجَه من اللَّبَن إلى اللحم، أو من اللبَنِ إلى العُشْب، إن كانت بهيمةً إلاَّ وهي تعفر ولدَها، والتعفير: أن ترضعه وتمنعه حتى يجوع ويطلب اللحمَ إن كان سبعاً، والعُشْبَ إن كان بهيمة، فلا تزالُ تنوِّله وتُماطله وكلما مرَّتْ عليه الأيَّام كان وقتُ منعِها له أطولَ، حتَّى إذا قوي على أكْل اللَّحْمِ أو العُشْب فطمته، قال لبيدٌ في مثل ذلك:

أَمْ وَحْشِيَّةٌ مَسْبُوعَةٌ خُذِلَتْ وَهَادِيةُ الصِّوَارِ قِوَامُهَا
ضَيَّعَتِ الْفَرِيرَ فَلم يَرِمْ الشَّقَائِقِ طَوْفُهَا وَبُغَامُهَا
قَهْدٍ تَنَازَعَ شِلْوَهُ كَوَاسِبُ لاَ يُمَنُّ طَعَامُهَا
صَادَفنَ مِنْهَا غِرَّةً فَأَصَبْنَهَا المنايا لا تَطِيشُ سِهامُها

لأنَّ البقرة إذا كانت بحضْرة ولدها لم تضيِّعه ومَنعت السِّباعَ منه، وقاتلَتْ دونَهُ بقُرونها أشدَّ القتال، حتَّى تُنجيَه أو تعطَب.

بعض من كني بالكلاب

كتاب الحيوان
الجاحظ

قال: وكان ابنُ لِسَانِ الحُمَّرَة يكنى أبا كلابٍ، وكان زوجُ حُبَّى المدَنيَّة يقال له ابن أمِّ كِلاب، وقَال الشَّاعر يذكُرها:

وَجَدَتْ وَجْدي به أمُّ واحدٍ ولا وجْدُ حُبَّى بابنِ أمِّ كِلابِ
طويلَ السَّاعدين شَمرْدَلاًكما انبعثتْ من قوّةٍ وشَبَاب

صفة عيون الكلاب

وقال آخر يصِفُ عيونَ الكلاب إذا أبصرت الصَّيد:

مجزَّعَةٌ غُضْفٌ كأنَّ عيونَها القُنَّاصُ بالصَّيد عَضْرَسُ

مجزّعة: في أعناقها جَزْع، وهو الودَع يُجعَل في القلائد، يقول: تبيضُّ عيونُها حينَ تختِلُ الصَّيد، والعَضْرَس هاهنا: البَرَد، وقال الآخر:

تَرَاح إلى الصُّراخِ إذا فِعْلَ الضِّراء تَرَاحُ للكَلاَّبِ

وقال آخر وذكر الضِّراء، وهو يصف الشَّيخ وضعْفَه:

أن يُقادَ به بَعير ذَلُولٌ حينَ تَهتَرِشُ الكِلابُ

قال: وهُم عند الحاجة يُعِدُّون الكلبَ والمطيَّة، وأَنشد:

فأعقَبَ خيراً كلّ أهوج مِهْرَجٍ وكلُّ مُفدَّاةِ العُلالة صِلْدِمِ

وقال الآخر:

مُفدَّيات وملقَّبات

وأنشد قول أبي ذُؤَيب في شبيهٍ بالمعنى الأوّل:

الكلابُ الضّارياتُ به يَرَى الصُّبْحَ المُصَدَّقَ يَفْزَعُ

يقول: هذه الثِّيران لما قد لُقِّينَ مع الصبح والإشراق من الكلاب، صار أحدها حين يَرَى ساطع الصبح يَفْزَعُ، وذلك أنَّها تمطَرُ ليلتَها فتَشَرَّقُ في الشمس، فعندها تُرسَل عليها الكلاب صولة الذئب على الغنم مع الصبح ويقال إنَّ أكثرَ ما يعرِض الذّئبُ للغنم مع الصُّبْح، وإنَّما رقَب فتْرةَ الكلب وكلالَه، لأنّه باتَ ليلتَه دائباً يحرس، وقال أعرابيٌّ وكسَرَ ذئب شاةً له مع الصُّبح، فقال:

بوَردةَ أُمِّ الـوَرْدِ ذو عَـسَـلٍ الذِّئاب إذا مـا راحَ أو بَـكَـرَا

ابُنها وسَلِـيلاَتٌ لـهـا غُـرَر انفكَّت العين تذْرِي دمعَهـا دِرَرَا

الذِّئبُ إذ يعدو على غـنَـمـي في الصُّبح طالبُ وِترٍ كان فَاتَّـأرا

اعتامَه شَـثـنٌ بـراثِـنُـه الضَّوارِي اللّواتي تقصِمُ القَصَرا

مسألة زيد الخيل للرسول الكريم ولما قـال النـبيُّ عليـه الصـلاة والسلام لزيدِ الخيل مِن الخير ما قَال، وسمَّاه زيدَ الخير، ما سأله زيدٌ شيئاً، ولا ذكر له حاجة، إلاّ أنَّه قال: يا رسول اللَّه، فينا رجُلان يقال لأحدهما ذَرِيح، والآخر يكنى أبا دُجانـة، ولهمـا أكلـب خمسـة تَصِـيد الظبـاء، فمـا تـرى فـي صـيدهم? فـأنزلَ اللَّـه عـزَّ وجلّ:"يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لُهمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَـاتُ وَمَـا عَلَّمْتُـمْ مِنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنّ مَّما عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ"، فأوَّلُ شيءٍ يعظِّم في عينِك شأنَ الكلب، أنَّ هذا الوَافدَ الكريمَ الذي قِيل له ما قيل، وسُمِّي بما لـم يسمَّ به أحد لم يسأَلْ إلاّ عن شأن الكلب، وثانيـة وهـي أعظمهـا: أنَّ اللَّه تعالى أنزل فيه عنـد ذلـك آيـاً مُحْكمـاً فقـال: "أُحِـلّ لَكـمُ الطَّيِّبَاتُ" فسمَّى صيدَها طيّباً، ثم قال: "وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَــوارِحِ

مُكَلِّبِينَ" مخبراً عنْ قَبولها للتعليم والتأديب، ثم قال: "مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّه" ولولا أنَّ ذلك البابَ من التعليمِ والعلمِ مَرْضيٌّ عند اللَّه عزَّ وجلّ، لَمَا أضافه إلى نفسه، ثم قال: "فَكلُوا ممَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكمْ وَاذْكُروا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ" فأوَّلُ شيءٍ يعظُم به في عينك إمساكُه عليك، وهكذا يقول أَصحابُ الصَّيد، إنَّ كلَّ صائدٍ فإنَّما يُمسِك على نفسه إلاّ الكلبَ فإنّهُ يُمسك على صاحبه، ولو كان الجوابُ لزيد الخيل سُنَّةً من سُننَ النبي صلى اللَّه عليه وسلم لَكانَ في ذلك الرِّفعةُ، فكيفَ والكتابُ فوقَ السُّنّة، وقد روى هشام أنّ ابنَ عبَّاس سمَّى كِلابَ ذَريحٍ هذه وكلابَ أبي دُجانة فقال: المختلِس، وغلاَّب، والقَنيص، وسَلهب، وسِرْحان، والمتعاطِس.

دواء الذبحة والخانوق وزعم الأطبَّاء أنَّ من أجودِ أدويَةِ الذُّبحة والخانوق أنْ ينفح في حلق مَن كان ذلك به، ما جَفّ من رَجيع الكلاب، وأجودُ ذلك أنْ يكون يتغرغر به وربَّما طلوْه على جلد المحموم الحديدِ الحُمَّى.

رجيع الكلاب

وأجود رجيع الكلابِ أنْ يشتدّ بياضـهُ، وليـس يعـتريه البَيـاضُ إلاّ عن أكْل الطعام، وذلك رديءٌ للقانص منها. والجعـور قـد تـبيَضُّ إذا كان قوتُ صاحبها اللبن، ولذلك قال أبو كلاب وهو ابن لسان الحمَّرة ومرَّ به رجلٌ من بني أسد فقـال: قـد علمـت العـربُ يـا معشَرَ بني أسدٍ أنّكم أشدُّها بَياضَ جُعـور، فعكـفَ عليـه فضـرَبه بالسيف حتى بَرَد، وذلك أنّـه عيّـره بـأنّهم لا يعرفـون البَقْـل، ولا يعرفون إلاّ اللبن، وقال الشاعرُ يهجو ناساً منهم:

عَراجِلةٌ بيضُ الجُعُورِ كأنّـهم ... تَعَرَّجَ الغِيطَانِ شُهْبُ العَنَاكِبِ

والعرب تقول: اللّحم أقلُّ الطّعامِ بَخَراً

دفاع عن الكلب

وقال صـاحب الكلـب: ومـا للـدِّيك وللكلاب، والكلابُ ينـزَّل فيهـا القرآنُ وُيحْدَث فيها السنن، ويُشتقُّ من أسمائها للنَّـاس وللأُسـد، ولها أسماءٌ معروفةٌ وأعراق منسوبة، وبُلـدان مشـهورة، وألقَـابٌ وسِماَت، ومناقِبُ ومقَامات وما للدِّيك إلاّ ما تقول العوام: إنّـه إذا كان في الدارِ ديكٌ أبيض أفرَق لـم يـدخله شـيطان، وليـس يقـومُ خَيْر ذلك، ولو كان ذلك حقًّا، بشؤمه؛ لأنَّ العوامَّ تقضي علـى مَـن

كـــــان فـــــي داره ديـــــكٌ أَبيـــــض أفـــــرق بالزندقـــــة. والـذين يقولـون إنّ الـدار إذا كـان فيهـا ديـكٌ أفـرقُ لـم يـدخُلْها شيطان، هم الذين يقولون مَنْ أكلَ لحـم سِـنّورٍ أسـودَ لـم يَضِـرْه سـحر، وإذا دُخِّنـت الـدار بالدُّخنـة الـتي سـمّوها بدُخنـة مريـم، أو باللُّبان، لم يكنْ عليها لعُمَّار الدَّار سبيل، فإن مَرَّت سـاحرة تطيـر سقَطت، وهم الـذين لا يشـكُّون أنّ مَـن نـام بيـن البـابَين تخبَّطَـه العُمَّارُ وخَبَلته الجنّ

ما يقال له: جرو

قال: ويقال لولد الكلب والذِّئبِ والسِّنَّور أشباه ذلك: جرو، ويقـال للصـغير مـن الحنْظـل علـى مِثل ذلك: جرو، وقَال النَّمِرُ بنُ تَوْلب:

يُلقَّى في سِقـاءٍ كـأنّـه مِنَ الَحنْظَل العامِيِّ جَرْوٌ مفلَّقُ.

من قول الكلب

وممَّا زادَ في ذِكْر الكلب قولُ السَّيِّد بن محمد في شأن عائشة في الحـديث الـذي رَوَوه وكـان السّيِّد رافضِيًّا غالياً، وليس في ذكره شرَف، ولكنّه أجمعُ للفنّ:

من البَلَدِ الحرَامِ فنبَّهـتْ الهُدُوِّ كِلابَ أَهْلِ الحوْءَبِ

قال: ويقال صرَفت الكلبة صِرَافاً وصُروفاً، وظَلَعت تظلَع ظُلُوعاً

قولهم: لا أفعل حتى ينام ظالع الكلاب

كتاب الحيوان
الجاحظ

قال: ومن الأمثال في ذلك: لا أفعَلُ حتَّى يَنامَ ظالِعُ الكلاب، قال الأصمعيُّ: هذا باطل، إنّما ذلك إذا أصابَ الكلبَ ما يظلَع منه لم يُطِق سِفاد الكلبة حتَّى تهدأ الرِّجْل، وحتَّى تملَّ الكلابُ النُّباح وتَفترِقَ، وتحتاج إلى النَّوم لطول التعب، وإذا كان في ذلك الوقت يلتمس الظالع ورامَ سِفاد الكلبة، لم يعرف ظَلَعه إلاّ الكلبة، وأنشد فقال:

تسدَّيتُها مِنْ بَعْدِ ما نام ظالِعُ الكِلابِ وأخْبَى نارَه كلُّ مُوقِد

وأنشد غيرهَ لجِرَان العَوْدِ:

فُؤادي قدْ صَحَا ثمَّ هاجَهمائمُ وُرْقٌ بالَمدَائنِ هُتَّفُ
الهديلَ الظّالِعَ الرِّجْل البغْي شِرِّيبٌ يُغَرِّدُ مُنْرَفُ
وَسْطَهَا

ما قيل من الشعر في إشلاء الكلب على الضيوف وقالوا أبياتاً في غير هذا الباب، قال الأعرابيّ:

بعَبّاد فأشلَى كلابَه عَلينا فكِدْنَا بين بابَيهِ نُؤْكَلُ
لأصحابي أُسرُّ إليهمُ اليَومُ أو يومُ القِيامة أطولُ

وقال آخر:

للضِّيفانِ كلباً ضارياً وفضلَ هِراوَة مِنْ أَرْزَنِ

وقال في خلاف ذلك مالكُ بن حَريم الهمْدانيُّ:

وواحدةٌ إلاّ أبيتَ بغرَّةٍ سَوَامُ الحيِّ بات مصرَّعا
ألاَّ تفزَّع جَارتي كان جَارُ القوم فيهم مفزَّعا
أَلاَّ أُصمِّتَ كلبَنا نزَل الأضيافُ حِرصاً لتُوزَعا

استطراد لغوي قال: ويقال لَحِزَ الكلبُ الإناءَ، فهو يلحَزه لَحزاً، ولحسَه فهو يلحَسه لحساً، قال أبو يزيد: وذلك إذا لحِس الإناءَ من باطنه، والقَرْو: مِيلَغة الكلب، فإذا كان للكلب فإنَّما هو من أسفَل كُوزٍ أو ما أشبه ذلك، وإلاَّ فالقَرْوُ أسفلُ نخلةٍ يُنْجَر ويقَوَّب

ويُنْتَبَـــــــــــــــــذُ فيــــــــــــــــــــــــه.

وقال الأعشى:

بها البِيدَ إذا أعرَضَتْ وأنتَ بينَ القَرْوِ والعاصِرِ
مِجْدَلِ شُيِّد بُـنْـيَانُـهُ يزِلّ عنْه ظُفرُ الـطَّـائر

أحجيَّة في الكلب وممَّا يُحاجي به النَّاسُ بعضُهم بعضاً أن يقولـوا: أتعرفـون شـيئاً إذا قـام كـان أقصرَ منه إذا قعد؟ يريدون الكلب، لأنَّ الكلب قعودُه إقعاؤه، وهو إذا أقعَى كـان أرفَـع لسَـمْكه، وأرفعَ في الهواء طولاً منه إذا قام، وقال عمر بن لجأ:

حِنْوا قَتَبٍ مسـتـقـدم كإقعاء الكليبِ المعصِمِ

ويقال أقعى الكلبُ إقعاء، ولا يقال قعد ولا جلس، وفي الحديث: أنَّه نَهى أنْ يُقْعِيَ أحـدُهم فـي الصلاة إقعاءَ الكلب.

سنّ الكَلْبِ

قال صاحب الكلب: يُعرَف فَتاء الكلب وهَرمُـهُ بالأسـنان، فـإذا كـانت سـوداء كـانت دليلاً علـى كـبره، وإذا كـانت بِيضـاً حـادّة دلَّـت علـى الفتـاء والحداثـة، وقـال: أسـنان الـذَّكر أكـثر. أصناف الحيوان المشقوقة الأفواه وأصناف الحيوانِ المشقوقةُ الأفـواه كـالكلب والأسـد والفهْـدِ موصُوفاتٌ بشدَّة المماضيغ والفكّ والخراطيم، كالكلب والخنزير والـذئب، فأشَـبهَ الكلـبُ الأسـدَ في شَحْو الفم واتِّساعه، وعلى أنَّ شَحْو فمه على مقدار جسـمه، وأشـبَه الـذِّئبَ والخنزيـرَ فـي طول الخَطم وامتداد الخُرطوم، ولذلك كان شـديدَ القلـب، جيِّـدَ الاسـترواح، فجمـع الكلـب دون هذه الأصناف ما يصلُح للرضِّ والحطم، كما جمع ما يصلُح للابتلاع والالتهام والحطـم والاسـتمراء بعض ما قيل في الأسد والأسد حريصُ واسع الشَّحْو، فهو يبتلع البَضْعَةَ التي لو رآها الإنسـان لـم يظنَّ أنَّ حلقَه يتَّسع لمرورِ ذلك، ويقال إنّ عنقَه عظمٌ واحد واللُّقَم لا تجول فيه، وهـو فـي ذلـك قليلُ الرِّيق، فلا يسلُس في حلْقه ما يمرّ فيه، بل يبتلع لفـرْط نَهمـه وشـحْوِ لَحييـه ضِـعفَي ذلـك المقدار، وقد زعم ناسٌ أنّ الذي يدلُّ على أنَّ عنقَ السبُع عظمٌ واحدٍ، ضعفُه عن تصريفه عنقَه، فلا يلتفت إلاَّ معاً، فيسمَّى الأصيد، وقال جِران العَوْدِ في الذئب:

المماضغَ منه كلَّ مُلْتَـفَـتٍوفي الذِّراعين والخُرطومِ

تسهيلُ

وقالوا في أسنان الذئب وفي أسنان بعض الحيَّاتِ بأنَّها مَمطُولة فـي الفكّيـن، يُـذْهَبُ إلـى أنّـه عظمٌ مخلوق في الفك، وأنّه لا يُثْغِر، وأنشدوا:

في اللَّحْيينِ مَطلاً إلى رأسٍ وأشداقٍ رحـيبـاتِ

والحيَّاتُ توصَف بسعة الأَشداق، والأفاعي خاصَّة هي المنعوتة بذلك، وقال الشاعر وهو جَاهلي:

لَهَازِمُهُ عِـزِينَ وَرأسُـهُ كالقُرص فُلطحَ من طحِينِ شَعِيرِ
عَيناً للـوِقـاع كـأنـهـاسمراءُ طاحت من نَفِيضِ بَرير
شِدقيه إذا استعـرضـتَثِمْقَا عَجُوزٍ مَضْمضَتْ لطَهورِ

مما أشبه فيه الكلبُ الإنسان والأسد

وممَّا أشبَه فيه الكلبُ الإنسـان والأسـد، أنّ كـلّ واحـدِ مـن هـذه الأجناسِ إنَّمـا لـه بطـنٌ واحـد، وبعـدَ البطـن المِعَـى، إلا أنَّ بعـضَ بطنها أعظمُ من بعض، ويناسبها في الـذي ذكرنـا الـذئبُ والـدُّبّ، فما أكثَرَ ما يناسـبان الكلـب، فلـذلك صـارا يتناكحـان ويتلاقحـان، وهذا قول صاحب المنطق، قال: وأمعاء الكلب أشبهُ شيءٍ بأمعاء الحيَّة، وهذا أيضاً مما يزيدُ في قدره، لأنّه إمّـا أن يشـبه الإنسـان، وإمَّا أنْ يشبِه رؤساء السباع ودواهي الحشرات، وكلَّما كانت هذه المعاني فيه أكثر كان قدره أكبر ما يحتلم من الحيوان ومـا يحتلـم قال: والكلب يحلـمُ ويحتلـم، وكـذلك الفـرس والحمـار، والصـبيُّ يحلم ولا يحتلم، والثَّور في هـذا كلـه كالصـبيّ، ويعـرف ذلـك فـي

الكلب إذا تفزَّعَ وأنعَظ، وزعم أنَّ الاحتلامَ قد عُوين من الفَرس والبِرذون والحمار بعض الأمور التناسلية لدى الحيوان. قالوا: وليس العِظال والتحام الفرجين إلاّ في الكلب والذئاب، ومَن أراد أن يُفَرِّق بينَ الكلاب إذا تعاظلَت وتسافدت رامَ أمْراً عسيراً. قالوا: والحيوان الذي يطاوِل عند السِّفاد معروف، مثل الكلب والذئب والعنكبوت والجمل، وإن لم يكن هناك التحام، وإذا أراد العنكبوت السفادَ جلَبت الأنثى بعض خيوطِ نسْجها من الوسط، فإذَا فعلت ذلك فعَل الذكَر مثلَ ذلك، فَلاَ يزالانِ يتدانيان حتى يتشابكا فيصير بطنُ الذَّكر قُبالَةَ بطنِ الأنثى، وذلكَ شَبيهٌ بعادات الضفادع.

وقال أبو الحسن عنْ بعض الأَعراب، قال: إذا هَجَم الرَّجلُ على الذّئب والذِّئبةِ وهما يتسافدان، وقد التحَمَ الفَرْجان، قتلَهما ذلك الهاجم عليهما كيف شاءَ، لأنَّهما قليلاً ما يُوجدَان كذلك، لأَنَّ الذئب وحشيٌّ جدًّا وشَهيٌّ جدّاً، صاحبُ قفرة وخلوة، وانفرادٍ وتباعد، وإذا أراد الذِّئبة توخَّى موضعاً من القِفار لا يطؤه الأَنيس، خوفاً على نفسه، وضنًّا بالذي يَجد في المطاولة منِ اللّذة. حديث أحمد بن المثنى وحدَّثني أحمد بن المثَنَّى قال: خرجتُ إلى

صحراء خوخ لجنايَةٍ جنيتها وخِفْتُ الطّلب، وأنا شابٌّ، إذْ عرض لي ذئب فكنْتُ كلّما دُرْت من شِقّ استدارَ بي، فـإذا دُرْت لـه دَارَ مـن خلْفي، وأنا وسْطَ بَرِّيّةٍ لا أجد مُعيناً إلاّ بشيء أسـند إليـه ظهْـري، وأصابَني الدُّوار، وأيقنْتُ بالهلَكة، فبينا أنَا كـذلك وقـد أصـابني مـا أصابني وذلك هو الذي أراده الذِّئبُ وقـدَّره إذا ذئبـةٌ قـد عرَضـت، وكان من الصُّنع وتـأخِير الأَجَـل أنَّ ذلـك كـان فـي زمـن اهتياجِهـا وتسافُدها، فلما عايَنها تركَني وقصَدَ نحوها، فمـا تَلَعْثَـمَ أنْ ركِبهـا، وقد كنتُ قرأتُ في بعض الكتب أنَّها تلتحم، فَفَوَّقت سهْمِي وهمـا ينظران إليّ، فلمَّا لم أرَ عندهما نكيراً حقَّقَ ذلك عندي ما كان في الكتاب من تلاحُمِهما، فَمشَيْت إليهما بسَيفي حتَّى قتلتهما.

لقاح الكلاب والخنازير

قال: ومما يُعَدُّ للكلاب أنَّها كثيراً ما تُلقحُ وتَلقَـح لحـال الـدِّفء أو الخِصب، والكلبُ والخنزير في ذلك سـواء، ولا يكـاد غيرُهمـا مـن الأصناف يتلاقح في ذلك الزمـان، فـالكلبُ كمـا تـرى ينـازع أيضـاً مواضـــع الإســـاءة والمحاســـن فـــي جميـــع الحيـــوان. أسوأ ما يكون الحيوان خلقاً قـال: وإنـاثُ الكلاب تصـعُب أخلاقُهـا

إذا كانَ لها جِراء، وكلُّ شيء له بَيضٌ أو جِراء أو فِـراخٌ فأسـوأُ مـا يكون خُلقاً وأنزقُ وأكثرُ ما يكـون أذًى وأعْـرَمُ إذا كـان كـذلك، إلاَّ إناث البقَر. والكلب كلما كان أسنَّ كانَ صوتُه أجهرَ وأغلظ.

تناسل الكلاب

قال: والكلب ينزو إذا تمَّت له ستَّةُ أشـهر، وربَّمـا كـان ذلـك منـه وهو ابن ثمانية أشهر، والكلبةُ الأنثى تحمِـل واحـداً وسـتين يومـاً، أطولَ ما يكون، ولا تضعُ قبل أن يتمّ لحملها ستُّون يوماً، ولا يبقـى الجرْو ولا يثربّى إذا قصَّر عن ذلك، والأنـثى تصـلح أن يُنـزَى عليهـا بعـــــــــــــــد سِـــــــــــــــتَّة أشـــــــــــــــهر.

ولد البكر من الحيوان والإنسـان والكلبـة والحِجْـر والمـرأةُ وغيـر ذلك، يكون أوَّلُ نِتاجها أصغرَ جُثّـة، وكـذلك البَيْـضُ إذا كـان بكـراً، وكذلك ما يخرج منه مـن فـرُّوج أو فـرخ بقيـة القـول فـي تناسـل الكلاب وذُكور الكلاب تَهيج قبل الإناث فـي السّـنّ، والإنـاث تهيـج قبلها في وقت حركتها، وكلما تأخَّر وقت الحدث إلى تمام الشَّباب كان أقوى لولـده، والكلابُ لا تريـد السِّـفاد عُمرهـا كلـه، بـل إلـى وقت معلوم، وهي تلقح إلـى أن تبلـغ ثمـانيَ عشـرة سـنة، وربمـا

انْتَدَرت الكلبة فبلغت العشـرين، والكلابُ أجنـاسٌ كـثيرة: الكلـب السلوقيُّ يَسفَد إذا كان ابن ثمانية أشهر، والأنثى تطلب ذلك قبل الثمانية، وذلك عند شـغُور الـذكر ببـوله، والكلبـة تحمِـل مـن نـزْوٍ واحد، وقد عرف ذلك الذين عرفوا الكلاب وحضروا ليعرفوا ذلـك، قال: والكلبة السَّلوقيَّة تحمِل سُـدْس السـنة سِـتِّين يومـاً، ورُبَّمـا زادت على ذلك يوماً أو يومين، والجرو إذا وُضع يكون أعمى اثنَـيْ عَشر يوماً ثمَّ يبصر، والكلبة تسفَد بعد وضعِها في الشـهر الثـاني، ولا تسفد قبل ذلك. ومن إنـاث الكلاب مـا تحمـل خُمـس السـنة، يعنى اثنين وسبعين يوماً، وإذا وضعت الجـراء تكـون عميـاءَ اثنيـن وعشرين يوماً. ومن أصناف الكلاب ما يحمـل رُبـع السـنة، أعنـي ثلاثة أشهر، وتضع جراء وتبقى كذلك سبعة عشر يوماً، ثـمَّ تُرضـع جِراءَها على عدد أيَّامِها التي لا تبصر فيها. وزعم أنَّ إنــاث الكلاب تحيضُ في كـلِّ سـبعة أيـام، وعلامـة ذلـك وَرَم أثفارِهـا، ولا تقبَـل السفاد في ذلك الوقت، بل في السبعة الـتي بعـدها ليكـون ذلـك تمامَ أربعَة عشرَ يوماً أكثرَ ما يكون، وربما كان كذلك لتمـام سـتَّةَ عشـــــــــــــــــــــــــرَ يومـــــــــــــــــــــــــاً.

قالوا: وإنَاث الكلاب تُلقي بَعْدَ وضْع الجِراءِ رُطوبَةً غليظةً بلغميَّـة،

وإذا وضَعتْها بعدَ الجِراء اعتراها هُزال، وكذلك عامَّة الإناث، ولبنها يظهَر في أطبائها قبل أن تضَعَ بخمسة أيام أكثر ذلـك، وربمـا كثُـر اللبنُ في أطبائها قبل ذلك بسبعة أيام، ورّبما كان ذلك في مقـدارِ أربعة أيام، ولبنها يظهَر ويجود إذا وَضَعَتْ من ساعتها، قـال: فأمَّـا السلوقيّة فيظهر لبنها بعد حملها بثلاثين يوماً، ويكون لبنُها أوَّلَ مـا تضعُ غليظاً، فإذا أزمن رقَّ ودقَّ، ولبـنُ الكلابِ يخـالف لبـن سـائرِ الحيـــوان بـــالغلظ، بعـــد لبـــن الخنـــازير والأرانـــب. وقد تكون علامة مبلغُ سِفادها مثلَ مَا يعـرِض للنِّس اءِ مـن ارتفـاع الثَّديين، ومعرفة ذلك عسيرة، وهذه علامَات تظهر لإنَـاث الكلاب، وذكورةُ الكلاب ترفع أرجلَها وتبول لتمام ستَّةِ أشـهر، ومنهـا مَـا لا يفعل ذلك إلى أن يبلغ ثمانية أشـهر، ومنهـا مَـا يعجِّـل قبـل ذلـك، قال: ونقـول بقـولٍ عـامٍّ إنَّ الـذكورَ تفعـلُ ذلـك إذا قـوِيت، فأمّـا الإنَاث فهي تبول مُقْعِية، ومنها مَا تشغَر، وأكثرُ ما تضعُ الكلبةُ اثنـا عَشَر جرواً، وذلك في الفَرْط، وأكثر ذلك الخمسة والسّتة، ورّبمـا وضعت وَاحداً، فأمَّا إناث السلوقَّية فهي تضعُ ثمانيةَ أجراء، وإنَاثُها وَذكورُها تسفَد ما بَقِيَتْ، وَيعرِض للكلاب السلوقيَّة عَـرَض خـاصٌّ: وَهي أنَّها كلَّما بقيت كانت أقوى على السِّفاد

أعمار الكلاب

وذكـورة السـلوقَّية تعيـش عشـرَ سـنين، والإنـاث تعيـش اثنـتي عشرة سنة، وَأكثر أجناس الكلاب تعيش أربعَ عشرة سنة، وَبعض الأجناس تبقى عشرين سنة. قـال: وإنـاث الكلاب أطـولُ أعمـاراً من الـذكور، وكـذلك هـي فـي الجملـة، وليـس يُلقـي الكلـب مـن أسنانه سنًّا ما خلا النَّابين، وإنَّما يلقيهما إذا كان ابنَ أربعـة أشـهر. قال: ومن أجْل أنَّ الكلابَ لا تُلِقي غيرَ هذين النَّـابين يشـكُّ بعـض الناس أنها لا تلقى سِنًّا البتّة

أمراض الكلاب

قال: وللكلاب ثلاثة أصنافٍ من المرض، وأسماؤها: الكلب بفتح اللام، والذبحَة، والنقرس، والكلَب جُنون، فإنْ عرَض لشيء مـن الحيوان كَلبٌ أيضاً أماته، ماخلا الإنسان، وهـو داءٌ يقتـل الكلاب، وتقتُـل بـه الكلابُ كـلَّ شـيء عضّـته، إلاّ الإنسـان فـإنّه يعالـج فيسْلَم، أدواء بعض الحيوان قـال: وداء الكلَـب يعـرِض للحمـار، فأمَّا الجنون وذَهابُ العقل فإنّه يصيبُ كلَّ شيء، فمن ذلـك مـا يصـيب الـدوابَّ، فـإنَّ منهـا مَـا يُصـرعَ كمـا يُصـرع المجنـون،

والســـــائس مـــــن الـــــدواب: الـــــذاهب العقـــــل.

صرع أعين الطبيب وقد كان شأن أَعين الطبيب عَجَباً، وذلك أنّه كان يُصرع، واتَّفق أَنّه كان له بغلٌ يصـرع، فكـان ربَّمـا اتّفـق أن يُصرَعا جميعاً وقد رأى ذلك كثير من أصـحابنا البصـريِّين الصَّـرْعُ عند الحيوان والصَّرْع عامٌّ في الحيوان، ليـس يسـلم منـه صِـنف منها حتَّى لا يعرض له منه شىء، والإنسان فوق جميـع الحيـوان تعذيباً، وكذلك هو في العقـل والمعرفـة والاحتيـال لـه، مـع دفـع المضرّة واجتلاب المنفعة، ومَا أكثر مَا يعتريهم ذلـك، ومـن ذلـك مَا يذهب، ومن ذلك ما لا يذهب بعض من عرض لهم الصرع من الفضلاء وقد كان بَخْتِيَشوعُ المتطبِّب عرَض لـه ذلـك، وقـد كـان عرض لعبد الملك بن قُريب فـذهب عنـه، ورَّبمـا عـرض للرّجـل الذي لا يُظَنُّ به ذلك فـي بيـان ولا تـبيين، ولا فـي أدبٍ، ولا فـي اعتدالٍ من الأخلاط، والصحَّةِ من المزَاج، ثُمَّ لا يعرض مـن ذلـك إلاَّ ما لا حيلةَ له فيه، كما كان يعرض لبِشـر بـن أبـي عمـرو بـن العلاء النحـويِّ المـازنيّ وكمـا عـرض لعبـد الرحمـن ومنصـور الأسدَّيين، فمـا زالا كـذلك حتَّـى ماتَـا، ولـم يبلغنـا أنهمـا صُـرِعا.

الموتَة والمُوتَة جنسٌ من الصَّـرْع، إلاَّ أَنَّ صـاحبَه إذا أفـاقَ عـاد

إلى كمال عقله كالنائم والسكران والمغشيِّ عليه، وإن عاش صاحبُ المُوتة في ذلك مائة عام. وليس يلقى شيءٌ من الحيوان في هذا الباب كما يلقَى الوَرَشان أختلاف درجات السُّكْر لدى الحيوان كتبيانها لدى الإنسان وأَمَّا السُّكْر فليس شيءٌ من الحيوان إلاَّ وهو يسكر، واختلاف سكره كاختلاف سكر الإنسان، فإنَّ من الناس مَن تراه يتحدَّث وهو يشرَب فلا تنكر منه شيئاً، حتَّى يغلب عليه نوم السُّكر ضربةً واحدة، ومنهم من تراه والنبيذ يأخذُ منه الأوَّلَ فالأوَّل، وتراه كيف تَثقُل حركتهُ، ويغلُظُ حسُّه ويتمحَّق، حتى يَطيش عليه السُّكرُ بالعبث، ويطبقَ عليه النوم، ومنهم مَن يأخذُه بالعَبث لا يعدُوه، ومنهم من لا يرضى بدون السَّيف، وإلا بأن يضرب أمَّه ويطلِّق امرأته، ومنهم مَن يعتريه البكاء، ومنهم مَن يعتريه الضَّحِك، ومنهم مَن يعتريه الملَق والتَّفدِيةُ، والتَّسليمُ على المجالس، والتَّقبيلُ لرؤوس الناس، ومِنهم من يرقصُ ويثِب، ويكون ذلك على ضربين: أحدهما من العَرْض وفضل الأشَر، والآخر تحريك المرارة، وهي علَّةُ الفساد وهيَجان الآفة.

وكلُّ هذه الحالات والصّور، والنعوت، والأجناس، والتوليد، الذي

يختلف في طبائع الناس، وطبائع الأشربة، وطبائع البُلدان والأزمان والأَسنان، وعلى قدر الأَعراق والأَخلاق، وعلى قدر القلَّة والكثرة، وعلى قدر التصريف والتوفيق، قد وجدوه في جميع أصناف الناس والحيوان، إلاَّ أَنَّ في الناس واحدةً لم تُوجَد في سائر الحيوان قطُّ، فإنَّ في الناس من لا يسْكَر البتّة، كان محمد بن الجهم وأبو عبد اللَّه العَمِّيُّ، وكان بين عقل زبيد بن حُميد إذا شرب عشْرة أرطال، وبين عقله إذا ابتدأ الشرب، مقدارٌ صالح.

سكْرُ العمّيّ وإمَّا العَمّيّ فإنَّ بني عبد الملك الزياديِّين دعَوني مرَّةً ليعَجِّبوني منه، ولم ينبِّهوني على هذه الخاصَّة التي فيه، لأكون أنا الذي أنتبه عليه، فدخلت على رجلٍ ضخمٍ فَدْم غليظ اللسان، غليظِ المعاني، عليه من الكلام أشل المؤنة، وفي معانيه اختلافٌ، ليس منها شيٌ يواتي صاحبَه ولا يعاونُه ولا يشاركُه ولا يناسبه، وحتَّى ترى أنَّ أذنه في شِقٍّ ولسانَه في شقٍّ، وحتَّى تظنَّ أنّ كلامه كلامُ محمومٍ أو مجنون، وأنَّ كلَّ واحد منهما يقطع نظام المعاني، ويخلط بين الأسافل والأعالي، فشرب القوم شُربَ الهيم، وكانت لهم أجسادٌ مدْبرة، وأجوافٌ

منكَرة، وكنتُ كأنِّي رجلٌ من النَّظَّـارة، فمـا زال العمِّـي يشـرَب رِطلاً، ويرقُّ لسانُه، وينحلُّ عَقْده، ويصفو ذهنُـهُ، ويـذهب كـدره، ولو قُلْتُ إنِّي لم أرَ مثلَه حُسْنَ نفسٍ كنتُ صـادقاً، فـالتفت إلـيَّ القومُ أجمعُهم فقالوا: لـولا هـذا العَجَـب مَـا عَجَّبْنَـاك اليـوم َمـعَ حداثـــــــــــــــةِ عهـــــــــــــــدنا بـــــــــــــــك.

وزعم العمِّيُّ وكان كثيرَ المنازَعة عند القضاة، أنَّه كان إذا قارب العشرةَ الأرطالِ ثمّ نَازَعَ الخصومَ، كان ذلك اليـومُ الـذي يفـوت فيـه ذَرْعَ الخصـوم لِلَحَـنٍ بحجَّتـه، ويسـتميل فيـه رأيَ القاضـي المنعقد في مجلسه الطويل، القطوبِ في وجْهِ مَـن نـازع إليـه، وقال الشاعر:

أقلَّ النَّاس عقلاً إذا أقلَّهُمُ عقلاً إذا كـانَ صـاحِـيا
حُسَى الكاس السَّفِيهَ وتَتْرُكُ أخْلاَقَ الرِّجالِ كما هِيا

قال: وهذا شعر بعضِ المولَّدين، والأعاريبُ لا تُخطئ هذا الخطـأ؛ قد رأينا أسْفَهَ الناس صاحياً أحلم النـاس سـكران؛ وهـو مِـرداسٌ صاحب زهير، ورأينا أحسنَ النَّاس خُلقـاً وأوزنَهـم حلمـاً، حتَّـى إذا صار في رأسه رِطلٌ كان أخفَّ من فَرَاشة، وأكثرَ نزواً من جَـرادةٍ

رَمِضــــــــــة، فـــــــإنَّ المثَـــــــــلَ بهـــــــــا يُضـــــــــرَب.

سبب مَا له عرَفَ المعتزلة سكرَ البهائم وكان سببُ ما لَهُ عــرَف أصحابُنا سكْر البهائم، أنَّ محمَّدَ بنَ عليِّ بنِ سليمانَ الهاشميَّ لمَّا شرب على علُّويه كلب المطبخ، وعلـى الـدُّهمان، وعلـى شُـرَّاب البصـريِّين، وعلـى كُـلِّ مـن نـزَع إليـه مـن الأقطـار، وتحـدَّاه مـن الشرَّاب الجَوَادِّ مـن الشُّـرَّاب، أحَـبَّ أن يشْـرَب علـى الإبـل مـن البَخاتيِّ والعِراب، ثُمَّ عَلَى الظِّلف من الجواميس والبقر، ثم على الخيل العِتاق والبَرَاذين، فلمّا فـرَغ مـن كـلِّ عظيـمِ الجثـة واسـع الجُفْرَة، صار إلى الشاء والظِّبـاء، ثـمّ صـار إلـى النُّسـور والكلـب وإلى ابن عِرس، وحتَّى أتَاهم حاوٍ فـأرغبوه، فكـان يحتـال لأفـواه الحيَّــات حتَّــى يصــبَّ فــي حــاقِّ أجوافِهــا بالأقمــاع المدنيّــة، وبالمَسَاعط، ويتَّخذ لكلِّ شيء شكله، وكان ملكـاً تـواتيه الأمـور، وتُطيعـه الرجـال، فأَبصَـرُوا تلـك الاختلافـاتِ فـي هـذه الأجنـاس المختلفـــة.

نعت النّظام فخبّرني أبو إسحاقَ إبراهيمُ النَّظام، وقد كان جالسَـهُ حيناً وكان إبراهيمُ مأمونَ اللِّسان، قَلِيـلَ الزَّلَـل والزَّيـغ فـي بـاب الصدق والكذب، ولم أزعم أنَّه قَلِيلُ الزَّيغ والزَّلَل على أَنَّ ذلك قد

كان يكونُ منه وإن كان قليلاً، بلْ إنَّما قُلتُ عَلَى مثل قولـك: فلاَنٌ قَلِيل الحياء، وأنتَ لستَ تريد هناك حيـاءً البتـة، وذلـك أنَّهـم ربَّمـا وَضعوا القليلَ في موضعِ ليس، وَإنمـا كـان عيبُـهُ الـذي لا يفـارقه سوءَ ظنِّهِ، وجَودةَ قياسِهِ عَلَى العارض والخاطر والسابق الـذي لا يُوثَق بمثله، فلو كان بدَلَ تصحيحِه القياسَ التمَسَ تصحيحَ الأصـل الذي كان قاس عليـه أمـرَه علـى الخلاص، ولكنَّـه كـان يظـنُّ ثـمَّ يقيس عليه وينسى أنَّ بدءَ أمرِه كان ظَنّاً فإذا أتقـنَ ذلـك وأيقـنَ، جَزَم عليهِ، وحكاهُ عن صاحبه حكايَةَ المستبصر في صـحَّة معنـاه، ولكنّه كان لا يقول سمعت، ولا رأيت، وكان كلامُه إذا خرج مخـرج الشَّهادةِ القاطعة لم يشُكَّ السامعُ أنَّه إنَّما حكى ذلـك عـن سـماعٍ قـــــد امتحنـــــه، أو عـــــن معاينـــــةٍ قـــــد بهرتـــــه.

حديث البهائم في تجربة إسكار البهائم والسباع فحـدَّثني إبراهيـمُ قـال: شـهدتُ أكـثرَ هـذه التَّجربـةِ الـتي كـانت منهـم فـي إسـكار البهائمِ وَأصنافِ السباع، ولَقَد احتالَ لأسـد مقلَّـم الأَظفـار يُنـادى عليه: العجَب العجَب حتَّى سقَاه وعـرَف مقـدارَه فـي الاحتمـال، فزعمَ، أنّه لم يجِدْ فـي جميـعِ الحيـوان أملـحَ سُـكْراً مـن الظَّـبي، ولولا أنَّه من الترفُّه لَكنتُ لا يزال عندي الظَّبيُ حتَّى أسكِره وَأرى

طرائـــــــــــفَ مـــــــــــا يكـــــــــــون منـــــــــــه.

القول في سرعة التعليم والجرأة عند بعض الحيوان قـال: وإنـاث الكلاب السوقية أسرع تعلماً من الـذكورة، قـال: وجميـع أصـناف السباع ذُكُورتُها أجرأُ وَأمضى وأقوى، إلاَّ الفَهْدة والذِّيبَةَ، والعامَّــة تزعم أنَّ اللَّبُؤة أجرَأُ من الأسـد، وليـس ذل ك بشـيء، وهـو أنـزَقُ وأَحَدُّ، وأفرَقُ من الهَجْهجَة، وأبعَدُ من التصميم وشدَّة الصَّولة.

بين عروة بن مرثد وكلب حسبه لصّاً

قال بِشر بن سعيد: كان بالبَصرة شيخٌ من بنـي نَهشَـلٍ يقـال لـه عُروة بن مَرْثد، نزل ببني أختٍ له في سكَّة بني مازن، وبنـو أختـه من قُريش، فخرج رجالُهم إلى ضياعهم وذلك في شـهرِ رمضـان، وبقِيت النِّساءُ يصلِّين في مسجدهم، فلم يبق فـي الـدار إلاّ كلـب يعُسُّ، فـرأى بيتـاً فـدخل وانصـفق البـاب، فسـمِع الحركـةَ بعـضُ الإماءِ فظَّنوا أنَّ لصّاً دخل الدار فذهبتْ إحـداهنَّ إلـى أبـي الأعـزّ، وليس في الحيِّ رجلٌ غيره، فأخبرتْهُ فقـال أبـو الأعـزِّ: مـا يبتغـي اللصُّ مِنَّا? ثمَّ أخذَ عصاهُ وجاء حتَّى وقفَ على بابِ الـبيت فقـال: إيه يا مَلأَمَان أَما واللهِ إنَّك بي لعَارف، وإنِّي بك أيضاً لعارف، فهل

أنتَ إلا من لُصوصِ بني مازن، شرِبتَ حامضاً خبيثاً، حتَّى إذا دارت الأقداحُ في رأسك منَّتْك نفسُك الأمانيَّ، وقلتَ دُورَ بني عمرو، والرِّجالُ خُلوف، والنِّساء يصلِّين في مسجدهنَّ، فأسرقهنَّ سَوءَةٌ واللهِ، ما يفعل هذا الأحرارُ لبئْسَ واللهِ ما منَّتك نفسُكَ فاخرجْ وإلاَّ دخلتُ عليك فَصَرَمَتْك منِّي العُقوبة لايمُ اللهِ لتَخرُجَنَّ أو لأهتفَنّ هتْفةً مشؤومةً عليك، يلتقي فيها الحيَّانِ: عمرو وحنظلة، ويصيرُ أمرُك إلى تال، ويجيء سعْدٌ بعَدَدِ الحصى، ويَسيل عليك الرِّجالُ من هاهنا وهاهنا ولئن فعلتَ لتكونَنَّ أشأمَ مولودٍ في بني تميم فلما رأى أنَّه لا يجيبُه أخَذَهُ باللِّين وقال: اخرجْ يا بُنَيَّ وأنتَ مستور، إنِّي والله ما أُرَاك تعرفُني، ولو عرفتَني لقد قنِعتَ بقولي واطمأننت إليَّ، أنا عُروة بن مَرثد أبو الأَعزِّ المَرثَدِيُّ، وأنا خالُ القومِ وجِلدةُ ما بين أعينهم لا يعصُونَني في أمر، وأنا لك بالذِّمة كفيلٌ خفير، أصيِّرك بين شحمةِ أذني وعاتقي لا تُضارّ، فاخرج فأنتَ في ذِمَّتي، وإلا فإنَّ عندي قَوْصرَّتَين إحداهما إلى ابن أختي البارّ الوَصُول، فخذْ إحداهما فانتَبِذْها حلالاً من الله تعالى ورسولِهِ صلى الله عليه وسلم، وكان الكلبُ إذا سمعَ الكلامَ أطرقَ، وإذا سكت وثَب يُريغُ

المخرج، فتهافت الأعرابيُّ، أيْ تساقط، ثمَّ قال: يا ألأمَ الناسِ وأوضَعَهم، أَلا يأْني لك أنَّا منذُ الليلة في وادٍ وأنتَ في آخر، إذا قلتُ لك السَّوداءَ والبيضاء تسكتُ وتطرِق، فإذا سكتُّ عنكَ تَريغُ المخرج? والله لتخرُجَنَّ بالعَفو عنك أو لألجَنَّ عليك البيت بالعُقوبة فلما طال وقوفُه جَاءَتْ جَارِيةٌ من إماء الحيِّ فقالت: أعرابيٌّ مجنون والله ما أرى في البيتِ شيئاً ودفعت البابَ فخرج الكلبُ شدّاً، وحادَ عنه أبو الأعزّ مستلقياً، وقال: الحمدُ لله الذي مَسَخك كلباً، وكفاني منك حرباً ثم قال: تالله ما رأيتُ كاللَّيلةِ، ما أُراه إلاّ كلباً أمَا والله لو علمتُ بحالِه لولَجت عليه.

بعض خصال الديك

قال صاحب الديك: في الدِّيك الشّجاعَةُ، وفي الديك الصّبرُ عند اللِّقاء، وهم لا يجدون الصَّبرَ تحت السِّياط والعصا، إلاّ أنْ يكون ذلك موصولاً بالصَّبر في الحرب على وقع السِّلاح، وفي الدِّيَك الجَوَلان، وهو ضرب من الرَّوَغان، وجنسٌ من تدبير الحرب، وفيه الثَّقافةُ والتسديد؛ وذلك أنَّه يقدِّر إيقاع صِيصِيَتِه بعين الديك الآخر ويتقرَّب إلى المذبح فلا يخطئ، وهم يتعجَّبون من الجَزَّار،

ويضرِبون به المثل إذْ كان لايخطئْ اللَّبَّة، ومن اللحَّام إذا كـان لا يخطئ المَفْصِل، ولذلك قالوا في المثل: يطبِّق المحَزَّ ولايخْطئ المَفْصِل، وهذا القـولُ يـذمُّون بـه ويَمْـدحون، والـديك فـي ذلـك أعجبُ، ولـه مـع الطَّعنـة سـرعة الوَثْبـة، والارتفـاع فـي الهـواء، وسلاحه طَرِير، وفي موضع عجيب، وليس ذلك إلاّ له، وبه سمَّى قَرْن الثور صِيصِيَة، ثم سمَّوا الآطام التي كانت بالمدينة للامتناع بها مـن الأعـداء صياصِـيَ، قـال اللّـه عـزَّ وجـلَّ: "وَأَنْـزَلَ الَّـذِينَ ظـاهَرُوهُمْ مِـنْ أَهْـلِ الْكِتَـابِ مِـنْ صَيَاصِـيهِمْ"، والعَـرَبُ تسـمِّي الدَّارع وذا الجُنَّة صاحبَ سلاح، فلما كان اسم سلاح الـديك ومـا يمتنع به صِيصِيَة، سمَّوا قرنَ الثور الـذي يجْـرَح صيصِـيَة، وَعلـى أنّه يشبَّه في صورته بصيصِـية الـديك وإن كـان أعظـم، ثـمَّ لمَّـا وجـدوا تلـك الآطـامَ معـاقِلهم وحصـونَهم وجُنّتَهـم، وكـانت فـي مجـرى التُّـرس والـدرع والبَيضـة، أجروهـا مُجْـرَى السـلاح، ثـم سمَّوها صياصي، ثمَّ أسمَوْا شوكةَ الحائك التي بهـا تهيَّـأُ السَّـدَاة واللُّحمة صِيصِيةً إذْ كـانت مشـبَّهة بهـا فـي الصـورة، وإنْ كـانت أطولَ شيئاً؛ ولأنَّها مانعةٌ من فساد الحَـوْك والغَـزْل؛ ولأنَّهـا فـي

يده كالسلاح، متى شاءَ أن يجأ بها إنساناً وجأه به، وقال دُريد بن الصِّمَّة:

إلَيْهِ والرِّمَـاحُ تَـنُـوشُـهُ كَوَقْع الصَّياصِي في النَّسيجِ المُمَدَّدِ

استطراد لغوي

وقد تسمِّي العربُ إبرة العقرب شوكة، كما تسمِّي صيصِيَة الديك شوكة، وهي من هـذا الـوجه شبيهةٌ بشَوك النَّخل، ويقال لمن ضربته الحُمْـرة، قـدْ ضـربته الشَّـوكة؛ لأنَّ الشَّـوكةَ إذا ضـربت إنساناً، فما أكثرَ ما تعتريه من ذلك الحمرةُ، وقد قال القَطاميُّ في تسمية إبرة العقرب شَوكة:

في جَليدِ الأرْضِ حتَّى بالأطراف شوك العَقاربِ

وتُوصف الحِجْر وتشبَّه بالشَّوكة؛ لأَنَّ الشَّوكة غليظةُ المآخِر، لطيفة المَقادم، والشَّوكُ والسُّـلاّءُ سواءٌ، وقال في ذلك عَلْقمة بن عَبدة يصف الحِجْر:

كعَصَا النَّهْدِيِّ غُلَّ لها فَيئةٍ مِنْ نَوَى قُرّان مَعْجومُ

ومن سمَّى إبرة العقرب حُمَة فقـد أخطـأ، وإنَّمـا الحُمـة سـمومُ ذواتِ الشعر كالدَّبْر والزَّنَابير، وذوَات الأنياب والأَسنان كالأفــاعي وسائر الحيات، وسموم ذوَاتِ الإبر من العقارب، فأمّا البِيشُ ومـا أشبهه من السُّموم، فليس يقال له حُمَة، وها هنا أمور لها سـمومٌ في خراطيمها، كالـذِّبَّان والبَعـوض وأشـياءُ مـن الحشـرات تَعـضُّ وربَّمـا قتلـت، كالشّـبَث وسـامِّ أبـرَصَ، والطُّبُّـوعُ شـديد الأذى، والرُّتَيْلاء ربما قتلـت، والضَّـمج دون ذلـك، وعقـارب طيَّـارةٌ: ولـم

نرهم يسمُّون جميع السُّموم بالحُمة، فقلْنا مثل ما قـالوا، وانتهينـا إلى حيثُ انتهوا.

بعض من تقتل عضته

وقد يُعرفُ بعضُ النّاس بأنّه متى عضّ قَتَـل، كـان منهـم صـفوان أبو جشَم الثّقَفيّ، وداودُ القَرَّاد، وسـيقَع هـذا البـابُ فـي موضـعه على ما يمكننا إن شاء الله تعالى.

استطراد لغوي

والناس يسمُّون الرَّجلَ إذا بلغ مِـنْ حرصـه ألاّ يـدعِ ذكـراً، غلامَـاً كان أو رجلاً، وخَصيّاً كان أو فحلاً، إلاّ نكحه مِن فَرْط غُلْمته، ومـن قوّة فِحلَتِه: صِيصِيَة، ويقولون: مـا فلانٌ إلا صِيصـيَة، وهـو عنـدهم اسمٌ لمن اشتدَّ لِواطه؛ تشبيهاِ منهم بصيصِـية الـديك فـي الحـدَّة والصَّلابة.

بعض مزايا الديك

وللـديك انتصـابُهُ إذا قـام، ومبـاينتُه صـورَةً فـي العيـن لصُـورة الدجاجة، وليس هذا الفرقُ الواضـحُ مـن جميـعِ الإنـاث والـذكور

موجـوداً إلاّ فيـه، وليـس ذلـك للحمـام والحمامـة، ولا للحمـار والحمارة، ولا للبِرذَون والرَّمَكة ولا للفرس والحِجْـر، ولا للجمَـل والنَّاقة؛ وليـس ذلـك إلاّ لهـذه الفحولـة لأنّهـا كالرَّجـل والمـرأة، والتَّيس والظبية، والدِّيك والدَّجَاجة وكَالفُحَّال والنخلة المطعمـة، ألا ترى أنّك لو رأيتَ ناقةً مقبلة لم تدر أنَاقة هي أم جمل، حـتى تنظر إلى موضع الثِّيل والضّرْع، وإلى موضع الحيا، وكذلك العنز، وكـذلك جميـع مـا وصـفت، إلاّ أن يـدّعوا أن للعامـة أو لبعـض الخاصة في ذلك خصوصيَّة، ولذلك ضربوا المثل بالتّيس والنخلة والفُحّال، فاشتقوا من هذا الفحل، وهذا أيضاً من خصال الـدِّيك، ثُمَّ للديك لحية ظـاهرة، وليسـت تكـون اللِّحـى إلاّ للجمـل فـإنّه يوصـف بـالعثنون، وإلاّ للتَّيـس وإلاّ للرَّجـل، وقـال الرَّاجـز فـي الجمل:

العُثنونِ كالتّيسِ الأَحَـمّسامٍ كـأنّ رأسَـه فـيه وَذم
من قطرَيه هياج قَطِم

ثمَّ الديك بعدُ صاحب اللِّحية والفَرَق، وقالت امرأة في ولدها وزوجها:

ذِي رَأسٍ كرأسِ الديكِ

أمّا قولها أشهب، فإنَّها تريد أنّ شعرَ جسده قد ابيضَّ مـن الكِبَـر، وإنَّما جعلتْ شعرَ رأسهِ كرأس الديك لأنّه كـان مخضـوبَ الـرأس

واللِّحية بالحُمْرة، ثُمَّ لم ترضَ له بشبه الرجَال من هذا الوجه حتَّى جعلتْ رأْسه أفرقَ، وذلك شيءٌ من الجمال والوقار والفضل، لايتَهيَّأ للناس مع كمالهم وتمامهم إلاّ بالتكلف والاحتيال فيه، ثُمَّ يبلغ من شدّة تعجله ومن قوَّته على السِّفاد، وعلى الباب الذي يفخر به الإنسان إذا كان ذا حظٌ منه وهو ممّا يُذْكي النَّفس كنحو ما ذكر عن التّيس المراطيّ، وكنحو مَا تراهم يُبركون للبُخْتيّ الفالج عدّة قلاص، فإذا ضَرَب الأُولى فخافوا عليها أن يحطِمها وهو في ذلك قد رمى بِمائهِ مِراراً أفْلَته الرِّجَالُ على التي تليه في القرب، حتى يأتي على الثَّلاث والأربعِ على ذلك المثال، وما دعاهم إلى تحويله عن الثالثة إلى الرابعة إلاّ تخوفهم من العجز منه، وزعم أبو عبد الله الأبرص العَمِّيُّ، وكان من المعتزلين، أنّ التَّيس المراطي قرَع في أول يومٍ من أوَّل هَيْجِة نَيِّقاً وثمانين قَرعة، والنّاسُ يحكون ما يكون من العُصفور في الساعة الواحدةِ من العَدَد الكثير، والنّاس يُدخلون هذا الشكل في باب الفضْل، وفي باب شدَّة العجلة وتظاهرِ القوَّة، والديك يكون له وحدَه الدّجاج الكثيرُ، فيُوسِعها قمطاً وسفاداً، وقد قلنا في حالة البيض الكثير التُّرابي وقلبِه إيَّاه بسفادٍ إلى الحيوانيّة، وعلى أنّ الذي

يَخصيه إنَّما يُخرج له مـن بيـن الزِّمِكِّـي وموضِـع القطـاة بيضَـتين عظيمَـــــــــــــــــــــتين معروفـــــــــــــــــــــتين.

وأنا رأيتُ ديكاً هِنديّاً تسنَّم دَجَاجَة هِنديّة فلم يتمكَّنْ منها، فرأيــت نطفته حينَ مجَّها وقد زَلِق عن ظهرها علـى مَـدَرة، وكـانت الـدار مُثارَة لتُجعَل بُستاناً، فـإذا تلـك المجَّـة كالبَزْقـة البيصـاء، فأخـذها بعضُ مَن كان معنا فشـمَّها حيـن رأى بياضـها وخَثورتهـا وكـدرتها، ليعلم هل تناسب ريحُها ريحَ نُطفة الإنسـان، ورِيـحَ طَلَـع الفُحَّـال، فلـــــــــــــــم يجـــــــــــــــدْ ذلـــــــــــــــك.

ثـمَّ معرفـةُ الـدِّيك باللَّيـل وسـاعاته، وارتفـاقُ بنـي آدم بمعرِفتـه وصوته: يعرفُ آناء الليل وعـددَ الليـل وعـددَ السَّـاعات، ومقـاديرَ الأوقات، ثمَّ يقسِّط أصواتَه على ذلك تقسيطاً موزُوناً لا يُغادر منه شيئاً، ثـمَّ قـد علمنـا أنّ اللَّيـل إذا كـان خمـسَ عشْـرَةَ سـاعَة أنّـه يقسِّط أصواتَه المعروفةَ بالعَدد عليها، كما يقسـطها والليـل تسـعُ ساعات، ثمَّ يصنع فيما بين ذلـك مـن القسـمة وإعطـاء الحصـص على حساب ذلك، فليعلم الحكماءُ أنّـه فـوقَ الأَسـطرْلاب، وفـوق مقدار الجزْر والمدِّ على منازل القمر، وحتَّى كأنّ طبْعَه فَلكٌ على حِدَة، فجمَعَ المعرفةَ العجيبةَ والرِّعاية العجيبة. وربَّ معرفةٍ تكون

نبيلةً وأخرى لا تكون في طريق النَّبالة، وإنْ كانت المعـارفُ كلّهـا مفصّلة مقدّرة، إلاّ أنّهـا فـي منـازِلَ ومراتـب، وليـس فـي الأرض معرفةٌ بدقيقٍ ولا جليل وهي في نفسها شريفة كريمةٌ، والمعرفـةُ كلُّها بَصر، والجهْل كله عمًى، والعمى كلُّه شَيْنٌ ونقص، والاستبانة كلُّها خيرٌ وفضْل، ثمّ له بعد ذلك ارتفاق الناس بهذا المعنـى منـه، ومن ذلك بُعدْ صوته، وأنّه يدلُّ على أنّ موضـعَه مـأهُولٌ مـأنوس، ولذلك قالوا: لا يكون البُنْيان قريةً حتَّى يصـقَع فيهـا ديـك. وليـس في الأَرض طائر أَملح مِلحاً من فرُّوج، وليس ذلك الاسم إلاّ لولـد الديك، وإلاّ فكلُّ شيءٍ يخرج من البيض فإنَّمـا هـو فـرخ والفَـرُّوج حين تنصدِع عنه البَيضة، يخرج كاسباً عارفاً بموضـع لقْـط الحـب وسدِّ الخَلَّة، وهو أصيَدُ للذُّباب من السُّودانيّ، ويـدرُج مـع الـولادة بلا فَصْل، وهذا مع ما أعطى من محبَّـة النسـاء، ورحمـة الرجَـال، وحُسْن الرَّأي من جميع الدار، ثم اتِّبـاعه لمـن دَعَـاه، وإلفُـه لمـن قرَّبه، ثمّ ملاحةُ صوته وحُسن قَـدِّه، ثـمَّ الـذي فيـه ممَّـا يصـحُّ لـه الفروج ويتفرَّج فيه.

تفضيل الديك على الثعلب

كتاب الحيوان
الجاحظ
قول جعفر بن سعيد في تفضيل الديك على الطاوس

وكان جعفر بن سعيد، يزعم أنَّ الدّيك أحمدُ من الطاوس، وأنَّـه مـع جمـاله وانتصـابه واعتـداله وتَقلُّعه إذا مشى، سَليمٌ من مقابح الطاوس ومن مُوقه وقبح صورته، ومن تشاؤم أهل الـدار بـه ومن قُبح رجليه، ونَذَالة مَرْآته، وزعم أنَّه لو ملك طاوساً لألبَسَ رجليه خفَّـاً، وكـان يقـول: وإنَّمَـا يُفخَر له بالتَّلاوين، وبتلك التعاريج التي لألوانِ ريشه، وربَّما رأيتَ الدِّيك النَّبَطيَّ وفيه شبيهٌ بذلك، إلاّ إنَّ الدِّيك أجملُ من الثُّدْرُج؛ لمكان الاعتدال والانتصاب والإشراف، وأسـلمُ مـن العيـوب مـن الطاوس، وكان يقول: ولو كان الطاوس أحسنَ من الدِّيك النَّبَطي في تلاوين ريشه فقـط لكـان فضلُ الديك عليه بفضل القدِّ والخَرْط، وبفضل حُسْن الانتصاب وجودة الإشراف أكثرَ مِنْ مقـدارِ فضْل حُسنِ ألوانِهِ على ألوان الديك، ولكانَ السليمُ من العيوب في العين أجمل لاعـتراض تلـك الخصال القَبيحة على حسن الطاوس في عيـنِ النـاظر إليـه، وأوَّل منـازل الحمـد السـلامة مـن الذَّمِّ، وكان يزعم أنَّ قـول النـاس فلانٌ أحسـن مِـن الطـاوس، ومـا فلان إلاّ طـاوس، وأنَّ قـولَ الشاعر:

مثلُ طواوِيسِ الذَّهب

وأنّهم لمّا سمَّوا جيشَ ابن الأشعث الطَواويس لكثرةِ مَن كان يجتمع فيه من الفتيان المنعوتين بالجمال، إنما قالوا ذلك لأن العامَّة لا تبصر الجمال، ولَفَرسٌ رائعٌ كريم أحسنُ مـن كـلِّ طـاوسٍ في الأرض، وكذلك الرَّجُل والمرأة، وإنّما ذهبوا من حسنه إلى حسن ريشـه فقـط، ولـم يـذهبوا إلى حسن تركيبه وتنضُّبه، كحسن البـازي وانتصـابه، ولـم يـذهبوا إلـى الأعضـاء والجـوارح وإلـى الشِّـــــــيات والهيئـــــــة، والـــــــرأس والـــــــوجه الـــــــذي فيـــــــه.

وكان جعفر يقول: لمّا لم يكن في الطاوس إلاّ حسنُه في ألوانه، ولم يكن فيه من المحاسن مـا يزاحمُ ذلك ويجاذبُهُ وينازعه ويَشغل عنه، ذُكِرَ وتبيّن وظهر، وخصال الديك كثيرة، وهـي متكافئـة في الجمال، ونقول: لم يكن لعبد المطّلب في قريش نظير، وكما أنّه ليـس للعـرب فـي النَّـاس نظير؛ وذلك حين لم تكن فيه خصلةٌ أغلبَ من أختها، وتكاملت فيه وتساوت، وتوافت إليه فكـان الطَّبع في وزن المعرفة، فقالوا عند ذلك: سيِّد الأبطـح وسـيِّد الـوادي وسـيِّد قريـش، وإذا قـالوا سيِّد قريش فقد قالوا سيِّد العرب، وإذا قالوا سيِّد العرب فقد قالوا سيِّد الناس، ولـو كـان مثـل

الأحنف الذي برع في حلمه وبرَع في سائر خصاله لذكروه بالحلم؛ ولـذلك ذكـر قَيـس بـن زُهيـر في الدَّهاء، والحارث بن ظالم فـي الوفـاء، وعتيبـة ابـن الحـارث فـي النَّجـدة والثّقافـة، ولـو أنّ الأحنَفَ بن قيس رأى حاجبَ بن زُرارة، أو زُرارة بن عُدَس، أو حِصْن بـن حذيفـة، لقـدَّمهم علـى نفسه، وهؤلاء عيونُ أهلِ الوبر لا يُذكَرون بشيءٍ دونَ شيءٍ لاسـتواءِ خِصـال الخيـر فيهـم، وفـي منحول شعر النابغة:

فألفيتُ الأَمانة لم تخُنْهـا كذلك كانَ نوحٌ لا يخُونُ

وليس لهذا الكلام وجهٌ، وإنَّما ذلك كقـولهم كـان داودُ لا يخـون، وكذلك كان موسى لا يخون عليهما السلام، وهم وَإن لم يكونـوا في حالٍ من الحالات أصحابَ خِيانةٍ وَلا تجوزُ عليهم، فإنَّ النَّـاس إنَّما يضربون المثلَ بالشيء النادر من فِعل الرجـال ومـن سـائر أمورهم، كما قالوا: عيسى ابن مريـم رُوح اللـه، وموسـى كليـم الله، وإبراهيم خليلُ الرحمن، صلى الله عليهم وسلم، ولـو ذكـر ذاكرٌ الصبرَ على البلاءِ فقَال: كذلك كان أيُّوب لا يجزع كان قولاً صحيحاً، ولو قال: كان كذلك نوح عليه السلام لا يجـزع لـم تكـن الكلمة أعطِيت حقَّها، ولـو ذكـر الاحتمـال وتجـرُّع الغيـظ فقـال: وكذلك كان معاوية لا يسفهُ، وكان حاتم لا يفحُـش، لكـان كلامـاً مصروفاً عن جهته ولو قال: كذلك كان حاتم لا يبخَل لكـان ذلـك كلاماً معروفاً ولكان القـول قـد وقـع مـوقعَه، وإن كـان حـاتمٌ لا يُعرَف بقلّة الاحتمال وبالتَّسَرُّع إلى المكافأة، ولـو قـال: سـألتك

فمنعتني وقد كـان الشَّـعبيُّ لا يمنـع، وكـان النَّخعِـيُّ لا يقـول لا، لكان غيرَ محمودٍ في جهة البيان، وإن كان ممَّـن يُعطِـي ويختـار نعم على لا، ولكنْ لمَّا لم يكن ذلك هو المشهور من أمرهما لـم تُصرَف الأمثال إليهمـا، ولـم تضـرب بهمـا، قـال جعفـر: وكـذلك القول في الـديك وجمـالِه؛ لكـثرة خصـاله، وتـوازُن خلالـه، ولأنَّ جمال الديك لا يلهَج بذكره إلاّ البُصراء بمقادير الجمال والتوسُّطِ فـي ذلـك، والاختلاط والقصـد، ومـا يكـون ممزوجـاً ومـا يكـون خالصاً، وحُسن الطاوس حسـنٌ لا تعـرف العـوامُّ غيـرَه، فلـذلك لهِجت بـذكره، ومـن الـدَّجاج الخِلاسـيُّ والهنـديّ، ومـن الـدَّجاج الزِّنجي ومنها الكَسْكَرِيّ، ومن الدّيَكة مـا يُخصـى فلا يبلغـه فـي الطِّيب والسِّمن شيء وإن اشتدَّ لحمه، وإن كان غيرِ خَصيٍّ فقد يُمدح ذلك من وجهٍ هـو أرَدُّ عليـه فـي بـاب الفخـر، مـن رَخـاوة اللَّحم واستطابة الأكل، وعلى أنَّه لو كان أدناه مـن بعـضِ سـباع الطَّير، أو عدا خَلْفَه إنسـانٌ، فكـان يريـد أخْـذَه حتَّـى إذا فسـخه البهر ارتدّ في موضعه لا يبرحُه، ثم ذبحه على المكان، لجَمَع بـه الخصال كلَّها، ولو علِّقَ في عنقـه حَجَـرٌ ليلتَـه بعـد أنْ ذبحـه، أو أولج بطنَه شيئاً من حِلْتيت لجَمَعَ بـهِ الخصـال؛ فـإنّه أعْمَـلُ فيـه

من البُورَق وقشورِ البِطّيخ في اللحم المفصّل، وهو بعدُ غيورٌ يحمي دَجاجَه، وقال الرَّاجز:

والغَيرةُ خُلْقٌ في الذَّكَرْ

وقال الآخر:

يَحْمِي شَوْلَهُ مَعْقولا

لحم الدجاج

ولحم الدَّجاج فوق جميع اللُّحمان في الطِّيب والبياض، وفي الحسن، والملوك تقدِّمه على جميع الفراخ والنواهض، والبطِّ، والدُّرَّاج، وهم للدُّرّاج آكَلُ منهم للجِداء الرُّضَّع، وللعُنُق الحُمر من أولاد الصَّفايا. والدَّجاجُ أكثر اللُّحوم تصرُّفاً، لأنَّها تطيب شِواءً، ثم حارَّاً وبارداً، ثمَّ تطيب في البَزْمَاوَرْد، ثم تطيب في الهرائِس، ويحدث لَها به نفحةٌ لا تُصاب مع غيرها، وتَطيب طبيخاً، وتَطيب فُصوصها، وإنْ قطَّعتها مع اللحم دَسِمَ ذلك اللحم، وتصلح للحَشاوى، وللملاقسطي، وتصلح في الاسفرجَات وسمينُها يقدَّم في السِّكباجة على البطّ، إلاّ أنها تُطْعَمُ المَفْصُودَ وليس ذلك للبط.

لفظ: الدجاج قال: والدِّيَكة دَجَاج إذا ذكرت في جملة الجنس، وهذا الباب مما تغلَّب فيه الإناث على الذُّكورة، وقال آخرون: لا، ولكنَّ الدِّيكَ نفسه دَجَاجة، إلاَّ أنَّهم أرادوا إِبانَته بأنَّه ذكرٌ فقالوا: ديك، كما يسمُّون الذَّكر والأنثى فرساً بلا هاء، فإذا أرادوا أن يُثبتوا إناثها قالوا حِجْر، وإن كانت حِجْراً فهي فرس، وقال الأخطل:

في الدُّجَى الرَّاحَ الشَّمُولَ وقدْ   صاحَ الدَّجَاجُ وحانتْ وَقْفةُ السَّارِي

وقد بيَّن ذلك القرشيُّ حيث يقول:

اطرُدوا الدِّيكَ عن ذؤابِةِ زيدٍ   كانَ مَا كانَ لا تطَاهُ الدَّجَاجُ

وذلك أنّه كان رأى رأسَ زيدِ بن علي في دار يوسفَ بن عمر، فجاء ديكٌ فوطئ شعْرَه ونقَره في لحمه ليأكله.

كتاب الحيوان
الجاحظ

حوار في صياح الديكة

قالوا: قد أخطأ مَن زعم أنّ الدِّيكة إنَّما تتجاوب، بـل إنَّمـا ذلـك منها شيءٌ يتوافق في وقت، وليس ذلك بتجـاوُبٍ كنبـاح الكلاب؛ لأنّ الكلبَ لا وقتَ له، وإنَّمـا هـو صـامتٌ سـاكت مـا لـم يحـسَّ بشيء يفزَع منه، فإذا أحسَّ به نَبـح، وإذا سـمع نُبـاح كلـبٍ آخـر أجَابَ ثم أجابَ ذلكَ آخـرُ، ثـمَّ أجابهمـا الكلـبُ الأوَّلُ، وتـبيَّن أنّـه المجاوِب جميع الكلاب، والدِّيك ليس إذاً من أجْل أنّه أنكر شــيئاً استجاب، أو سمع صوتاً صقع، وإنَّما يصقع لشيءٍ في طبعـه، إذا قابل ذلك الوقتَ من اللَّيل هيّجَه، فَعدَدُ أصواتِهِ في الوقتِ الذي يُظَنُّ أنّه تتجاوبُ فيه الدِّيكة، كعدَدِ أصواتِهِ في القريةِ وليس في القريَةِ ديكٌ غيره، وذلك هو في المواقيت، والعلَّةُ التي لها يصقَع في وقتِ بعينه شائعةٌ فيها في ذلك الوقت، وليس كذلك الكلاب قد تنبح الكلاب فـي الخُرَيْبـة وكلابٌ فـي بنـي سعد غيـر نابحـة، وليس يجوز أن تكـون دِيَكـة المهالبـة تصـقع، وديكـة المسـامِعة ساكتة، فإنْ أراد مريدٌ بقوله إنّ الدِّيكة تتجاوب، وعلى مثل قول العرب: هذه الجبال تتناظَر، إذا كان بعضُها قُبالة بعضٍ، وإذا كان

الجبلُ من صاحبه بالمكان الذي لـو كـان إنسـانٌ رآه جَـاز ذلـك، وعلى هذا المثـال قـال النـبيُّ صـلى اللـه عليـه وسـلم فـي نـارِ المشركين مـا قـال، حيـث قـال: لا تَتَـرَاءَى نارَاهمـا، ومـع قـول الشاعر:

تتراءَى قبورهما

وقال ابن مُقْبِلٍ العَجْلَانيّ:

الدَّار من جنْبَي حِبرٍّ وحيثُ يَرَى هَضبَ القَليبِ
فَواهـبِ المضَيّحُ

وتقول العرب: إذاً كانتَ بمكان كذا وكـذا، حيـثُ ينظُـر إليـك الجبُـل فخُـذْ عـن يسـارِك أو عـن يمينك، وقال الرَّاجز:

يرى شَيْخ الجبالِ ثَبِيرا

وشيخ الجبال عنده أبو قبيس، وقال النَبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأخيار: أنا بريءٌ من كلِّ مسلمٍ مع كلِّ مشرك، قيل: ولِمَ يا رسولَ اللّـه? قـال: لا تـتراءَى ناراهُمـا، وقـال الكسـائِيّ: تقول العـرب: داري تنظُـر إلـى دار فلان، ودورنـا تتنـاظر، وقـال اللّـه تبـارك وتعـالى: "وَتَرَاهُـمْ يَنْظُرُونَ إلَيْكَ وَهَمْ لا يُبصِرُونَ"، وإنَّما قال القوم في تجاوُب الدِّيكة ببيتِ شعرٍ سمعوه للطِّرِمَّاح، جهلوا معناه، وهو:

صبح كمش غبر الليل
مصـعـدا
ونبـه الـعـفـاء الـمـوشـح

صاح لم يخذل وجـاوبحماش الشوى يصدحن من كل صداح

وكذلك غلطوا في قول عبدة بن الطبيب:

صفق الديك يدعو بعض
الصباح وهم قوم مـعـازيل

وإنّما أرادَ تَوافيَ ذلك منها معـاً؛ فجعلهـا دعـاء وتجاوبـا علـى مـا فسرناه.

تفضيل صاحب الكلب الحمار على الديك

قال صاحب الكلب: لولا أنّا وجدنا الحمار المضروبَ به المثلُ في الجهل، يقومُ في الصَّباح وفي ساعات اللّيل مقامَ الدّيكة، لقد كان ذلك قولاً ومذْهباً غيرَ مَرْدُود، ولو أنَّ متفقِّداً يتفقَّد ذلك من الحمار لوجدَه منظوماً يتبع بعضُه بعضاً على عدد معلوم؛ ولوجَدَ ذلك مقسوماً على ساعات الليل، ولكان لقائلٍ أن يقول في نهيق الحمار في ذلك الوقت: ليس على تجاوبٍ، إنَّما ذلك شيء يتوافى معاً، لاستواء العلة، ولم تكن للدِّيك الموصوفِ بأنّه فوق الأسْطرلاب فضيلةٌ ليست للحمار، وعلى أنّ الحمار أبعدُ صوتاً، وقد بلغ من شدَّة صوتِه ما إن حلَفَ أحمدُ بن عبد العزيز: إنّ الحمار ما ينام قيل له: وما ذاك؟ قال: لأنّي أجدُ صياحَه ليس بصياح شيءٍ انتبه تلك الساعة، ولا هو صياحُ من يريد أن ينام بعد انقضاء صياحه، هذا والحمارُ هو الذي ضَرب به القرآنُ المثلَ في بُعد الصوت، وضَرب به المثلَ في الجهْل، فقال: "كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً"، فلو كان شيءٌ من الحيوان أجهلَ بما في بطون الأسفار مِن الحمار، لضَرب اللّه المثلَ به دونَه، عشرة أمثال في شأن الحمار وعلى أنّ فيه من الخصال ما ليس في الديك، وذلك أنّ العربَ وضعته من الأمثال التي هي له في عشرة أماكن، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: "كلُّ الصَّيْدِ في جوْفِ الفَرَا" وكفاك بِهِ مثلاً إذا كان لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم في تفضيل هدايةِ أبي سفيان، وقال العرب: أنْكَحُ من الفَرَأ، والفَرَأُ مهموز مفتوحة الفاء مجموعُهُ فِرَاءٌ، قال الشاعر:

كآذانِ الفِرَاءِ فُضُولُوطَعْنٍ كإيزاغ المخَاضِ تَبُورُها

وتقول العرب: العَيْرُ أَوْقى لِـدَمِه، وقـولهم: مَـنْ يَنِـكَ العَيْـر يَنِـكْ نيَّاكاً، وقالوا: الجحْشَ إذا فاتَتْكَ الأعيار وقالوا: أصبَرُ من عَير أبـي

سيَّارة؛ لأنَّه كان دفعَ بأهْلِ الموسم على ذلك الحمار أربعينَ عاماً، وقالوا: إن ذَهَب عيرٌ فَعيْرٌ في الرِّباط، وقالوا في المديح لصاحب الرأي: جُحَيش وَحْدِه، و عُيَير وحده، و العَيْرُ يَضْرِط والمِكواةُ في النَّار؛ وقالوا: حمَارٌ يحمل أسفاراً، و أضلُّ من حمارِ أهله، و أخزى اللّه الحِمارَ مالاً لا يُزَكَّى ولا يذَكّى، و قد حِيلَ بين العَيْر والنَّزَوان، فالذي مُدح به أكثر؛ فقد وجدنا الحمار أبعدَ صوتاً، ووجدناه يعرف من أوقات الليل ويميِّز عدداً معلوماً إلى الصبح، إلاّ أنّ له في الأسحار فضيلة، والحمارُ أجهلُ الخلق، فليس ينبغي للدِّيك أن يُقضَى له بالمعرفة والحمار قد ساواه في يَسِير علمه، ثم بايَنَه أنّ الحمار أحسنُ هداية، والدِّيك إن سقط على حائط جَارِه لم يُحسن أن يهتدي إلى داره، وإن خرج مِن باب الدار ضلَّ، وضلالُه من أسفل كضلالِه من فَوق.

أحاديث في الديك

ما روى صاحب الديك من أحاديث في الديك

قال صاحب الديك: حدَّثونا عن صالح بن كيسان، عن عبيد اللّه بن عبد اللّه ابن عتبة، قال: صرخَ ديكٌ عندَ النبي صلى الله عليه

وسلم فسبَّه بعضُ أصحابه، فقال: لا تَسبَّهُ فإنَّه يدعُو إلى الصلاة، وعن ابن الماجِشُونِ، عن صالح بن كيسان، عن عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة ابن مسعود، عن يزيد بن خالد الجُهني: أنّ رَسولَ اللّه صلى الله عليه وسلم نَهَى عن سبِّ الديك وقال: إنّه يؤذِّن للصَّلاَة.

الحسن بن عمارة، عن عمرو بن مرَّة، وعن سالم بن أبي الجعد، يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ مما خلق اللّه تعالى لَدِيكاً عُرْفُه تحتَ العرش وبَرَاثِنُهُ في الأرض السُّفلى، وجَناحاه في الهواءِ، فإذا ذهب ثُلثا الليل وبقي ثُلثُه ضربَ بجناحه ثم قال: سبِّحوا الملِكَ القُدُّوس، سُبُّوح قَدُّوس - أيْ أَنَّهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ - فعند ذلك تضرِب الطَّيرُ بأجنحتها وتصيحُ الدِّيَكة، وأبو العلاء عن كَعب: إنَّ لِلَّهِ تَعَالَى دِيكاً عُنقُهُ تحْتَ العرش، وبراثنهُ في أسفل الأرَضين، فإذا صاحت الديكةُ يقول: سبحانَ الملِكِ القُدُّوس الملِك الرَّحمن، لا إله غيره، قال: والدِّيَكة أكيسُ شيءٍ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إنَّ الدِّيكَ الأبيضَ صديقي، وعدوُّ عدوِّ اللّه، يحرس دارَ صاحِبِهِ وسبعَ دُور، وكان

رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يبيِّته معه فـي الـبيت. ورُوي أنّ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يسافرون بالدِّيكة.

ذبح الديك الأفرق

وزعم أصحابُ التَّجرِبةِ أنَّه كثيراً ما يَـرون الرَّجـل إذا ذبـح الـدِّيك الأبيضَ الأفرق، أنّه لا يزال يُنْكَب في أهله وماله.

كيف تعرف الديك من الدجاجة

إذا كان صغيراً

وممَّا في المحاجاة أن يقال: كيف تعرف الدِّيك مـن الدجاجـة إذا كان صغيراً حين يخرجُ من البيضة? فقـالوا: يعلّـق بمنقـاره، فـإنْ تحرَّكَ فهو ديك وإن لم يتحرَّك فهو دجَاجة.

شعر في حسن الدجاجة ونبل الديك

قال الشاعر في حُسن الدَّجاجة ونَبل الديك:

بَشربةٍ من ذاتِ عِـرْقٍ الدَّهناء من حَلَبِ العصـير
بالعقَنْقَل ثـم رُحـنـا العُصفورَ أعظمَ من بَعيرِ
الدِّيكَ دِيكَ بنـي نُـمـير أميرُ المؤمنين على السَّـريرِ
دجَاجَهم في الدَّار رُقطـبلًا ناتُ الرُّوم في قُمُصِ الحريرِ

أُرَى الكواكـبَ دانِـياتٍ يَتَلنَ أنامِلَ الرَّجُلِ القَـصِـيرِ
أُدافعُهنَّ بالـكـفَّـينِ عـنِّـي وأمسح جَانبَ القمر المـنـير

طعن صاحب الكلب في الديك

وقال صاحب الكلب: الأشياءُ التي تـألفُ النـاس لا تريـد سـواهم كالعصفور والخطَّاف والكلب والسّنورِ، والدِّيكُ ممَّا يتَّخذه الناس، وليس ممَّا يحنُّ إليهم فيقطَع البلادَ نِزاعـاً، فيكـون ک القواطع مـن الطير التي تريدهم كالخطَّاف، ولا هو من الأوابد كالعصفور الــذي حيثُما دار رجع إليهم، ولا هو كالكلب الذي لا يعرف سواهم، ولا هو كالأهليِّ من السنانير التي متى ألفِتهم لم تفارقهم، وتعُسُّ باللَّيل، وتطوف في القبائل من دار إلى دار ثمَّ لا يكون مرجعُها إلاَّ إليهم، والدِّيك في خلافِ ذلك كلِّه، ثمّ لا يألف منزله ولا يعرف رَبْعـه، ثـم لا يحنُّ إلى دجاجهِ، ثمَّ لا تتوق نفسُه إلى طَروقته، ولا يشتاق إلـى ولده، ولا يعرف الذين غَذوه وربَّوه، بل لم يدر قطّ أنَّ له ولداً، ولو كان درَى لكان على درايته دليل، فإذْ قدْ وجدناهُ لفراريجه وبيضـه المخلوقة منه ومِنْ نجْلِه، كما نجـده لمـا لـم يلـدْ ولمـا ليـس مِـن شكله أيضاً ولا يرجعُ إلى نسبه، فكيف لا نقضي عليـه بـالنَّقص، إذ كـــــانت الأمـــــور لا تعـــــرف إلاَّ بهـــــذا وشـــــبهه.

وهو لا يعرف أهلَ دارِه، ولا يُثبت وجهَ صاحبه الذي لم يُخْلقْ إلاّ عندَه، وفي ظلِّه وتحتَ جناحه، ولم يزلْ في رزقه وعِياله، والحمام ترجع إليه من مائتي فرسخ، ويُصطاد فيتحوَّل عن وطنه عشْرَ حِجَج، ثمَّ هو على ثباتِ عهده وقوَّةِ عقْده، وعلى حِفاظه وإلفه، والنِّزاع إلى وطنه، فإن وجد فُرجة ووافق جناحَه وافياً وافاه وصار إليه، وإن كان جناحُه مقصوصاً جَدَف إلى أهله، وتكلَّف المضيَّ إلى سكَنه، فإمّا بَلَغ وإمَّا أَعْذَر. والخُطّاف يقطع إليهم من حيث لا يبلغه خبر، ولا يطؤه صاحب سفر؛ على أنّا لا نراه يتَّخذ وكرَه إذا صار إليهم إلاّ في أحصَنِ موضع، ولا يحمله الأُنْس بهم على ترك التَّحرُّز منهم، والحزمِ في مُلابَستهم، ولا يحمله الخوف منهم على منْع نفسه لذّةَ السُّكونِ إليهم، ولا يبخس الارتفاق بهم حظّه، والعصافير لا تقيم في دار إلاّ وهي مسكونة، فإن هجرها الناسُ لم تُقِمْ فيها العصافير. قول صاحب الكلب في السنور والهرة والسِّنَّور يعرف ربَّةَ المنزل، ويألف فرخَ الحمام، ويُعابِث فراريج الدار، إن سُرق ورُبط شهراً عاد عند انفلاته، وانحلال رباطه، والهرَّةُ تعرف ولدَها وإن صار مثلَها، وإن أُطعِمت شيئاً حملته إليه وآثرته به، وربّما

أُلقي إليها الشيءُ فتدنو لتأكلَه، ويُقبلُ ولدها فتُمسِك عنه، وترضُّه له، وربّما طُرح لها الشيءُ وولـدها غـائبٌ عنهـا ولهـا ضـروبٌ مـن النَّغَم، وأشكالٌ من الصِّياح فتصيح ضرباً من الصِّـياح يعـرفُ أهـلُ الدَّارِ أنّه صياحُ الدُّعاء لا غيـر ذلـك، ويقـال: أبَـرُّ مِـنْ هِـرَّة، ومـتى أرادتْ ما يريدُ صاحبُ الغائط، أتت مواضعَ تـرابٍ فـي زاويـةٍ مـن زوايا الدَّار فتبحثه، حتَّى إذا جعلتْ له مكاناً كهيئـة الحفـرة جعلَتْـه فيها ثمَّ غطّتهُ من ذلك التُّراب، ثمَّ تشمَّمتْ أعلى ذلك التراب ومـا ظهرَ منه، فإنْ وجدَتْ شيئاً من الرائحة زادت عليها تراباً، فلا تزال كذلك حتَّى تعلم أنَّها قد أخفت المرئيّ والمشموم جميعاً، فإنْ هي لم تجدْ تراباً خَمشت وجهَ الأرض، أو ظَهْرَ السَّطح، حتَّى تبلغَ فـي الحفـــــر المبلـــــغَ، ومـــــن ســـــتر ذلـــــك المجهـــــودَ.

وزعم ناسٌ من الأطبَّاءِ أن السِّنَّورَ يعرفُ وحدَه ريحَ رجْعـهِ، فإنمـا يستره لمكان شمّ الفأر لَهُ، فإنها تفرُّ من تلك الرائِحـة، أو يُغطِّيـه لما يكون فيه من خلُق من أخلاق الأسد، و ما يشـاكل فيـهِ الأسـدَ في الخُلُق، على قدر ما يشاكله في الخَلق، وتعداد ذلك كثيرٌ.

سُلاح الديك

والدِّيكُ لا تـراه إلاَّ سـالحاً، ثـمَّ لا يتـوقَّى ثـوبَ ربِّ الـدار ولا فِراشـه ولا بِسـاطه، هـذا، وحيـاتُه التُّراب، ولذا يدفن نفسَه فيهِ، ويُدخله في أصولِ ريشهِ، ثمَّ لا ترى سُـلاحاً أنتـن مـن سُـلاحهِ، ولا يشبه ذَرْق الحمام، وصَوْم النَّعامِ، وجَعْر الكلب، ثـم مـع ذلـك لا تـراه إلاّ سـائلاً رقيقـاً، ولـو كـان مُدَحرَجاً كأبعار الشاءِ والإبل والظباء، أو متعلقاً يابسـاً كجَعْـر الكلـب والأسـد، ثـمَّ لـو كـان علـى مقدار نتنه لكان أهونَ في الجملة، وقال أبو نُواسٍ في ديكِ بعض أصحابه:

بدِيكـكَ الـسَّـلاّحِ فنجِّنا مِنْ مُنْتِنِ الأرْوَاح.

استخدام الخناقين للكلب

وقال صاحب الكلب: ومـن مَرافـق الكلـب أنّ الخنَّـاقين يظـاهر بعضُهم بعضاً، فلا يكونون في البلاد إلاّ معاً، ولا يسافرون إلاّ معـاً؛ فربَّمـا اسـتولَوا علـى دربٍ بأسْـره، أو علـى طريـقٍ بأسـره، ولا ينزلون إلاّ في طريق نافذ، ويكون خلف دُورهم: إما صَحارى وإمَّا بساتين، وإما مزابِلُ وأشـباهُ ذلـك، وفـي كـلِّ دارٍ كلابٌ مربوطـة، ودُفوف وطُبـول، ولا يزالـون يجعلـون علـى أبـوابهم معلَّـمَ كتّـابٍ منهم، فإذا خنق أهـلُ دارٍ منهـم إنسـاناً ضـربَ النِّسـاءُ بالـدُّفوف، وضربَ بعضـهم الكلابَ فسـمع المعلِّـم فصـاحَ بالصِّـبيان: انبَحُـوا وأجابهم أهْلُ كلِّ دَارٍ بالـدفوف والصُّـنوج، كمـا يفعـل نسـاءُ أهْـلِ القرى، وهَيَّجوا الكلاب، فلو كان المخنوقُ حماراً لما شَعر بمكـانه أحـــــــد، كمـــــــا كـــــــان ذلـــــــك بالرَّقَّـــــــة.

وانظرْ كيف أخذُوا أهْلَ دَرْبٍ بأسـره وذلـك أنّ بعضـهم رغِـب فـي ثُوَيب كان على حمّال، وفيـهِ دريهمـات معَـهُ، فـألقى الوَهَـق فـي عنقهِ فغُشي عليهِ ولم يمتْ، وتحرَّك بطنُه فأتى المتوضَّـأ وتحـرَّك الحمَّال والسَّاجور فـي عنقِـه، فرجَعـت نفْـس الحمـال، فلمّـا لـم يحسّ بأحَدٍ عندَه، قَصَدَ نحوَ باب الدار، وخـرج وزِيـارهُ فـي عنقـهِ، وتلقّتـهُ جمـاعَتُه فـأخبرهم الخـبر، وتصـايح النَّـاس فأُخِـذوا عـن آخرهم.

بعض الخبر والشعر في الخناقين

وقد كان بالكوفة شبيهٌ بذلك، وفي غيرهـا مـن البلـدان، فقـال حمـادٌ الرَّاويـة، وذكـر المرميِّيـن بالخنق من القبائل وأصحاب القبائل والنِّحَل، وكيف يصنع الخُنَّاق، وسمَّى بعضَهم فقال:

سرتَ في عِجْلٍ فسِرْ في وكِنْدَةُ فَاحْذَرْها حِذارَكَ للخَـسْـفِ
شيعة الأعمـى زيار وغِـيلَةٌ وقَشْبٌ وإعمالٌ لجنْـدلة الـقَـذْف
شَـرٌّ عَـلَـى أنَّ رأسَـهـم حميدةُ والميلاءُ حاضِنَةُ الكِـسْـف
كنتَ في حَيَّيْ بَجيلَةَ فإنَّ لهم قَصْفاً يدُلُّ علـى حَـتْـف
فَاستمـعْ اعتزموا يوماً على خنْـقٍ نداعَوْا عَلَيْهِ بالنُّباح وبـالـعـزف

وأمَّا ذِكره لبني عجل فلمكان ذي الضفرتين وغيره من بني عجل، وأمَّا ذكره كندة، فقد أنشـدنا سُفيان بن عيينة، وأبو عبيدة النحويُّ:

سرَّك العيشُ فلا تأخذ عَلَى كِنْدَه

ومن كِندة أبو قصبة أُخذ بالكوفة وقُتِل وصُلب، وكان بالكوفة ممَّن يأكلُ لحومَ النَّاس عَدِيَّةُ المدَنية الصَّفراء، وكان بالبَصرة رَادَوَيه صاحب قصاب رادويه، وأمَّا الأعمى في بني ضبَّة الذي ذكره فهو المُغيرة بن سعيد صاحب المُغِيرِيَّة، وهم صِنْفٌ ممَّن يعمل في الخنق بطريق المنصوريَّة، والمغيرة هذا من موالي بَجِيلة، وهو الخارج عَلى خالد بن عبد اللّه القَسْرِيّ، وعِند ذلك قال خالد وهو عَلى المِنبر: أطعِمُوني ماءً وفي ذلك يقول يحيى بن نوفل:

لِما أصابَك أطعِموني شراباً ثمَّ بُلْتَ عَلَى السَّرِير
ثمانيةٍ وشَيْخٍ كَبيرِ السِّنِّ ذي بَصرٍ ضرير

وأما حميدة فقد كانت لها رياسة في الغالِية، وهي ممَّن استجاب لليلى السبائية الناعِظية، والميلاءُ حاضِنة أبي منصور صاحب المنصوريَّة، وهو الكِسْف، قالت الغالية: إيَّاه عَنَى اللّهُ تبارك وتعالى "وَإنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ"، وقد ذَكَرَه أبو السرِيّ مَعْدَانُ الأَعمى الشُّمَيطي في قصيدته التي صنّف فيها الرَّافضة ثم الغالية، وقدَّم الشُّميطيَّة عَلَى جميع أصناف الشيعة، فقال:

الكِسْفَ صَدَّ آل كُمَيلٍ وكُمَيْلٌ رَذْلٌ من الأرْذالِ
بالعراق داءً دويّا ضلَّ فيه تلطُّفُ المحتالِ
جاعلُ العَسيبِ إماماً وفريقٌ يرض زَنْد الشَّمالِ
يقول إنَّا بَرَاءٌ من عَلِيٍّ وجُنْدُبٍ وبِلالِ
مِنَ الذي سَلَّمَ الأَمْ ر عَلَى قدرةٍ بغير قتالِ
يدين بالنصِّ حَتْماً وفريقٌ يدِينُ بالإهمالِ

لأنَّ الكميليَّة لا تجيز الوَكالة في الإمامة، وتقول لابُدَّ من إمَامٍ صامتٍ أو ناطِقٍ، ولابدَّ من عَلَم يمدُّ الناسُ إليهِ أعْناقَهم، وأبو منْصُورٍ يقولُ بخلاف ذلك، وأمَّا قوله:

شِيعة الأعمى زِيارٌ وغوغاءٌ وعشب وإعمالٌ لجنْدَلَةِ القَذْفِ

فقد قال مَعْدان:

وكافر سبياني حَربيٌّ وناسخ قَتَّال

تيميَّةٌ وهاتيك صمـت ثمَّ دين المغيرة المغتـالِ
مرَّةً وشَـمُّ بـخـار ثمَّ رضْخٌ بالجندَلِ المتوالي

لأنَّ من الخنّاقين من يكون جامعاً، وبذلك يسمُّونه إذا جمعَ الخنْق والتشـميم، وحمـل معـه فـي سَفَرِهِ حَجَرَين مستديرين مُدمْلَكين وململمين فإذا خلاَ برجلٍ من أهـل الرُّفقـة اسـتدبره فَرَمـى بأحدهما قَمَحْدُوَتَه، وكذلك إن كان ساجِداً، فإن دمغه الأَول سلبَهُ، وَإنْ هُوَ رَفَع رأسَهُ طبَّق بالآخر وَجْهَهُ، وَكذلك إنْ ألفاه نَائماً أو غافِلاً ، ولقد صَحِبَ منهم نَاسٌ رجلاً خرج من الـرَّيِّ، وفـي حَقـوه هِمْيَانٌ، فكان لاَ يفارق مُعْظَمَ النَّاس، فلمَّا رأوهُ قد قَرُب مِنْ مفـرِق الطَّريقيـن ورأوا احتراسَـهُ، وهم نزولٌ إمَّا فِي صحراء وإمّا في بَعْضِ سُـطوحِ الخانَـات، والنّـاس مُتشـاغلون بـأمُورهِمْ، فلـم يشعُرْ صاحِبُ الهِمْيان نهاراً والنّاس حَوْلَهُ إلا والوَهَقُ في عنقِـهِ، وطرحَـهُ الآخـر حيـن ألقـاه فـي عنقِه، ووَثَبَ إليهِ وجلَسَ علَى صَدره، ومَدَّ الآخَر برجْليهِ وألقـى عليـهِ ثَوْبـاً وأدّنَ فِـي أذُنِـهِ فقـام إليهم بعضُ أهل الرُّفقة كـالمعين والمتفجِّـع، فقـالوا لـه: مكانَـك؛ فـإنّه إنْ رآك خجِـل واسـتحَى، فأمسك القومُ عنهم، وارتحل القوم، وأعجلوا بصاحبهم، فلمَّا خَلَوا به أخذوا ما أحَبُّوا، وتركـوا مـا أحَبُّـوا، ثـمَّ حملـوه عَلَـى أيـديهم، حـتى إذا بـرزوا رمَـوه فـي بعـض الأوديـة.

شعر أعشى همدان في السبئية وقد ذكر أعشَى هَمْدانَ السَّبئيَّةَ وشأنَهم في كرسيِّ المختار:

عليكـم أنّـكـم سـبَـئِيَّة وإنِّي بكم يا شُرْطَة الكُفْر عارفُ
ما كرسيُّكـم بـسَـكِـينةٍكانَ قد لُفَّتْ عليهِ اللفـائف
لُبِّسَ التّابُوتُ فُتْناً وإن حمامٌ حواليهِ وفيكـم زخـارف
امرؤٌ أحببتُ آلَ مـحـمَّـدٍوآثَرْتُ وَحْياً ضُمِّنَتْهُ المصاحِفُ
شاكراً طافتْ به وتمسَّحَـتْ بأعواد ذاوٍ دبرت لا تسـاعـف
بِهِ لابن الزُّبيرِ رقـابُـنـا غَبْنَ فيها أو تُحَزُّ السَّوالِـفُ
وأحسبُ عُقباها لآلِ مـحـمَّـدٍفَيُنْصَرُ مَظلومٌ ويأمـن خـائفُ
ربى أُمَّةً قَدْ تَشَـتّـتَوها حُروبٌ بينَهُمْ وحَسَـائِفُ

أبـــــو عبيـــــدة: الحســـــيفة الضـــــغينة، وجمعهـــــا حســـــائف.

من قتل نفسه بيده وما أكثر مـن قتـل نفسَـهُ بيـده، إمَّـا لخـوف المُثْلـة، وإمَّـا لخـوف التعـذيب

والهوان وطولِ الأسر، وقد كان الحكـمُ بـن الطُّفيـل، أخـو عـامر بـن الطفيـل، وأصـحابُه خنَقُـوا أنفسَهم في بعض الأيام، فعُيِّروا بذلك تعييراً شديداً، فقال خُراشة بن عامر بن الطفيل:

وقُدْتَهم للموت ثُمَّ خَـذَلْـتَـهُـمْ وألتْ نفسٌ عليك تـحـاذرُ
تبلِغنِّي عامراً إنْ لَقِـيتَـه أسلَّيتَ عن سلمان أم أنتَ ذاكرُ
وراءَ الحـيِّ غِـزْلانَ أيْكةٍ مُضَمَّخَةً آذانُـهـا والـغـدائرُ
إذ تخنُقون نـفـوسَـكـم تحتَ أظْلالِ العِضَاهِ جرائرُ

وقال عُروة بن الوَرد في يوم ساحوق، ويذكر خنْق الحكم بن الطُّفيل وأصحابِه أنفسَهم، فقال:

صبَحْنا عامراً في دِيارِها عُلالَة أرماحٍ وعَضْبا مُذَكَّـرا
رقيقِ الشَّفْرتين مُـهَـنَّـدٍ ولَدْنٍ من الخَطِّيِّ قد طرَّ أسمَرَا
لهم إذ يخنقُوُن نفوسَهم عند الوغَى كان أعذرا وَهَقْتُهم
الحليمُ منهم عَقْدَ إنَّما يأتي الذي كان حُذِّرَا

رثاء أبي زبيد الطائي كلباً له وقال أبو زُبَيْدٍ فـي كلـبٍ لَـهُ، كـان يُساور الأسـدَ ويمنعـه مـن الفسـاد، حيـن حطمـه الأسـد، وكـان اسمه أكدر، فقال:

أكْدَرُ مـخـتـالاً كـعـادتِـه حتى إذا كان بينَ الحَوْضِ والعَطَـنِ
لدى ثـلـل الأضـواء داهـية وأكدرت تحت الليل في قرن
بِهِ سُـنَّةٌ ورْهـاءُ تَـطْـرُدُه حتَّى تَنَاهى إلى الأهوال في سَنَـنِ
مُقاربِ خَطْوِ الساعِـدَيرِفوق السَّراةِ كَذِفْرَى القارِحِ الغَضِنِ
ظلماءَ لا قَـحْـمٌ ولا ضَـرَعٌ كالبغل خطّ به العجلان في سكـن
وهما سنَّا هـمـومـهـمـا إلى عرين كُعشِّ الأرمَـل

كتاب الحيوان
الجاحظ

علقت أظفاره بهم أكدَرَ غيرُ الأَفْنِ والحَتَنِ الـيَفَـنِ
إذا ورد العِرزالَ وانتبهت مُتسِّهِ أُمُّ أجْرٍ ستةٍ شُزُنِ
جناجنها حصَّاء قد أفلتيبهرن تعبيراً عَلَى سدن
أكدرُ أن تموا ثمانية أن قد تجلَّل أهلُ البيت باليُمنِ
عزَّتهم لما دنا لهمُ فحاص أكدَرُ مشفيّاً من الوَسَنِ
كلُّها في الخلق داهية عُضفٍ عليهنَّ ضافِي اللحم واللبن
متَّخِذَ الأنيابِ جُنَّتَه باللَّيل وَلاَّجاً إلى الجَنَنِ

رثاء أعرابي شاة له أكَلها ذئب وقال صاحب الكلب: قال أعرابيٌّ وأكل ذيبٌ شاةً لَهُ تسمّى وردة، وكُنْيَتها أم الوَرد:

بِوَرْدَةَ أمِّ الوَردِ ذُو عَسَلٍ الذئاب إذا ما راحَ أو بَكَرَا
ابنُها وسَليلاتٌ لها غُرُرٌ انفكَّت العَيْنُ تَذْرِي دَمْعها دِرَرَا
الذِّئب إذ يَعْدُو عَلَى غَنَمي في الصُّبحِ طالبُ وِترٍ كانَ فاتَّأرا
اعتامَهُ شَثْنٌ براثِنهُ الضّواري اللَّواتي تقصِم القَصَرَا

قال: في هذا الشعر دَليلٌ أنَّ الذِّئب إنَّما يعدو عليها مع الصبح، عند فتور الكلْب عن النُّباح؛ لأنَّه باتَ ليلَتهُ كلّها دائباً يقظانَ يحرُس، فلمَّا جَاءَ الصُّبحُ جاءَ وَقتُ نَوْم الكلاب، وما يعتريها من النّعاس، ثم لم يَدْعُ اللَّهَ عَلَى الذِّئبِ بأن يأكله الأَسد حتَّى يختاره ويعتامه، إلاَّ والأسدُ يأكل الذئاب، ويختار ذلك، وإنَما استطابَ لحمَ الذِّئبِ بفضل شهوتِهِ للحم الكلب.
قول صاحب الديك في إجازة الشعراء الدجاج وقال صاحب الدِّيك: لم نر شريفاً قَطُّ أجازَ شاعراً بكلْب، ولا حَبا بِه زائراً، وقد رأيتَهم يجيزون الشُّعَرَاء بالدَّجاج، وأعْظَمُ من ذلك أن لقيمَ الدَّجَاجِ، لما قال في افتتاح خيبر، وهو يعني النبي صلى الله عليه وسلم:

نَطاةُ من النبيِّ بفَيْلقٍ شهْباءَ ذاتِ مَناكِب وفَقَار

وهَب لَهُ دَجاج خَيبَر عن آخرها، رواه أبـو عمـرو، والمـدائني عـن صـالح بـن كَيْسـان، ولتلـك الـدَّجَاج قيـل: لقيـم الـدَّجَاج. إياس بن معاوية وأخوه وقال صاحب الكلـب: قـال أبـو الحسـن: كانَ إياسٌ بنُ معاويَة وهو صغيرٌ، ضعيفاً دقيقاً دميماً، وكانَ لَـه أخٌ أشدُّ حركَةً منْهُ وَأقـوى، فكـان معاويَـةُ أبـوه يقـدِّمهُ علَـى إيـاس، فقال لَه إياسٌ يَوْماً يا أبتِ إنَّك تقَـدِّمُ أخـي عَلَـيّ، وسأضـربُ لـك مثلي ومثلَه: هو مثل الفَرُّوج حين تنفلق عنه البَيضة، يخرج كاسياً كافياً نَفْسَهُ، يلتقط، ويستخفُّه الناس، وكلّما كبر انتُقص، حـتى إذا تَمَّ فصار دجاجة، لم يصلحْ إلاّ للذبح، وأنا مثـلُ فَـرخِ الحمـام حيـن تنفلق عنه البَيضةُ عن ساقطٍ لا يقدر عَلَى حركـة، فـأبَواه يغـذُوانِهِ حتّى يقوى ويثبتَ ريشُهُ، ثـمَّ يحسُـن بعـد ذلـك ويطيـر، فَيجِـدُ بـه الناس ويكرمونَهُ، ويرسل من المواضـع البعيـدة فيجيـء، فيُصـان لذلك ويُكْرَمُ، ويُشْتَرى بِالأَثْمانِ الغالية، فقال أبـوه: لقـد أحسـنت المثل فقدَّمه عَلَى أخيهِ، فوجَـد عِنْـدَهُ أكـثرَ ممـا كـانَ يظـنُّ فيـه. قال صاحب الكلب: وقد أغفل إياسٌ في هذا القول بعـضَ مصـالح الدَّجاج، وذلك أنّ الدَّجاج مِنْ لدُنْ يخرج من حَـدِّ الصِّـغَر والكَيْـس إلى أن يدخل في حَدِّ الكبر واحتمالِ اللَّحم والشَّحم، يكون أخبـثَ

حالاً لأنَّهُ لا يصلح فيه للذَّبح، وقد خرج من حدِّ الكَيْس والاستملاح، وإياسٌ هو الذي يقول: لستُ بخِبٍّ والخِـبُّ لا يخـدعني، ولا يخـدَع ابن سيرين وهو يخدع أبي ويخدَع الحسَن.

باب ما يحتاج إلى معرفته

يقال فَرْج المرأة والجمع فُروج، وهو القُبُل، والفَرْجُ كِناية، و الاسم الحِرُ، وجمعه أحْـراح، وقـال الفرزدق:

أقودُ جملاً ممْرَاحَا في قُبَّةٍ مُوقَرةٍ أحْرَاحَا

قالوا: وإنّما جمعوه عَلَى أحراح، لأَنَّ الواحد حِرْح، هكذا كان أصله، وقد يستعار ذلك وهو قليـل، قال الشاعِرُ:

الضَّبعَ أعْظمَهنَّ رَأساً جُرَاهِمَةً لها حِـرَةٌ وثِـيلُ

فلم يرض الاستعارة حتَّى ألحق فيها الهاء، وهو الكَعْثَب، وقال الفرزدق:

بطِحت فوقَ الأَثَافي رَفعنهلديين مَعْ نحر كريمٍ وكَعْثَبِ

وقال الأغلب:

عن كعْثبٍ لم يَمْصَحِ

وهو الأجم، وقال الرَّاجز:

أعظمها أجَمُّهـا قد سمَّنتْها بالسَّويق أمُّها
الرِّجْلِ فما تَضمُّها

وقال: وقد يسمّى الشَّكْر، بفتح الشِّينِ وإسكان الكاف، وأنشدوا:

كليلة الشَّيْبَاء هَبَّتْ بمَنْع الشَّكْرِ أتأمَهَا القَبيلُ

أتأمها: أفضاها، وأمَّا قوله:

أقبلَتْ عَمْرَةُ من عِرَاقِها مُلْصَقَة السَّرْج بخَاقِ باقها

قال: وهو إن أرادَ الحِرَ فليس ذلك من أسمائه، ولكنه سَّماه بذلك على المزاح، قَالوا: والظَّبْيَـةُ اسم الفَرْج من الحافر، والجمع الظَّبَيات، وقد استعاره أبو الأخزر فجعله للخُفِّ فقال:

ساوَرَها عندَ القُـرُوءِ الـوحـمْ في الأرض ذات الظّبيات الجحمْ

وقد قال الأوَّل:

بغُرمولٍ وفلك مُدَمْـلَـكٍ ظَبْيَيْها الحِصانُ المُشَبِّقُ

وهو من الظِّلف والخُفِّ الحَيا، والجمع أَحيية، وهو من السبع ثَفْر، وقد استعاره الأَخطلُ للظِّلْف فقال:

اللَّه عنّا الأَعْوَرَيْنِ مَلاَمَةً وعبلة ثَفْر الثّوْرَةِ المتَضَاجِـمِ

فلم يرضَ أن استعاره من السَّبُع للبقرة حتَّى جعل البقرة ثورة، وقد استعاره النَّابغـةُ الجَعـديُّ للحافر، كما استعاره الأخطل للظِّلف، فقال:

بَلَّ البَرَاذين ثَفْـرَهـا شَرِبتْ مِنْ آخر الليل أُيَّلاَ

وقد قالوا بِرذونة، وقال الرَّاجز:

تزَحْزَحي إليك يا بِرذَوْنهْ إنّ البراذِينَ إذَا جَرَيْنَـهْ
الجيادِ ساعَةٌ أَعيَيْنَهْ

وقد استعاره آخرُ فَجَعَلهُ للنعجة فقال:

عمرُو إلاَّ نَعْجَة سَاجِـسِيَّةٌ تحْتَ الكَبْشِ والثَّفْرُ وَارِمُ

والسَّاجِسِيّةُ: ضأنٌ في تغلب، وقد استعاره آخرُ فجعله للمرأة فقال:

بنو عَمْرَة في انتِسابِ بنت سُويد أكْرَم الضِّبـابِ
من ثفْرِها المِنْجَابِ

ويقال لجُردان الحمار غرمول، وقد يقال ذلك للإنسان وقضيبِ البعيـر، وهـو لكـلِّ شـيء، ومِقّلـم الجمـل فقـط، ومـن السـباع العقدة، وأصله للكلب والذِّئب، وقال جرير:

رَوِينَ عَلَى الخنزير من سَكَرٍ يا أعْظَمَ القَسِّينَ جُرْدَانـا

ويقال: صرفت الكلبة صـرافاً وصِـروفاً، وظلعـت تظلـع ظلوعـاً، وقالوا في الأمثال: لا أفْعَلُ حتَّى ينـامَ ظـالِعُ الكلاب أي الصـارف،

ولم يعرف الأَصمعِيُّ ظلعت الكلبة بمعنى صَـرَفت، واسـتحرمت، وأجْعَلت واستجعلت، واستطارت، والذئبة في ذلك كالكلبة، قـال: ويقال في السِّباع: قد وَضَعت، وولَـدت، ورمصَـت مثـلَ مـا يقـالُ للنَّاس والغنم.

بحث في المذكر من الحيوان ومؤنثه

قال: ويقال كلبة وكلب، وذئبة وذئب وبِرذون وبرذَونة، وأنشد:

إذا ما جالت الخيْلُ جَوْلةً أنتَ على بِرْذَوْنَةٍ غيرِ طائِل

ويقال رجل ورجال، وامرأة ونساء، وليس لها جمعٌ من واحدها، ويقـال بعيـر وناقَـة وجمـل، ولا يقال جملة ولا بعيرة، وقد قالوا رجل ورجلة وشيخ وشيخَة، ويقال كبش ونعجة، ولا يقال كبشـة، كما لا يقال أسدة، ويقال أسد ولبوة ولبوات، ويقال ذئبة وذئب، وقال الشاعِرُ:

ضِبْعانَةٌ في مَفـازَةٍ وذِئْبةُ مَحْلٍ أمُّ جِرْوَينِ تعسلُ

ويقال إنسان وإنسانَةٌ، وسبع وسبعة، وحمـام وحمامـة، وحمـارٌ وحمـارة، وسِـرْحان وسـرحانَة، وَسِيدٌ وسِيدة، وهِقل وهِقلة، وإلق وإلّقَة، وَقال رؤبة:

وجدَّتْ إلقَةً من الإلقْ

وزعم أنَّه يقال ضبع وضبعة، وثعلب وثعلبة، وأصحابُنا لا يقولـون هـذا ويضـحكون ممـن يقولـون ضَبُعة عرجاء، ويقال ثُرمُلة، ويقال من الفراخ فرخ وَفرخة، ومن النمور نَمِر وَنَمِرة، قال: ويقـال ذِيخٌ وذِيخَةٌ، وضِبْعان وَضِبْعانَةٌ، وجيأل وجَيْأَلة، ويقـال عقـرب وعقرَبَـة، والعُقرُبـان الـذَّكَر وحـدَه، وقال الشاعِرُ:

مَرْعى أُمَّكُمْ إذْ غَدَتْ عَقْرَبَةٌ يكُومُها عُقْرُبـانْ

ومن الضفادع ضفدَع وَضفدَعَة، ومن القنافذ قُنفُذ وقُنفذة، وشَيْهَمٌ وشَيهمةٌ، ومـن القـرود قـرد وقردة، ويقال إلْقة و قِشَّة، ولا يقال إلْـق وقِـشّ، ويقـال لولـد القـرد رُبَّـاح والأُنـثى إلقـة، وقـالَ الشَّاعِرُ:

تُرغِث رُبَّاحـهَـا والسَّهْلُ والنَّوفَلُ والنَّضْرُ

ومِن النعام هِقل وَهِقلة، وهَيق وهَيقَةٌ، وصَعل وصَعلة، وسفَنَّج وسفَنَّجة، ونعامٌ وَنعامة، والواحـد من فراخها الرأل والجمع رئال ورِئلان وأرآل وأرؤل، والأُنثى رألـة، وحفّانـةٌ والجمـع حَفّـان، وقـد يكون الحَفّان أيضاً للواحد، ويقال لها قِلاص والواحدة قلوص ولا يقـال قلوصـة، ويقـال ظليـم ولا يقال ظَلِيمة، ويقال نِقْنِق ولا يقال نِقنِقة، ويقال من الأَرانب أرنب ولا يقال أرنبـة، والـذكر خُـزَز، ويقال للأُنثى عِكْرِشة ولولدها خِرْنِق، ويقال هذه أرنب وهذه عقاب، ولا يقال هذا الأَرنب ولا هـذا العقاب، وقال الشَّمَّاخ:

تنفكُّ بين عُويرِضَـاتٍ تجرّ برَأسِ عِكْرِشَةٍ زَمُوعِ

قال ويقال لولد الكلب جـروٌ والأُنـثى جـروة، وهـو دِرْص والجمـع أدراص، ويقال لمن عضَّه الكَلْبُ الكَلِبُ: بالَ كأدراص الكلاب.

بدء الإبصار عند أولاد السباع

وجرو الكلـب يكـون أعمـى عَشـرةَ أيـام وأكثَـر، وقـد يعـرِض شـبيهٌ بـذلك لكـثيرٍ مـن السِّـباع. استطراد لغوي ويقال بصبص الجروُ وفقَّح وجصَّـص، إذا فتـح عينيـه شـيئاً، وصأصـأ إذا لـم يفتـح عينيه، ولذلك قال عبيد اللَّه بن جحش، والسَّكران بن عمرو، للمسلمين ببلاد الحبشة: إنَّـا فَقَّحنـا وصأصأتم، قال بعض الرُّجاز في بعض الصِّبيان:

مِنْ وَلَد وأَشْـقِـحِ مثْلَ جُرَيِّ الكلْبِ لم يفقِّح
يَسْرِ سارٍ لم يَقُمْ فيَنبَـحِ بالبابِ عِنْدَ حاجةِ المستَفْتِحِ

ويقال لولد الأَسد جرو وأَجراء وجِراء، وهي لجَميـع السـباع، ويقـال لـه خاصَّـةً: شِـبْل، والجمـع أشبال وشُبول، وقال زُهير:

أَشجَعُ حِينَ تتَّجِهُ ال أبطالُ مِنْ لَيْثٍ أبي أَجْر.

خبث الثعلب

وحدَّثني صديقٌ لي قال: تعجَّبَ أخُ لنَا من خُبث الثَّعلب، وكان صاحبَ قَنص، وقَالَ لي ما أعجب أمر الثعلب يفصل بين الكلب والكلاَّب، فيحتالُ للكَلاَّب بما يعلم أنَّه يَجوز عليه، ولا يحتال مثل تلك الحيلة للكلب، لأنّ الكلب لا يَخفى عليه الميِّت من المغشيِّ عليه، ولا ينفع عنْدَه التَّماوت، ولذلك لا يُحمل من مَات من المجوس إلى النَّار حتى يُدَّنَى منه كلبٌ، لأَنّه لا يَخفى عليه مغْمُور الحِسِّ أحَيٌّ هُوَ أو ميت، وللكلب عند ذلك عمل يستَدِلُّ بِهِ المجوس، قال: وذلك أنِّي هَجَمْتُ على ثعلبٍ في مَضيق، ومعي بُنَيٌّ لي، فإذا هو ميِّتٌ منتفِخٌ، فصدَدْت عنه، فلم ألَبثْ أن لحِقتني الكلاب، فلمَّا أحسَّ بها وثَب كالبرق، بعد أن تحايَدَ عن السَّنن، فسألت عن ذلك فإذا ذلك من فِعلِه معروفٌ، وهو أنْ يستلقيَ وينفخَ خواصرَه ويرفعَ قوائمه، فلا يشكُّ مَن رآه من الناس أنّه ميِّت منذُ دهر، وقَدْ تَزكَّرَ بالانتفاخِ بدنُه، فكنتُ أتعجَّب مِنْ ذلك، إذْ مررْتُ في الزُّقاق الذي في أصل دار العبَّاسيّة ومنفَذه إلى مازن، فإذا جرو كلبٍ مهزولٌ سيِّئ الغذاء، قد ضربه الصِّبيان وعقَروه ففرَّ منهم ودخل الزُّقاق، فرمى بنفسه في أصل أُسطُوانة وتبِعوه حتَّى هَجمُوا عليه، فإذا هو قد تَمَاوَتَ فضربوه بأرجلهم فلم

يتحرَّكْ فانصرفوا عنه، فلمَّا جاوزُوا تـأمَّلت عينَـه فـإذا هـو يفتَحُهـا ويُغمِضها، فلمّا بعدوا عنه وأمِنَهـم عـدا، وأخـذَ فـي غيـر طريقهـم فأذهَبَ الذي كان في نفسي للثَّعلب، إذا كان الثَّعلب ليس فيه إلاَّ الرَّوَغان والمكر، وقد ساواه الكلبُ في أجودِ حِيلهِ.

مقايسة بين الثعلب والكلب

ومع الكلب بعدُ ما ليس مَعَهُ، إلاَّ أنْ يُفخَر بفروته فـي موضـع انتفـاع النَّـاس بـه، فجعْـر الكلـب للذُّبحة أنفع منه، إذ كان في الذُّبحة الموت وليس يقوم مقامه شيءٌ، وجلد الثّعلـب منـه عِـوَض. قول صاحب الديك في الكلاب قال صاحب الديك: شِرار عِبـاد اللَّـه مَـن قتـل أولادَ رسـولِ اللَّـه صلى الله عليه وسلم ولم نجدْ شعراءَ النَّاس شبَّهوا أولئك القاتلين بشيءٍ سوى الكلاب، قال أبو نضلة الأبَّار، في قتل سلم بن أحوز المازنيِّ، صاحب شرطة نَصْرِ بن سيَّار اللَّيثي، يحيى بـنْ زَيـدٍ وأصحابه، فقال:

لَيثاً ما الذي خَتَمـتْ بـهِ ... لها الوَيْلُ في سُلطانِها المتخاذِلِ
تعاوَتْ لاهَدَى اللَّه سُبْلَهافجاءتْ بصَيدٍ لا يحـلُّ لآكـلَ
بنفسي وأهلي فاطميٌّ تقنَّصنَوما نَ عمَى مِنْ أمَّةٍ وتخـاذل
كشفت للنّاس ليثٌ عنوغابَ قَبيلُ الحقِّ دُونَ القبائِل

قال صاحب الديك: وروى هُشيم عن المغيرة عـن إبراهيـم قـال: لم يكونُوا ينْهَوْنَنَا عن شيءٍ مـن اللعـب ونحـنُ غِلمـانُ إلاَّ الكلاب. التقامر بالبيض وذكر محمَّد بن عجلان المدينيّ عن زيد بن أسـلم، أنّه كان لا يرى بأساً بالبيض الذي يتقامر بِهِ الفتيان، أن يُهدَى إليـه

منـــــــــــه شـــــــــــيء أو يشـــــــــــتريَه فيـــــــــــأكله.

وهشام بن حسَّان قال: سئل الحسن عن البيض يَلعَب بِهِ الصِّبيان يشتريه الرجل فيأكله، فلم ير بِهِ بأساً وإن أطعموه أن يأكل منـه، والجـــــــوز الـــــــذي يلعـــــــب بِـــــــهِ الصِّـــــــبيان.

وحاتم بن إسماعيلَ الكوفيُّ قَال: حدّثنا عبد الرحمن بـن حَرمَلـة، عن سعيد بن المسيّب، أنّه لم يكن يرى بأساً بالبيض الـذي يلعـب به الصِّبيان.

قتل الحيات والكلاب

قال: وحدَّثني ابن جُريج قَال، وأخبرني عبد الله بن عُبيد بن عمير قال: أخبرني أبو الطفيل أنّـه سـمع علـيَّ بـنَ أبـي طـالب يقـول: اقتُلوا من الحيَّات ذا الطُّفيتين، والكلبَ الأسودَ البهيم ذا الغُرَّتيـن.

قال: والغُرَّةُ: حُوَّة تكون بعينيهِ.

قول صاحب الكلب في صقاع الديك

قال صاحب الكلب: قد أخبرني أبو حرب عـن منصـور القصَّـاب، قال: سألت الحسن عن البيض الذي يتقامرون بِـهِ، فكرهـهُ. ومـا

رأينا قطُّ أحَداً يريد الدِّلاج ينتظر صُقَاع الدِّيك. وإنَّما يوالي الـدِّيك بين صياحه قُبيل الفجر ثمَّ مع الفجر إلى أن ينبسط النهار؛ وفيمـا بين الفَجر وامتدَادِ النهار لا يحتاج النَّاس إلى الاستدلال بأَن يصوِّت الديك. ولها في الأسحار أيضاً بالليل الصَّيحة والصَّـيحتان، وكـذلك الحمار. عَلَى أنّ الحمارَ أبعدُ صوتاً، وأجدر أن ينبِّه كلَّ نائمٍ لحاجـةٍ إن كانت له. وما رأينا صـاحبَ سَـحُورٍ يسـتعمله، وكـذلك صـاحب الأذان، وما رأيناه يتَّكـل فـي وقـتِ أذانِـه عَلَـى صـياحِ الـدِّيك، لأَنّ صورَةَ صـوتِه ومقـدارَ مَخرجـهِ فـي السَّـحَر الأَكـبر كصـياحِه قبـلَ الفجر. وصياحَهُ قبلَ الفجر؛ كصياحِه وقـد نـوَّر الفجـرُ وقـد أضـاء النهار. ولو كان بين الصيحتين فرقٌ وعلامةٌ كانَ لعمري ذلك دليلاً. ولكِنَّهُ مَن سمع هُتافه وصُقاعَهُ فإِنَّما يفزع إلى مواضـع الكـواكب، وإلـــــى مطلـــــع الفجـــــر الكـــــاذب والصـــــادق. والديك له عِدَّةُ أصواتٍ بالنَّهار لا يغادر منها شيئاً؛ ولتلـك أوقَـاتٌ لا يحتـاج فيهـا النَّـاس إليـهِ. وملوكُنـا وعلماؤنـا يسـتعملون بالنَّهـار الأَسطُرلابات وبالليل البَنكامات، ولهم بالنّهار سوى الأسطرلاباتِ خطوطٌ وظلٌّ يعرفون بِهِ ما مَضى من النهار ومـا بقـي. ورأينـاهم يتَفَقَّدُون المطالع والمجارِيَ. ورأينا أصـحابَ البَسـاتين وكـلّ مَـن

كان بقُـرب الرِّيـاض، يعرفـون ذلـك بريـح الأَزهـار. ورأينـا الـرُّومَ وَنَصَارى القُرى يَعرفُون ذلك بحركاتِ الخنازير وبِبُكُورهـا وغـدوِّهَا وَأصواتها؛ ولذلك قالوا في وَصف الرجل: له وَثبة الأسد، ورَوَغـان الثعلب، وانسلاب الذِّئب وجَمـع الـذرّة وبُكـور الخِنزيـر. والرَّاعـي يعرف ذلك في بكـور الإبـل وفـي حنينهـا وغيـرِ ذلـك مـن أمرهـا. وللحَمام أَوقاتُ صياحٍ ودُعاءٍ مـع الصُّـبح وقبيـلَ ذلـك علـى نسَـق واحد، ولكنَّ النَّاس إنَّما ذكروا ذلـك فـي الـدِّيك والحمـار، لامتـداد أصواتهما.

هديل الحمام

وهديلُ الحمامِ ودعاؤه لا يَجوزُ بعيداً، إلاَّ مـا كـان مـن الوراشـين والفَواخِت في رُءُوس النَّخل وأعـالي الأشـجار، فلعمـري إنَّ ذلـك لمَا يُسمَع من موضع صالح البعد.

ما يصيح من الطير مع الفجر

وللعصافير والخطاطيفِ وعامَّة الطَّير، ممَّا يصفِر أو يُصرصِر، وممّا يهدِل مـع الفجـر إلـى بُعيـدِ ذلك - صِياحٌ كثير. ثمَّ الذي لا يدع الصِّياح في الأسحار مع الصبُّح أبداً الضُّوَع، والصَّـدَى، والهامَـةَ، والبُومـة وهـذا الشَّـكلُ مـن الطَّيـر. وقـد كتبنـا فـي غيـر هـذا الموضـعِ الأشـعارَ فـي ذلـك.

كتاب الحيوان
الجاحظ

قال: وقد يصيح مع الصُّبح البُوم، والصدى والهام، والضُّوَع والخطاطيف، والعصافير، والحُمَّرُ في ذلك الوقت أكثَرَ من الدِّيَكة. قال الوليدُ بن يزيد في ذلك:

سُلَيمى تِيكَ في العـير قفي إن شئتِ أو سِيرِي
أن دَنا الـصُّـبـحُ بأصواتِ العَصَـافـيرِ

وقال كلثوم بن عمرو العَتّابيّ:

بُـحـوَّارِينَ سـاهـرة تكلمَ في الصُّبحِ العَصَافيرُ

فالعَصافير والخطاطيف والحُمّر والحمام والضُّوعان وأصناف البوم كلُّها تقوم مَقام الديك.

وقال ثَعلبة بن صُعَير المازنيّ:

مـا يُدريكِ أن رُبَ فِـتـيةٍ الوَجوهِ ذوي نـدىً ومـآثـرِ
الفُكاهةِ لا تذمُّ سَبطِي الأكفِّ لدى الحروب مساعرِ
لـحـامُـهـم باكرتُهُم بسِـبـاء جَـونٍ مُـتـرَعٍ الصَّباحِ وقَبل لغـوِ الـطـائرِ

صوت الديك وما قيل فيه من الشعر

قال: ويقال لصوت الدِّيَكة الدُّعاء، والزقاء، والهُتـاف، والصُّـراخ، والصُّـقاع. وهـو يهتِـف ويَصـقَع ويزقُو ويصرُخ. وقال جِرانَ العَود:

بك الدنيا ويَغلُـبـك الـهـوىهَالَ خَوَّارُ النَّقَا المتقـصـف
كأنَّا مَغنَـمٌ قـد حـوبـتـه وترغَبُ عن جَزلِ العَطاءِ وتَصدفُ
فموعِدُكَ الشَّطُّ الذي بينَ وأهلِك حتَّى تسمَعَ الديكَ يهـتِـفُ

وقَال الممزَّق العَبديُّ:

تَخِذَت رجلايَ في جَنبِ نَسِيفاً كأُفحوص القَطَاةِ المطـرِّقِ
بجوّ يصرُخ الديك وباتَت بِقاعٍ كادِئ النبت عنـدَهـا سَـمـلَـقِ

وقال لَبيد:

أن دعا ديكُ الصَّباح قدر وِردِ الخامِس المتأوِّبِ

طيور الليل

ويقال للطائر الذي يخرجُ من وَكره باللَّيل البومة والصَّدَى والهامة والصُّوَع والوَطواط والخُفَّاش، وغُراب اللَّيل، ويصيدُ بعضها الفأرَ وسامَّ أبرصَ والقَطا وصِغارَ الحشرات، وبعضها يصيد البعوض والفراش وما أشبه ذلك. والبوم يدخل بالليل على كل طائرٍ في بيته، ويُخرجه منه ويأكُلُ فِراخه وبَيضَه. وهذه الأسماء مشتركة.

ما قيل من الشعر في الهامة والصدى وقال خزيمة بن أسلم:

تَزقُوَن لي هامةٌ فوق مَرقَبٍ زُقاءَ الهامِ أخبَثُ خابِثِ

وقال عبد الله بن خازم أو غيره:

تكُ هامةً بهَرَاةَ تَزقُو فقد أزقَيتَ بالمَروَينِ هاما

وقال توبة بن الحميِّر:

ليلى الأخيليَّة سَلّمتُ عَلَيَّ ودوني جَندَلٌ وصفائح
لسلَّمتُ تسليمَ البشاشةِ إليها صدى من جانب القبر صائح

وقال الرَّاجز:

طامِسَةٍ أعلامُه يَعوِي به الذِّئب ويَزقُو هامُه

وأنشدني في الصدى:

تجشَّمت من جَرَّاكِ والبوم صائح أن كنتِ أسريتِ من أجلي
واالصدى

وقال سُويد بن أبي كاهل في الصُّوَع:

يضِرني غير أن يحسُدَنِي يَزقُو مثل ما يزقو الصُّوَع

قال: في قراءة ابن مسعود: " إن كانت إلا زَقيَةً واحدةً " " ونفخ في الزَّقية " يريد الصُّور.

وصوت الدجاجة القوقأة، تقول هي تقوقئ.

كتاب الحيوان
الجاحظ

شعر في الدجاج

وقال أعرابيٌّ:

يرى عيني جُبيرة زوجَ هَجرَها، قامت عليه النـوائحُ
لا أكثـر الـلـه خـيرهُ رُميصاء قد شابت عليها المسائحُ
أنف خنزيرٍ وساقـا دجـاجٍ وزُؤيتها تَرحٌ من العيشِ تـارِحُ

وقال العُجَير السَّلُوليّ:

إلا غِرارُ العَينِ ساهرةً أُصيب بغيظ آلَ مطلوبِ
تهجُروني فقد بدَّلتُ أيكتُكمْ فَرقَ الدجاج بحفّاز اليَعَاقِيبِ

وقال أبو الأسود الدُّئَلِيّ:

تعلما يا ابنَي دجاجة أنَّني أغُشُّ إذا ما النُّصحُ لم يُتَقَبَّلِ

شعر في هجاء الدجاج وهجاتء من اتخذها

وقال صاحب الكلب: وسنروي في الدجاج ونذكرُ كلَّ من هجاها وهجا مَن اتَّخذها وأشـبهها فـي وجهٍ من الوجوه، قال الراجز:

من نِيرٍ ومـن سُـوَاجِ بالحيِّ قد ملّ مـن الإدلاجِ
رجاجٌ وعلـى رَجَـاجِ يمشون أفواجاً إلى أفـواجِ
الفراريجِ إلى الدجاجِ

وقال عبد الله بن الحجّاج:

يُعرِض أبو العبَّـاسِ عنِّي ويجـعـل ودَّهُ يومـاً لـغـيري
كأن بي عَرُوضاً عن عَرُوضِ ويُبغِضني فإني مـن بَـغِـيضِ
اللـهِ يأسُـو كـلَّ جُـرحٍ ويَجبُر كسرَ ذي العظم المهـيضِ
لك من إذا مـا جـئتُ يومـاً تلقانـي بـجـامـعةٍ رَبُـوضِ
جنبِ الحوانِ وذاك وبئست خُبزة الشَّيخِ الـمـريضِ
فُـحـشٌ

إذا فـزِعـت إلـى أُحـيحٍ فزعتُ إلى مُقـوقـيةٍ بـيوضِ
غَيضةٍ لَقِحـت كـشـافـاً لِفَقحَتِها إذا بَـرَكَـت نَـقِـيضُ

وقالت امرأة في زوجها وهي ترقِّص ابناً لها منه:

من سَـلـفَـعٍ أَفُـوك ومن هِبَلٍّ قد عسـا حَـنِـيكِ
ذي رأسٍ كرأسِ الديكِ

تريـــد بقولهـــا " أشـــهب " أنـــه شـــيخ وشـــعر جســـده أبيـــض وأن لحيتـــه حمـــراء.

وقد قال الشاعر، وهو الأعشى:

المنذر الأشاهب بالحي يمشون غُدوة كالسيوف

وإنما أراد الأعشى أن يعظِّم ويفخِّم أمرهـم وشـأنهم، بـأن يجعلهـم شـيوخا. وأمـا قولهـا: " ذي رأس كـــرأس الـــديك " فإنمـــا تعنـــي أنـــه مخضـــوبُ الـــرَّأس واللِّحيـــة.

وقال الآخر:

خويلة في حيٍّ مجاورةً المدائن فيها الديك والفيلُ
يقارعُون رءُوس العُجمِ فوارس لا عزلٌ ولا ميلُ

قال ابن أحمر:

رأس خلقاءَ من عنقاءَ يبتغى دونها سهلٌ ولا جـبـلُ
مُشرِفةٍ
كمثلك فينـا غـير أن لـنـاشوقاً وذلك مما كلفـت جَـلَـلُ
حيٌّ غدوا من ثَجرَ حيٌّ بنجرانَ صاح الديك
منزلهم فاحتملوا

وقال:

حلولٍ بالرِّكاء وجـامـلٍ سارحاً من حولنا وتَنَشَّرا
إصطبلا وتـلاًّ وجَـرَّةً إذا ما آنس الفجر فرفرا
وبستان ذي ثورين لا لينَ عنده ما طَغَى ناطورهُ وتَغَشمرا

وقال أوس بن حجر:

هراً جنيباً عند مَغرِضِها والتفّ ديكٌ برجليها وخنزيرُ

وقال الحكم بن عبدل:

على بغلٍ تَزُفُّكَ تسعةٌكأنك ديكٌ مائلُ الرأس أعورُ
أثواباً لزينة منـظـرٍ وأنت إلى وجه يزينكَ أفقرُ

وقال النَّمِر بن تَولب:

رَب من حَصَـرٍ وعـيٍ ومن نفسٍ أُعالِجُها عِـلاجـا
حاجات نفسي فاعصِمَنِّي لمضمراتِ النفس حـاجـا
وِليّها وبـرئتُ مـنـهـا إليك وما قضيت فلا خِـلاجـا
وهبتهـا كُـومـاً جِـلاداً أرجِّي النَّسل منها والنِّتـاجـا
وتأمـرنـي ربـيعةُ كـلَّ يومٍ لأشريَها وأقتنـيَ الـدَّجـاجـا
تُغنِي الدجاج الضَّيف عنـي وليس بنافعـي إلا نِـضـاجـا
أأهلكهـا وقـد لاقـيتُ فـيهـا الطعن والضرب الشِّجاجا
باطلاً غدوات صُهبـى على الأعداء تختلجُ اختـلاجـا
الشدِّ شـائلةُ الـذُّنـابـى تخال بياض غُرتهـا سِـراجـا
في الـكـريهة كـل يومٍ الأصوات خالطت العَجَاجـا

وقال عبد الرحمن بن الحكم:

وللأنصار آكل في قُـراهـا لخُبث الأطعماتِ من الدجاج

وقال الآخر لصاحبه:

بديكك الـسَّـلاَّحِ فنجِّنا من مُنتنِ الأرواح

وقـالوا: " هـو أسـلح مـن حُبـارى " سـاعة الخـوف، ومـن " دجاجـةٍ " سـاعة الأمـن.

وقال عقيل بن علَّفة:

أشهدن خيلاً كأن غُبـارهـا لأسفلِ عِلكد دواخنُ تـنـضُـبِ
على رَمضٍ كأن عُيُونـهـم فِقاحُ الدجاج في الوَدِيِّ المعصبِ

كلب الرفقة

وقال صاحب الديك: حدَّث الأصمعيُّ قال: أخبرني العلاء بن أسلم قال: أردت الخروج إلى مكـة المعظَّمة، شرَّفها الله تعالى، فجاءني هشام ابن عقبة - وهو أخو ذي الرُّمة - فقـال لـي: يـا ابـن أخي، إنك تريد سفراً يحضُر الشيطان فيه حضوراً لا يحضره في غيره، فاتّقِ الله وصلِّ الصلوات لوقتها فإنك مصليها لا محالة، فصلِّها وهي تنفعك، واعلم أن كل رُفقةٍ كلباً ينبح عليهم، فإن كـان

كتاب الحيوان
الجاحظ

نهبٌ شَرِكوه فيه، وإن كان عارٌ تقلّده دونهم فلا تكن كلب الرُّفقة !! وقد رووا شبيهاً بذلك عن تبيع بن كعب.

أم كلبة وقال زيد الخيل:

نصر بني قعينٍ إنما أنتم إماءٌ يتَّبعن الأشترا
فضلةأبر كلبٍ منغط الكلاب بعجبه فاستَثفَرَا

قال: فلما قدم زيد من عند النبي صلى الله عليه وسلم قال " أبرح فتى إن لم تدركه أم كلبة، يعني الحمَّى.

الكلب بين الهجاء والفخر وقال جرير في البعيث:

لاقيت البَعيثَ وجدته أشحَّ على الزاد الخبيثِ من الكلب

وقال صاحب الكلب: وقد قال عمرو بن معد يكرب:

كنتُ إذا ما الح الخيلَ بالخيلِ يُّ يوماً كَرِهُوا صُلحي وأكفِي النَّبحَ بالنّبح

استعارات من اسم الكلب قال ومن الاستعارات من اسم الكلب قول الرجل منهم، إن أوطن نفسه على شيء: قد ضَرَبت جَروَتي، وضربت عليه. وقال أبو النّجم:

إذا ما ابيضَّ جرو التّنفُل وبُدِّلت والدهر ذو تبدُّلِ

وقال:

الحنظل العاميِّ جروٌ مفلَّقُ

وقال عُتبة الأعور:

الذين أحبُّهم وبقيت فيمن لا أحبه
يزال كريم قو مي فيهم كلبٌ يسُبُّه

احتقار العرب للصيد

قال صاحب الديك: فخرتم علينا بصيد الكلب، وهجوتم الديك إذ كان مما لا يصيد ولا يصاد به، وقد وجدنا العرب يستذلُّون الصيد ويحقرون الصياد، فمن ذلك قول عمرو بن معد يكرب:

زيادٍ أنتم في ونحن فروع أصل

قــومــكــم طَــيِّبِ
الخميس إلى الخميس
بالقهر بين مربِّق ومكلِّبِ

يحسَبَنَّ بنو طُليحةَ حربنا سوق الـحـمـير بـحـانةٍ
فـالــكــوكــبِ

عـن الـمـعـروفِ سـعــيُطلـبُ الـوُعـول بـوفـضةٍ
أبــيهــمُ وبــأكــلُــبِ

يكـهَّـنَ بـعــد شَــيبٍ ترحـاً لـه مـن كـاهــن
شــامــل مــتــكــذِّبِ

الاشتفاء بدماء الملوك والأشراف

وأما قول زهير:

يُقتلو فيُشتَفَى بدمـائهـم قديماً من مَنَاياهم القتلُ

فهذا البيت نفسه ليس يدلُّ على قولهم أن كل من كان به جنـونٌ أو كلَبٌ ثم حسَا من دم ملكٍ أو سيدٍ كريم أفاق وبرئ.

فرار الكلب الكلب من الماء

وقد ضربوا لصاحب الكلب أمثـالاً فـي شـدَّة طلبـه المـاء، وفـي شـــــــــدَّة فـــــــــراره منـــــــــه إذا عـــــــــاينه.

وقالوا وقلتم: فالماء المطلوب إذا عاينه من غيـر أن يمسَّـه، وهـو الطالب له ولم يحرص عليه إلا من حاجة إليه. فكيف صـار إذا رآه صاح ? ! قالوا: وقد يعتري الناظر إلى الماء، والذي يديم التَّحديق

إليه وهو يمشي على قنطرةٍ أو جُرُف أو جسر الـدُّوارُ؛ فـإنه ربمـا رمـى بنفسـه مـن تلقـاء نفسـه إلـى المـاء، وإن كـان لا يحسـن السباحة. وذلك إنما يكون على قدر ما يصادف ذلـك مـن المـرار، ومـــــــــــــــــــــن الطِّبـــــــــــــــــــــــاع.

فمن فعل ذلك بنفسه أبو الجهجهاه محمد بن مسعود، فكاد يموت حتى استُخرج. ومنهم منصور بـن إسـماعيل التمَّـار، وجماعـة قـد عرفـــــــــــــــــــت حـــــــــــــــــــالهم.

ما يعتري المختنق والممرور وهذا كما يعتري الذي يصـيبه الأسـنُ من البخار المختنـق فـي الـبئر إذا صـار فيهـا؛ فـإنه ربمـا اسـتقي واستخرج وقد تغيَّـر عقلـه. وأصـحاب الرّكايـا يـرون أن دواءَه أن يلقوا عليه دِثاراً ثقيلاً، وأن يزمّل تزميلاً وإن كان فـي تمّـوز وآب، ثم يحرس وإن كان قريباً مـن رأس الـبئر؛ فـإنّه إن لـم يُحـل بينـه وبينها طرح نفسه في تلك البئر، أتاها سعياً في أوّل ما يفتح عينَـه ويرجع إليه اليسيرُ من عقله، ثم يُكفي نفسه فيها من ذات نفسِه، في الموضع الذي لقي منه مـا لقـي، وقـد كـان عنـده معلومـاً أنّ القوم لو تركوه طرفـةَ عيـنٍ لهلـك. هكـذا كـان عنـده أيـام صـحةِ عقلـه، فلمّـا فسـد أراه الفسـاد أن الـرّأي فـي العَـود إلـى ذلـك

الموضـــع.

وكما يعترى المرورَ حتى يرجُم النـاس؛ فـإن المِـرَّة تصـوِّر لـه أن الذي رَجَمه قد كان يريد رجمه، فيـرى أن الصـواب يبـدأه بـالرّجم وعلـى مثـلِ ذلـك تُريـه المِـرّة أن طرحـه نفسـه فـي النّـار أجـودُ وأحـــزم.

وليس في الأرض إنسانٌ يذبح نفسَه أو يختنق أو يتردَّى في بئر، أو يرمي نفسه من حالقٍ، إلا من خوف المثلـة أو التعـذيب أو العييـر وتقريع الشـامتين، أو لأن بـه وجعـاً شـديداً فيحـرِّكُ عليـه المِـرَّة فيحمى لذلك بدنُه ويسـخنُ جـوفه، فيطيـر مـن ذلـك شـيءٌ إلـى دماغه أو قلبهِ، فيوهمه ذلك أن الصواب في قتلِ نفسه، وأن ذلـك هـــــــو الرّاحـــــــــة، وأن الحــــــــزم مــــــــع الراحــــــــة.

ولا يختار الخنقَ الوادعَ الرابـح ابلرافـه، السـليمُ العقـلِ والطِّبـاع.

وللغيظ ربما رَمى بنفسه في هذه المهالك، وقَـذف بهـا فـي هـذه المهـــاوي.

وقد يعترى الذي يصعَد على مثل سنسيرة أو عقرَقوفَ أو خضراء زوج، فإنه يعتريه أن يرمي بنفسه مـن تلقـاء نفسـه، فيـرون عنـد ذلك أن يصعد إليه بعض المعاودين المجرّبين، ولا يصنع شيئاً حتى

يشدَّ عينيه، ويحتال لإنزاله. فهذا المعنى عامٌّ فيمن كانت طـبيعته تثـور عنـد مثـل هـذه العلّـة. ومـا اكـثر كمـن لا يعـتريه ذلـك. وقد قال الناسُ في عذر هـؤلاء ولأن فيهـم ضـروباً مـن الأقاويـل. وإنما تكلمنا على المغلوب. فأما من كانت هذه العوارضُ لا تُفسِد عقله، ولا تنقُضُ اسـتطاعته، فليـس بيننـا اختلافٌ فـي أنـه ملـوم. على أن إلزامـه اللائمـةَ لا يكـون إلاّ مـن بعـد خصـومةٍ طويلـة، لا يصلح ذكرها في هذا الباب.

الغراب

لؤم الغراب وضعفه

وقال صاحب الكلب: الغربا من لئام الطيـر وليـس مـن كرامهـا، ومـن بغاثهـا وليـس مـن أحرارهـا، ومـن ذوات الـبراثنِ الضـعيفة والأظفار الكليلة، وليـس مـن ذوات المخـالب المعقَّفـة والأظفـار الجارحة، ومن ذوات المناقير وليس من ذوات المناسر. وهـو مـع أنه قويُّ النَّظر. لا يتعاطى الصيد. وربما راوغ العصفور، ولا يَصـيد الجرادة إلا أن يلقاها في سدٍّ مـن الجـراد. وهـو فسـلٌ إذا أصـاب جِيفةً نال منها وإلا مات هُـزالاً، ويتقمـم كمـا يتقمـم بهـائم الطيـر

وضعافها، وليس ببهيمةٍ لمكان أكلِه الجيف، وليـس بسَـبع لعجـزه عن الصيد.

ألوان الغربان

وهو مع ذلك يكون حالكَ السواد شديدَ الاحتراق، ويكون مثله من الناس الزِّنج فـإنهم شـرارُ النـاس، وأردأُ الخلـق تركيبـاً ومزاجـاً، كمن بردت بلادُه فلم تطبخه الأرحام، أو سخنت فأحرقته الأرحام. وإنما صارت عقولُ أهـل بابَـل وإقليمِهـا فـوقَ العقـول، وجمـالهم فـــــــوق الجمـــــــال لعلـــــــة الاعتـــــــدال. وللغراب إمـا أن يكـون شـديد الاحـتراق فلا يكـون لـه معرفـةٌ ولا جمال، وإما أن يكون أبقعَ فيكـون اختلافُ تركيبـه وتضـادُّ أعضـائِه دليلاً على فسادِ أمره. والبُقع ألأَمُ من السود وأضعف.

أنواع الغربان

ومن الغِربان غراب الليل، وهو الذي ترك أخلاقَ الغربـان وتشـبَّه بـــــــــــــــــــــأخلاق البـــــــــــــــــــــوم. ومنها غرابُ البَينِ. وغـراب الـبين نوعـان: أحـدهما غربـانٌ صـغارٌ

معروفةٌ بالضَّعف واللُّؤم، والآخر " كُـلُ غـرابٍ يُتَشـاءَم بـه. وإنمـا لزمه هذا الإسم لأن الغراب إذا بان أهـلُ الـدار للنُّجعـة، وقـع فـي مرابض بيوتهم يلتمس ويتقمَّم، فيتشاءمون به ويتطيَّرون منه؛ إذا كان لا يعترى منازلهم إلا إذا بانوا، فسمَّوه غراب البين. ثم كرهـوا إطلاق ذلك الاسم له مخلافـة الزَّجـر والطِّيـرَةَ، وعلمـوا انـه نافـذ البصر صافي العين - حتى قـالوا أصـفى مـن عيـنِ الغـراب، كمـا قالوا: أصفى من عين الـدِّيك - فسـمّوه الأعـور كنايـةً، كمـا كنَـوا طيرة عن الأعمى فكنوه أبـا بَصـير. وبهـا اكتنـي الأعشـى بعـد أن عمي. ولذلك سمَّوا الملدوغ والمنهـوش سـليماً، وقـالوا للمهالـك مـــــن الفيـــــافي: المفـــــاوز. وهـــــذا كـــــثير. والغِدقان جنس من الغربان، وهي لئام جداً.

التشاؤم بالغراب

ومــن أجــل تشــاؤمهم بــالغراب اشــتقُّوا مــن اســمه الغربــة، والاغــتراب، والغريــب. وليس فغي الأرض بارحٌ ولا نَطيح، ولا قَعيد، ولا أَعضب ولا شيءٌ مما يتشاءمون بـه إلا والغـرابُ عندَهم أنكدُ منه، يرون أن صِياحَه أكثر أخباراً، وأن الزَّجر فيه أعمُّ. وقال عنترة:

الجناح كأن لحيَى رأسهِ جَلَمانِ، بالأخبار هشٌّ مُولَع

التعاير بأكل لحم الغراب

وهو عندهم عار، وهم يتعايرون بأكل لحمه. ولو كان ذلك منهم لأنه يأكـل اللحـوم، ولأنـه سـبع، لكانت الضوارِي والجوارحُ أحقَّ بذلك عندهم. وقد قال وَعلَة الجَرمي:

بالعار ما عَيَّر تُـمـونـا   شِواءَ الناهِضاتِ مع الخبيص
لحمُ الغرابِ لـنـا بـزادٍ   ولا سَرَطانُ أنهارِ البـريص

فسق الغراب وتأويل رؤياه

قال: والغربانُ جنسٌ مـن الأجنـاس الـتي أمـر بقتلهـا فـي الحِـلِّ والحرم، وسـمِّيت بالفسـق وهـي فواسـق، اشـتقَّ لهـا مـن اسـم إبليـــس.

وقـالوا: رأى فلان فيمـا يـرى النـائمُ أنـه يُسـقِطُ أعظـمَ صـومعةٍ بالمدينة غرابٌ. فقال سعيدُ بن المسيِّب: يتزوح أفسَق الفاسقين امرأةً من أهل المدينة. فلم يلبثوا إلا أيَّاماً حتى كان ذلك.

غراب نوح

وقالوا في المثـل: لا يرجـعُ فلانٌ حـتى يرجـع غـرابُ نـوح، وأهـل البصـرة يقولـون: حتّـى يرجـعَ نشـيطٌ مـن مَـرو، وأهـل الكوفـة يقولون: حتّى يرجعَ مَصقَلة من سِجِسـتان ". فهـو مثـلٌ فـي كـل موضعٍ من المكروه.

قبح فرخ الغراب وفرخ العقاب

وزعم الأصمعيُّ عن خلفٍ الأحمر، أنّه قال: رأيت فرخ غراب فلم أر صورة أقبحَ ولا أسمجَ ولا أبغضَ ولا أقذرَ ولا أنتنَ منه. وزعم أنّ فِراخَ الغربان أنتنُ من الهدهد - على أنّ الهدهدَ مَثَلٌ في النّتن - فذكر عِظَمَ رأسٍ وصِغَرَ بدن، وطولَ منقار وقِصَرَ جناح، وأنّه أمرطُ أسود، وساقط النّفس، ومُنتن الرّيح.

وصاحب المنطق يزعُم أنّ رؤيةَ فرخ العُقاب أمرٌ صعب، وشيءٌ عسير. ولست أحسن أن أقضيَ بينهما.

والغربان عندنا بالبَصرة أوابدُ غير قواطع، وهي تفرخ عندنا في رءوس النّخل الشّامخة، والأشجار العالية.

أسطورة خداع الغراب للديك

فالغرابُ عند العرب مع هذا كلِّه، قد خدع الدّيك وتلعَّب به، ورَهَنه عند الحمّار وتخلّص من الغُرم، وأغلقه عند الحمّار، فصار له الغنم وعلى الديك الغرم، ثمّ تركه تركاًضرب به المثل. فإن كان معنى الخبر على ظاهر لفظه، فالديك هو المغبون

والمخدوع والمسخور به، ثم كان المتلعّب به أنذلَ الطيـر وألأمَـه. وإن كان هذا القولُ منهم يجري مجرى الأمثـال المضـروبة، فلـولا أن عُليا الدّيك في قلوبهم دون محلِّ الغراب - علـى لـؤم الغـراب ونذالته ومُوقه وقلّة معرفته - لما وضعوه في هذا الموضع.

دهاء أمية بن أبي الصّلت

فـإن أردتـم معرفـة ذلـك فـانظروا فـي أشـعارهم المعروفـة، وأَخبارهم الصحيحة ثم ابدءوا بقول أميّة بن أبي الصّلت؛ فقد كان داهيةً من دوهي ثَقيف، وثقيـفٌ مـن دُهـاةِ العـرب، وقـد بلـغ مـن اقتداره في نفسه أنَّه كان قد همَّ بادِّعاء النُّبـوة، وهـو يعلـم كيـف الخصالُ التي يكون بها الرجل نبيّاً أو متنبيّاً إذا اجتمعـت لـه. نعـم وحتّى ترشَّح لذلك بطلب الرِّوايات، ودرس الكُتُب. وقد بـان عنـدَ العرب علاّمةً، ومعروفاً بالجَولان في البلاد، راويةً.

حديث العرب في الغراب

والديك وطوق الحمام

وفي كثيرٍ من الروايات من أحاديث العرب، أن الديك كان نديماً للغـراب، وأنهمـا شـربا الخمـر عند خمّارٍ ولم يعطياه شيئاً وذهب الغرابُ ليأتيه بالثَّمنِ حين شـرب، ورَهـن الـدّيك، فخـاس بـه، فبقـي محبوسـاً.

وأنّ نوحاً صلى الله عليه وسلم حين بقي في اللُّجّة أيامـاً بعـث الغـرب، فوقـع علـى جيفـةٍ ولـم يرجع، ثم بعث الحمامة لتنظر هل ترى في الأرض موضعاً يكون للسفينة مَرفأً، واستجعَلت علـى نـوحٍ الطَّـوق الـذي فـي عنقهـا، فرشـاها بـذلك، أي فجعـل ذلـك جُعلاً لهـا.

وفي جميع ذلك يقول أمية بن أبي الصلت.

قام ينطق كلُ شـيءٍ وخانَ أمانةَ الديك الغرابُ

يقـول: حيـن تركـه فـي أيـديهم وذهـب وتركـه.

والعامـة تضـرب بـه المثـل وتقـول: مـا هـو إلا غـرابُ نـوح.

ثمّ قال:

وأرسلتِ الحمامةُ بعـد سـبعٍ تدلُّ على المهالك لا تَـهـابُ
هل ترى في الأرض عيناًوغايته من المـاء الـعُـبـابُ
فجاءت بعدما ركضت بقِطَـفٍعليه الثَّأط والطين الـكُـبـابُ
فرَّسـوا الآياتِ صـاغـوا طوقاً كما عُقِدَ السِّـخـابُ
ماتـت تـورِّثُـه بـنـيهـا تُقتل فليس لها اسـتـلاب
الأفعـى يربِّـيهـا لـديه وذي الجِنِّـيِّ أرسـلـه يتـابُ
المنية بـأمَـنـنـهـا ولا الجنيُّ أصبح يُسـتـتـابُ

الجنّيّ: إبليس؛ لذنوبه. والأفعى هي الحيَّة الـتي كلـم إبليـس آدم من جوفها. ومن لا علم عنده يروي أيضاً أن إبليس قد دخل جوف الحمار مرَّة؛ وذلك أن نوحاً لمَّا دخل السفينة تمنَّع الحمار بعسـره ونّكّده، وكان إبليسُ قد أخـذ بـذَنَبه. وقـال آخـرون: بـل كـان فـي جوفه فلما قال إبليس للحمار: ادخل يا ملعـون ! ودخـل الحمـار، دخل إبليـس معـه؛ إذ كـان فـي جـوفه. قـال: فلمـا رآه نـوحٌ فـي

السفينة قال: يا ملعون من أدخلك السفينة ؟ قال: أنـت أمرتنـي.

قال: ومتى أمرتك ؟ قال: حين قلت، ادخل يا ملعون، ولم يكن ثَمَّ ملعون غيري

شعر أمية في الديك والغراب والحمامة

قال أميَّة بن أبي الصلت:

أبدى من كلّ ما يأثُر النا س أماثيلَ باقياتٍ سُـفـورا
النَّخل مصعداتٍ تراها تقصف اليابساتِ والخضُّورا
والتّماسيح والتمـاثـيل والأُيِّل شتّى والرِّيمَ واليَعفـورا
وصواراً من النواشطِ عِينـاً ونعاماً خواضباً وحـمـيرا
وأُسـوداً عـواديا وفــيولاً وذياباً والوحشَ والخنـزيرا
تدعو الغراب لصلحٍ وإوَزِّين أخرجت وصقورا

قال: ثم ذكر الحمامة فقال:

اللـه لابـنِ آدم نـوحٍ ربُّنا ذو الجلال والإفضـالِ
أوفى بذي الحمامة والنا جميعاً في فُلكِهِ كالعيالِ
بالصدقِ لمّا رشـاهـا وبقِطفٍ لما غدا عِثـكـالِ

ووصف في هذه القصـيدة أمـر لحمامـة والغـراب صـفةً ثانيـة، وغير ذلك، وبدأ بذكر السفينة فقال:

في جَري كأن أَطِيطَـه صريف مَحالٍ تستعيد الدّواليا
ظهر جونٍ لم يُعَدّ لراكبٍ سراه وغَيم ألبس الماء داجيا
فصارت بها أيامها ثَمّ سبـعةً وستَّ ليالٍ دائباتٍ غـواطـيا
بهم تهوي بأحسن إمـرةٍ كأن عليها هـادياً ونـواتـيا
لها الجودِيُّ نهياً وغـايةً وأصبح عنه موجه متراخـيا

ثم قال:

كتاب الحيوان
الجاحظ

كان أصحاب الحمـامة غداةً غدَت منهم تضم الخـوافـيا

لهم واللـه يُحـكِـمُ أمـرَهُ يبين لهم هل يونسُ الثـوب بـاديا

فجاءت بقِطفٍ آيةً مـسـتـبـينةً فأصبح منها موضع الطين جـاديا

خطمِها واستوهبت ثّمَّ طوقهـا ألا لا تجعل الطوق حالـيا

ذهباً، إني أخافُ نـبـالـهـم خالونه مالـي ولـيس بـمـالـيا

على طرقي من الحَلي تُصيب إذا أتبعت طوقي خضابـيا

لطرف العينِ منك وأرِّث إذا ما متُّ طوقس حمامـيا

لأولادي جـمــلاً وزينةً ويهـوين زينـي زين أن يرانـيا

ثم عاد أيضاً في ذكر الديك فقال:

غرو إلا الذيك مدمـن خـمـرةٍ غـرابٍ لا يمـل الـحـوانـيا

ومَرهَنُه عن الـغـراب حـبـيبَـه فأوفيت مرهوناً وخلفـاً مـسـابـيا

علي الديك إنبـي كـمـا فأقبل على شـأنـي وهـاك ردائيا

لا تلبَث من الـدَّهـر نصفها حتـى تـئوب مـآبـيا

تدركنك الشمسُ عند طلوعـهـا فأعلـقَ فـيهـم أو يطـول ثـوائيا

الـغـراب والـرداء يحـوزهالديك وعداً كـاذبـاً وأمـانـيا

ذنــبٍ أو بــأية حُــجةٍأدعك فلا تدعـو عـلـي ولا لـيا

نذرت حَجَّةً لـن أعـوقـهـاتدعـو بـي مـرة مـن ورائيا

تطيرت منها والدعـاء يعـوقـنـي وأزمعت حَجاً أن أطـير أمـامـيا

تيأسن إني مع الصُّبـح بـاكـرٌ أوافي غداً نحو الحجيج

الـغـواديا

امرئٍ فاكهتُه قبل وآثرت عمداً شأني قـبـل حَـجَّـتـي شـانـيا

ظن الجـديك إذ زال وطال علـيه الـلـيل ألا مـفـاديا

أضاء الصُّبح طـرَّب غرابُ هل سمـعـت نـدائيا صـرخةً

وده لو كـان ثـم مـجـيبـه له ندمـان صـدقٍ مـواتـيا

وأمسى الغراب يضرب الأرض وأضحى الديك في القِدِّ عانـيا

مما أسهب الـخـمـر لـبَّـه ندماناً مـن الـطـير عـاديا

ما يلقم فراخه وما يزقها

قال: ومن الطَّير ما يُلقم فِراخه مثـل العصـفور؛ لأنَّ العصـفور لا يـــــــــزقّ. وكـــــــــذلك أشـــــــــباه العصـــــــــفور.

ومن الطير ما يزق فراخه، مثل الحمـام ومتـا أشـبه ذلـك كبهـائم الطير الخالصة؛ لأن الدّجاجة تأكل اللّحم، وتلَغُ فـي الـدم، وولـدها حين يخرج من البيض يخرج كاسباً مليحاً، كيساً بصيراً بما يُعيشـه ويقوته، ولا يحتاج إلى تلقيم سباع الطيرِ والعصـافير لأولادهـا؛ لأن أولادها إذ لم ترضع ولم تلقط الحبَّ كالفراريج أوّل مـا تخـرج مـن البيض ولم تزقَّها الآباء ولا الأمهات كأجناس الحمام، فلا بد لها من تلقيم.

ما له طبيعة مشتركة من الطير

والفرُّوج مشترك الطبيعة، قد أخـذ مـن طببـائع الجـوارح نصـيباً، وهو أكله للحم، وحسوه للدّم، وأكلـه للديـدان ومـا هـو أقـذر مـن الذباب. والعصـفور أيضـاً مشـارك الطِّبـاع؛ لأنـه يجمـع بيـن أكـل الحبـوب واللُّحمـان، وبيـن لقـط الحبـوب وأجنـاسٍ كـثيرة مـن الحيوان، كالنمل إذا طار، وكالجراد، وغير ذلك. وليس فـي الأرض رأسٌ أشبه برأس الحيَّة من العصفورة.

هداية العصفور

والعصفور يتعالى ويطير، ويهتدي ويستجيب. ولقد بلغني أنـه قـد رجع من قريبٍ من فرسخ. وهي تكون عندنا بالبصرة فـي الـدُّور، فإذا أمكنت الثمارُ لم تجد منها إلا اليسير، فتصير من القواطع إلى قاصي النَّخل؛ وذلك أنها إذا مرّت بعصافير القرى وقد سبقت إلى ما هو إليها أقرب، جاوزَتها إلى ما هو أبعد، ثم تقرب الأيام الكثيرة إلى ما هو أبعد، ثم تقرب الأيّام الكثيرة المقدار، في المسافة إلى أكـــثر ممـــا ذكـــرت مـــن الفرســـخ أضـــعافاً. تحنن العصافير وعطفها والعصـافير لا تقيـم فـي دور الأمصـار إذا

شخص أهلها عنها، إلا ما كان مقيماً منها على بيض أو فراخ؛ فـإنه ليس بالأرض طائرٌ أحنى على ولده ولا أشدُّ تعطفاً مـن عصـفور. والذي يدلُّ على أن في طبعها من ذلك ما ليس فـي طبـع سـواها من الطير، الذي تجد من إسعاد بعضهنَّ لبعـض، إذا دخلـت الحيَّـة إلى حُجر بعضهن لتأكل فرخاً، أو تبتلع بيضاً؛ فإن لأبوى الفرخ عند ذلك صياحاً وقلقاً وطيراناً، وتـدفيفاً وترنيقـاً فـوق الحُجـر ودونـه وحواليه، فلا يبقى عصـفورٌ مـن حيـث يسـمع صـياحَهما أو يسـمع أصواتَهما إلا جئن أرسالاً مسعداتٍ، يصنعن معهمـا كمـا يصـنعان. حذر العصفور وليس في الأرض أصدقُ حذراً منه. ويقال إنـه فـي ذلـــــك لأكـــــثر مـــــن العَقعَـــــق والغـــــراب. وخبَّرني من يصيد العصافير قال: ربما كان العصفور ساقطاً على حائط سطح بحذائي، فيغمُّني صياحُهُ وحدة صوته، فأصيح وأومـئ إليه بيدي، وأشير كأني أرميه، فما يطير. حـتى ربمـا أهـويت إلـى الأرض كأني أتَناول شيئاً، كل ذلك لا يتحرك له. فـإن مسَّـت يـدي أدنى حصاة أو نواةٍ وأنا أريـد رميهـا، طـار قبـل أن تسـتمكن منهـا يـــدي.

سفاج العصفور وأثره في عمره وليس في الطَّير أكثر عددَ سِفادِ

من العصافير، ولذلك يقال إنّها أقصر الطَّير أعماراً. ةيقال إنّه ليس شيءٌ مما يألَف الناس ويعايشهم في دورهم أقصر عمراً منها. يعنون: من الخيل والبغال والحمير، والبقر والغنم، والكلاب والسّنانير، والخطاطيفِ والزرازير، والحمام والدّجاج. نقزان العصفور ولا يقدر العصفور على المشي، وليس عنده إلا النَّقزان، ولذلك يسمَّى النَّقَّاز، وإنما يجمع رجليه ثم يثب، وذلك في جميع حركاته، وفي جميع ذهابه ومجيئه. فهي الصَّعو، والعصافير، والنقاقيز. وإن هو مشى هذه المشية -التي هي نَقَزان - على سطحٍ وإن ارتفع سمكه، فكأنك تسمع لوطئه وقع حجرٍ؛ لشدة وطئه، ولصلابة مشيه. وهو ضدُّ الفيل؛ لأن إنساناً لو كان جالساً ومن خلف ظهره فيلٌ لما شعر به، لخفّة وقع قوائمه، مه سرعة مشي وتمكينٍ في الخطا.

سبُعِية الرَّخم والنسر

والرَّخم والنَّسر سباع، وإنما قصَّر بها عدم السلاح. فأما البدن والقوّة ففوق جميع الجوارح، ولكنها في معنى الدّجاج، لمكان البراثن ولعدم المخالب.

وفاء العصافير ولقد رأيت سِنَّوراً وثب على فرخ عصفورٍ فأخطـأه فتناول الفرخ بعض الغلمان فوضعه في البيت، فكان أبـوه يجيـء حتى يطعمه، فلما قوي وكاد يطير جعله فـي قفـص، فرأيـت أبـاه يجيء يتخرق السّنانير وهي تهمّ به، حتى يدخل إليه من أعلى فتح البـاب، وهـي تهـمُّ بـالوثوب والاختطـاف لـه، حـتى يسـقُط علـى القفص فينازعه سـاعة، فـإذا لـم يجـد إلـى الوصـول سـبيلاً طـار فسقط خارجاً من البيت، ثـم لا يصـبر حـتى لا يعـود. فكـان ذلـك دأبـــه. فلمـــا قـــوي فرخـــه أرســـلوه معـــه فطـــارا جميعـــاً. وعرفنا أنه الأبُ دون الأمِّ لسواد اللِّحية.

القول في سماجة صوت الديك

قال: والدليلُ على أن صوت الديك كريهٌ في السَّماع، غيرَ مطربٍ، قول الشاعر:

الصَّبُوح بسُحرةٍ فارتاحـا وأمَّلَه ديك الصَّباح صِياحـا
على شُرَف الجدار غرداً يصفِّق بالجَناح جناحـا

صغر قدر الدجاج

قال: ويدلُّ على صِغر قدر الدجاج عندهم قول بشّار بن بردٍ الأعمى:

يا ابن أقرعَ نلت مالاً ألا إن اللئام لهـم جـدود
نذر الزيادة في الهدايا أقمت دجاجة فيمـن يزيد

أثر كثرة الدجاج في عدد بيضها وفراريجها

قال: وإذا كثر الدجاج في دارٍ أو إصطبل أو قريـة، لـم يكـن عـدد بيضها و فراريجها على حسب ما كان يبيض القليل منهنَّ ويفرخه. يعرف ذلك تُجَّار الدّجاج ومن اتخذها للغلَّة.

رعي الدجاج في مصر

بِمِصر تَرعى كما يَرعَى الغنم، ولها راعٍ وقيِّم.

فراخ الدجاج وفراخ الحمام

والموتُ إلى الـدَّجاج سـريعٌ جـداً، والعـادة فـي صِـغار فراريجهـا خلاف ما عليها نتوُّ فراخ الحمام؛ لأنَّ الفرُّوج تتصـدَّع عنـه البيضـة فـي كيِّـسٌ ظريـف، مليـح مقبـول، مُحَـبٌّ، غنـيٌّ بنفسـه، مكتـفٍ بمعرفته، بصيرٌ بموضع معيشته من لَقط الحب، ومن صَيد الذُّباب وصغار الطير من الهوامّ. ويخرج كاسياً حتى كأَنَّه مـن أولاد ذواتِ الأربع. ويخرج سريعَ الحركة شديدَ الصوت حديـده، يُـدعى بـالنَّقر فيُجيـب، ولا يقـال لـه: قـر، قـر، ثلاث مـرّات - حـتى يَلقنَـه. فـإن استدبره مستدبرٌ ودعاه عطفَ عليه، وتتبع الذي يطعمه ويلاعبــه،

وإن تباعد من مكانه الأوَّل. فهو آلف شيء. ثـمَّ كلمـا مـرت عليـه الأيام ماق وحمق، ونقـص كيسـه، وأقبـل قبحُـه وأدبـر مِلحُـه. فلا يزال كذلك حتى ينسلخ من جميعِ ما كان يُحَبُّ له إلـى ضـدِّ ذلـك، ويصير من حالة إلى حال لم يبلغ الانتفاع بذبحه وبيضِه وفراريجـه، وذهب عنهم الاستمتاع بكيسه. ولا يكاد يقبل الشَّـحم حـتى يلحـقَ بأبيه، وكذلك إن كانت أنثى، لا تقبل السِّمن، ولا تحمل اللَّحمَ حتَّى تكـــــادَ تلحـــــقُ بأُمِّهـــــا فـــــي الجثّـــــة. والفرخ يخرج حارضاً ساقِطاً، أنقصَ من أن يقالَ له مـائق، وأقبـحَ شـيء. وهـو فـي ذلـك عـاري الجلـد مختلـف الأوصـال متفـاوت الأعضاء، ضعيفُ الحوصَلة، عظيم المنقار. فكلَّما مـرَّت بـه الأيَّـام زادت في لحمه وشحمه، وفي معرفته وبصره، حتى إذا بلـغ خـرجَ منه مِن الأُمور المحمودةِ ما عسـى لـو أنَّ واصـفاً تتَّبـع ذلـك لمَلأَ منهُ الأجلاد الكثيرة. ثم إذا جَاز حدَّ الفِراخ إلى حَدِّ النـواهض، إلـى حَدِّ العُتّق والمخالب، قلَّ لحمُه وذهب شحمُه علـى حسـاب ذلـك ينقص. فإذا تـمّ وانتهـى لـم تكـن فـي الأرض دابَّـةٌ ولا طـائرٌ أقـلَّ شحماً ولا أخبثَ لحماً منه، ولا أجدرَ ألاَّ يقبلَ شيئاً من السِّمَن ولو تخيّـروا لـه فـؤارَة المسـمِنات ومـا يسـمّن بـه - مـا سـمِن.

علة قلة البيض إذا كثر الدجاج وسأَلت عن السَّبب الـذي صـار لـه الدَّجَاجُ إذا كثُرن قلّ بيضـهُنَّ وفراخهـنَّ، فزعمـوا أنَّهـا فـي طبـاع النَّخل، فإن النَّخلَة إذا زَحَمت أختهـا، بـل إذا مـسّ طـرَفُ سَـعفِها طرفَ سعفِ الأُخرى وجاورتها، و ضيَّقت عليها في الهواء، وكذلك أطـراف العُـروق فـي الأرض - كـان ذلـك كربـاً عليهـا وغمّـاً. قالوا: فَتدَانيها وتضاغُطُها، وأنفاسها وأنفـاسُ أبـدانها، يُحـدث لهـا فســـــــــــــــــــــــــــــــاداً.

قال: وكما أنَّ الحمامَ إذا كثُرت في الكُنّة والشريحة احتاجت إلـى شمس وإلى ماء تغتسِل فيهِ في بعـض الأحـايين، وإلـى أن تكـون بيُوتُها مكنوسة في بعض الأوقـات ومرشوشـة، وإلاَّ لـم يكـن لهـا كبيرُ بيض. على أنّه إذا كان لها في الصميمين الدِّفءُ فـي الشـتاءِ والكِنُّ في الصّيف، لم تُغادِر الدهر كلَّه أن تبيض.

فخر صاحب الديك بكثرة ما اشتق من البيض

قال صاحب الدِّيك: فخرتم للكلب بكثرة ما اشتقَّ للأَشياء من اسم الكلب، وقد اشتقّ لأكثر من ذلك العدد من البيض، فقالوا لقَلانس الحديد بَيضٌ، وقالوا: فُلاَن يَدفع عن بَيضة الإسلام، وقـالوا: قال عليُّ ابن أبي طالبٍ رضي الله عنه: أنَا بَيضَةُ البَلَدِ. وفي موضع الذمِّ من قولهم:

قضَاعة أن تدري لكم نَسَباًوابنَا نزارٍ وأنتم بَيضَةُ البَلَـدِ

ويسمّى رأس الصَّومَعة والقبّةِ بَيضة. ويقال للمجلِسِ إذا كان معمُورا غير مطوّل بَيـضٌ جاثمـة، ويقال للوعاء الذي يكون فيه الحِبن والخَرَاج وهُوَ الذِي يجتمع فِيهِ القَيح - بيضة. وقال الأشتر بن عُبادة:

غُرُوبَها وَيَغضُّ منهـا وَراء القَوم خشيةِ أن يلامُوا
بَيضَتَين على دِلاَصٍ بِهِ من وَقعةٍ أُخرى كِـلاَمُ

وقال النّابغة:

فَصَبّحَهُم مُلَملَمَةً رَدَاحـاً كَأَنَّ رُؤوسُهم بَيضُ النعام

وقَال العُجيرُ السَّلولي:

البَيضَةُ الصَّمَّاء عضّت صفيحةٌ بِحربَائها صاحَت صِياحاً وصَلّت

شرط أبي عباد في الخمر

ولما أنشدوا أبا عبَّاد النَّمَرِيَّ قولَ ابنِ مَيَّادة، وهو الرَّمَّاح:

غدَوتُ على الفَتَى في القلالُ له بدَرٍّ صـبـابة
قبلَ الصَّباحِ بمُتـرَعٍ نَـشَّـاجِ مثل سخينة الأوداجِ
ثلاثةَ أحرُسٍ في قَوراءَ بَينَ جَوازِل ودَجـاجِ
الغويَّ كأنَّه في نفـسـه يعصَّبُ رأسُهُ بالتَّـاجِ
يحسِب كلَّ شيءٍ العراق نزَلنَ بالأحداجِ

فحين سمعه أبو عبّاد يقول:

ثلاثَةَ أحرُسٍ في دَارةٍ قَوراءَ بَينَ جَوازل ودَجـاجِ

قال: لو وجدتُ خمراً زيتيّة ذهبية، أصفى من عين الديك، وعَين الغراب، ولعـابِ الجُنـدب ومـاء المفاصل، وأحسنَ حمرةً من النّار، ومن نَجِيع غزال، ومن فُوَّةِ الصَّباغ - لَما شـربتها حتَّـى أعلـمَ أنَّها من عصير الأرجل، وأنَّها من نبات القرى؛ وما لم تكدر في الزِّقاق، وأنَّ العنكبوت قد نسَجَت عليها، وأنَّها لم تصر كذلك إلاَّ وسطَ دَسكرةٍ، وفي قرية سَوادِيَّة وحولَها دَجـاجٌ وفراريـج. وإن لـم

تكن رقطاءَ أو فيها رُقط فإنَّها لم تتمَّ كما أريد. وأعجَب من هذا أنّي لا أنتفع بشُربها حتَّى يكون بائُعها على غير الإسلام، ويكونَ شيخاً لا يُفصح بالعربيَّة، ويكونَ قميصُهُ متقطِّعاً بالقار. وأعجب من هذا أنّ الذي لا بدَّ منه أن يكون اسمه إن كان مجُوسيّاً شهريار، ومازيار، ومَا أشبه ذلك، مثل أدير، واردان، ويازان. فإن كان يهوديّاً فاسمه مانشا، وأشلوما، وأشباه ذلك. وإن كان نصرانيّاً فاسمه يُوشع وشمعون وأشباه ذلك.

استطراد لغوي ويقال حَمِسَ الشرُّ وأحمَسَ إذا اشتدّ. ويقال قد احتَمَسَ الدِّيكان احتماساً، إذا اقتتلا اقتتالاً شدِيداً. ويقال وقَعَ الطائر يقَع وُقوعاً. وكلُّ واقعٍ فمصدره الوقوع، ومكانه موقعَةٌ، والجمع مواقع. وقال الرَّاجز:

متنيه من النَفيِّ مواقعُ الطير على الصُّفيِّ

يقال صَفاً وصُفيِّ. والنّفِيُّ: ما نفى الرِّشاء من الماء، وما تَنفيه مشافرُ الإبل من الماء المَدِير. فشبَّه مكانَه على ظهر الساقي والمستَقي بِذَرق الطَّير علَى الصَّفا. ويقال " وقع الشيءُ من يدي وُقوعا، وسقط من يدي سُقوطا ". ويقال وقَع الربيع بالأرض، ويقال سَقط. وقال الرّاعي:

الربيع وقَد تفاربَ خَطوُهُ ورأى بعَقوَتِهِ أزلَّ نَسُولا

لؤم الفروج قال: وكان عِندَنا فرُّوجٌ، وفي الدار سنانيرُ تُعابث الحمامَ وفراخه، وكان الفرُّوج يهرُب منها إلى الحمام، فجاءُونا بدُرَّاج، فترك الحمامَ وصار مع الدُّرَّاج، ثم اشترينا فَروجاً كَسكَريّاً للذّبح فجعلناه في قفص، فترك الدُّرَّاج ولزم قُرب القفَص، فجئنا بِدَجَاجَةٍ فترك الدِّيك وصار مع الدَّجاجة، فَذَكَرتُ قولَ الفِزر عبد بني فَزَارة - وكانت بأُذنِهِ خُربة -: إنَّ الوئام يتَبرَّع في جميع الطَّمش، لا يقرب العنزُ الضَّأن ما وجدت المعز، وتنفر من

المِخلَب ولا تتأنّس بالحفّ. فجعلَها كما ترى تنفر ولا تَأنس منزلـه.

وكذلك حدّثنا الأصمعِيُّ قال: قلتُ للمنتَجِع بن نبهان - وكانت بأُذنِهِ خربة - أكان تميمٌ مسلماً ? قال: إن كان هو الذي سمَّى ابنَه زَيـدَ مناةَ فما كان مُسـلِماً، وَإلاَّ يكـن هـو الـذي سـمَّاه فلا أدري. ولـم يقل: وإلاّ يكن هو سمَّاه فقد كان مسلماً.

الوئام

والوئام: المشاكلة. وقالوا: تقول العرب: " لولا الوئام لهلك الأنام " وقال بعضهم: تأويـلُ ذلـك: لولا أنَّ بعضَ الناس إذا رأى صاحبه قد صنَع خيراً فتشبَّه بِهِ لهلـك النـاس. وَقـال الآخـرون: إنَّمـا ذهب إلى أُنسِ بَعض الناس ببَعض، كأَنَّه قال: إنَّما يتعايشون عَلى مقادِير الأُنس الذي بينهم؛ ولو عمَّتهم الوَحشة عمّتهم الهَلَكة. وقال قَوم بن مَالك، في الوئام:

أُوَائم البخلاءَ فيهـا فأقعد لا أزُورُ ولاَ أُزارُ

وقال الأخطل:

في الدجَى الرَّاحَ صاحَ الدَّجَاجُ وحانت وقفة السَّارِي الشَّمُولَ وقد

وقال جرير:

مَررتُ على الدَّيرَين أرَّقَني الدَّجاج وقرعٌ بالنواقيسِ

شعر في الديكة والدجاج قالَوا: وقد وجدنَا الدِّيَكَةَ والدَّجَاجَ وأفعالَها، مذكوراتٍ في مواضعَ كثيرة، قال ذو الرُّمة:

أصواتَ من إيغالهنَّ بـنـا المَيسِ أصواتُ الفرَاريجِ

وقال الهذلي:

أينها بعـد إبـدانـهـا ومن شحم أَثباجها الهابـط جـنـادِبُـهُ رُكَّـداً صِياحَ المسامِيرِ في الواسط

على كلِّ مستـوفـز سقوط الدَّجَاجِ على الحائط

وقال مَروان بن محمد:

مـا وُرّثَـه راشــدٌ مِن كيلَةِ الأكداس في صفِّهِ
كدسِ قد علا رمسَـه كالدِّيك إذ يعلو عَلَى رَفِّـه

بيضة الديك وبيضة العقر ويقال في المثل للذي يعطـى عطيّـةً لا يعودُ في مثلها: " كانَت بَيضَة الدِّيك ". فإن كان معروف له قيــل: " بَيضة العُقر ".

استطراد لغوي

ويقال دجَاجة بَيوض في دَجاجٍ بيضٍ وبُيض، بإسكان موضع العيـن من الفعل من لغة سفلى مضر، وضمِّ موضع العين من نظيره من الفعـــل مـــع الفـــاء مـــن لغـــة أهـــل الحجـــاز.

ويقال عمد الجرح يَعمَد عَمَداً، إذا عُصر قبل أن ينضـجَ فـورِم ولـم يُخرِج بَيضَـته، وذلـك الوِعـاء والغِلاف الـذي يجمـع المِـدَّة يسـمّى بيضة. وإذا خرجَ ذلك بالعصر من موضع العَين فقد أفـاق صـاحبُه.

ويقال حضَن الطائر فهو يحضن حِضَاناً.

السفاد والضراب ونحوهما

ويقال هو التَّسافد من الطير، والتعاظل من السِّباع: ويقال قَمَط الحمام الحمامة وسفِدَها. ويقال قَعَا الفحلُ يقعو قَعوا، وهو إرساله بنفسه عليها في ضرابه. والفحل من الحفِّ يَضرِب، وهو القَعو والضِّراب. ومن الظِّلف والحافر ينزو نزوا، وكذلك السنانير. والظليم يقعو، وكلّ الطير يقعو قعوا. وأما الحفّ والظِّلف فإنّه يقعُو بعد التسنم. وهو ضرابٌ كلُّه ما خلا التسنُّم. وأما الظِّلف خاصَّة فهو قَافط، يقال قفط يقفُط قفطا. أو القفط نزوة واحدة. وليس في الحافر إلاّ النَّزو. حضن الدجاج بيض الطاوس قال: ويُوضع بيضُ الطاوس تحتَ الدّجاجة، وأكثرُ ذلك لأنَّ الذَّكر يعَبث بالأنثى إذا حَضَنت. قال: ولهذه العلَّة كثيرٌ من إناث طير الوحش يهرِّبن بيضهُنَّ من ذكورتها، ثمَّ لا تضعه بحيث يشعر به ذكورتهُن. قال: ويُوضَع تحتَ الدجاجةِ بيضتان من بيض الطاوس، لا تقوى على تسخينِ أكثرَ من ذلك. عَلَى أنَّهم يتعهّدون الدَّجاجة بجميع حوائِجها خوفاً من أن تقوم عنه فيفسده الهواء.

خصى ذكور الطير

قال: وخُصى ذكـورِ أجنـاس الطَّيـر تكـونُ فـي أوان أوّل السـفاد أعظم. وكُلَّما كانَ الطيرُ أعظم سِفاداً، كانت خصيته أعظمَ، مثـلُ الـــــــــــدِّيك، والقَبَـــــــــــج، والحَجَـــــــــــل. وخُصية العصفور أعظم من خُصيةِ ما يسـاويه فـي الجثَّـة مرَّتيـن. بيض الدجاج قال: وكلُّ ما كان من الدَّجاج أصغرَ جثَّـة يكـون أكـبر لبيضه. وبعض الدَّجّاج يكون يبيض بيضاً كثيراً، وربما باض بَيضـتين في يومٍ واحد؛ وإذا عرض له ذلك كان من أسباب موته.

شعر في صفة الديك

وقَال آخر في صفة الديك:

يؤرِّقني والنومُ يُعـجِـبُـنـي صوتِ ذِي رَعَثاتٍ ساكِنِ الدَّارِ
حُمَّاضةً في رأسهِ نـبـتَـت آخر الليل قد همَّت بإِثـمـارِ

وقال الطِّرمَّاح:

صبحُ كَمِّش غُبَّرَ اللَّيلِ مُـصـعِـداً ونَبِّه ذا الـعـفـاءِ الـمـوشَّـحِ
صاحَ لم يُخذَل وَجـاوَبَحَماشُ الشَّوَى يَصدَحنَ من كُلِّ مَصدَحِ

حضن الحمام بيض الدجاج قال: والفرُّوج إذا خرج من بيضه عـن حضن الحمام، كان أكيسَ له.

بيض الطاوس

وبيضُ الطَّاوس إذا لم تحضنه الأنثى التي باضته خرج الفرخ أَقمأَ وأصـــغَر.

بيض الدجاج قال: وإذا أُهرِمَت الدَّجَاجة فليـس لأواخـر مـا تَـبيض صُفرة. وقد عايَنوا للبَيضَة الواحدة مُحَّتين، خبّرنـي بـذلك جماعـة ممَّن يَتَعَرَّف الأُمور. وإذا لم يكن للبيضة مُحٌّ لم يُخلق مـن البيضـة فرُّوج ولا فرخ؛ لأنَّه ليس له طعام يغذوه ويُربِيه. والـبيض إذا كـان فيه محّتان وكان البياض وافراً - ولا يكـون ذلـك للمسِـنَّات - فـإِذا كان ذلك خلق الله تعالى من البَياض فَرُّوجين، وتربَّـى الفَرُّوجـان، وتمَّ الخلق؛ لأَنَّ الفـرخ إِنَّمـا يخلـق مـن البَيـاض، والصـفرة غـذاء الفروج.

ستطراد لغوي

قال: ويقال قفَط الطائر يقفُط قفطا، وسفِد يسفَد سفاداً وهمـا واحد. ويكون السِّفاد للكلب والشاة. ويقال قَمط الحمام يقمُـط قمطـــا.

ويقال ذَرق الطائر يذرُق ذرقا، وخزَق يخزِق خَزقـا، ويقـال ذلـك للإنسان. فإذا اشتقّ له من الحذقة نفسه ومن اسـمه الـذي هـو

اسمه قيل خرئ، وهو الخُرءُ والخِراء. ويقال للحافر راث يرُوث، وللمعز والشاء: بعر يبعُر. ويقال للنَّعام: صام يَصُوم، وللطير نجا ينجو، واسم نجو النَّعام الصَّوم، واسم نجو الطَّير العُرَّة. وقال الطِّرِمّاح:

شَنَاظِي أُقَنٍ بَينَهَا عُرَّة الطَّيرِ كَصَوم النَّعامِ

ويقال للصبي عَقَى، مأخوذ من العِقى.

ويقال لحمت الطير. ويقال ألحم طائِرَك إلحاماً، أي أطعمه لحما واتّخذ له. ويقال هي لُحمة النَّسب. ويقال ألحمت الثَّوب إلحاما، وألحمت الطائِر إلحاماً، وهي لحمة الثَّوب، ولحمة، بالفتح والضمِّ.

صفاء عين الديك ومن خصال الدِّيك المحمودةِ قولهم في الشراب: " أصفَى مِن عَينِ الدِّيك " وإذا وصفوا عَين الحمام الفَقيع بالحمرة، أو عينَ الجرادِ قالوا: كأنَّها عينُ الدِّيك. وإذا قالوا: " أصفى من عين الغراب " فإنّما يريدون حِدَّته ونفاذَ البصر.

ما قيل في عين الديك وفي عين الديك يقول الأعشى:

كعَينِ الدِّيكِ باكَرت حَدَّها بغرتها إذ غابَ عنها بُغاتُها

وقال آخر:

كعين الديك باكرتُ حدها صِدق والنّواقِيسَ تُضربُ

وقال آخر:

على عُقارٍ كَعين الدِّي ك صفَّى زُلاَلَها الرَّاوُوقُ

وقال الآخر:

أحوال وشَهراً مُجَرَّما كَعينِ العُترُفَان المجاوِبِ

والعُترُفان من أسماء الدِّيك، وسماه بالمجاوب كما سمّاه بالعُترُفان.

وصف الماء الصافي وإذا وصفوا المَاءَ والشَّرابَ بالصَّافي قالوا، كأنّه الدَّمع، وكأنَّه ماء قَطر، وكأنّه ماء مَفصِل،وكأَنّه لعاب الجندب. إلاّ أَنّ هذا الشاعر قال:

مـلآنة بـابـلـيَّة كأنّ حُميَّاها عُيُون الجنَادِب

وقال آخر:

قرقَفٌ من أَذرِعاتٍ كأنَّها سُكِبَت مِن دَنِّها ماءُ مَفصِلِ

المفاصل وماء المفاصل والمفاصِل: ماءٌ بين السَّهل والجَبَل. وقال أبو ذؤيب:

مَطافيلَ أبكارٍ حَدِيثٍ نِتاجُهتلثَابُ بماءٍ مِثلِ ماءِ المَفَاصِلِ

وقال ابن نجيم: إِنَّما عنَوا مَفاصل فَقَارِ الجَمَل؛ لأنّ لكلِّ مَفصِل حُقّا، فيستنقع فيـه مَـاءٌ لَا تجـد مَـــــــــاءً أبـــــــــداً أصـــــــــفى ولا أحســـــــــن منـــــــــه وإِن رقّ.

ثقوب بصر الكلب وسمعه وقال مَرَّة قطربٌ، وهو محمـد بـن المسـتنير النحـويُّ: " واللـه لَفلان أبصرُ من كلب، وأسمعُ من كلب، وأشمُّ مِن كلب " !. فقيل له: أنشدنا في ذلك ما يُشبِه قولَـك. فأَنشد قوله:

البَيتِ قومي غيرَ صاغـرة حُطِّي إليك رِحال القَوم فَالقُرُبـا

ليلةٍ من جُمـادَى ذاتِ أنـدِيَةٍ يُبصِرُ الكلبُ مِن ظَلمَائِها الطُّنُبا

الكلبُ فيها غـيرَ واحـدةٍ يجرَّ على خَيشُومِه الذَّنَـبـا

وأنشد هذا البيت في ثُقوب بصره، والشِّعر لمـرَّة بـن مِحكَـان السـعديّ. ثـمَّ أنشـدَ فـي ثُقـوب السّمع:

السُّرَى لا يَسمَعُ الكَلبُ دُونَ نَبحِ الكلبِ والكلبُ دايب

خصال القائد التركي قال أبو الحسن: قال نصر بن سيَّارٍ اللَّيـثي: كان عظماءُ التُّركِ يقولون للقائِد العظيم القِيادة: لآ بـدَّ أن تكـونَ فيـه عشـرُ خصـالٍ مـن أخلاق الحيـوان: سـخاء الـديك، وتحنُّـن الدجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزيـر، وروَغـان الثعلـب، وخَتـل الـذئب، وصـبر الكلـب علـى الجراحـة، وحـذَر الغـراب، وحِراسـة

الكُركـــــــــــــيِّ، وهدايـــــــــــــة الحمـــــــــــــام.

وقد كتبنا هذا في بابِ ما للدَّجاج والـدِّيك؛ لأنَّ صـاحبَ هـذا الكلامِ قسّم هذه الخصال، فأعطى كلَّ جنسٍ منها خَصلةً واحدة وأعطى جنـــــــــــــس الـــــــــــــدجَاج خَصـــــــــــــلتين.

بعض ما ورد من الحديث والخبر في الديك وعبَّاد بن إبراهـي عـن عبد الرحمن بن زيد قال: كان مكحولٌ يسافر بالـدِّيك. وعنـه فـي هذا الإسـناد عـن رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: " الـدِّيكُ صدِيقي، وصديق صديقي، وعدُوُّ عدوِّ الله، يحفَظ دارَه وأربَـعَ دُور مـــــــــــــــــــــن حـــــــــــــــــــــواليه ".

والمسيب بن شريك عن الأعمش نحسبه عن إبراهيم، قال: قـال رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: " لا تَـذبَحُوا الـدِّيك؛ فـإنَّ الشَّيطَان يُفرَحُ بِهِ ".

ريش جناح الطائر

قال: وليس جناح إلاَّ وفيه عشرون ريشـةً: فـأربعُ قـوادم، وأربـعُ مناكب، وأربع أباهر، وأربع كلىً، وأربعٌ خَوَافِ، ويقال: سبعٌ قوادم، وسبعٌ خَوافٍ، وسائره لقب.

كتاب الحيوان
الجاحظ

والكف والركبة لدى الإنسان وذوات الأربع

قـال: وكـلُّ شـيء مـن ذوات الأربـع فركبتـاه فـي يـديه، وركبتـا الإنسانِ في رجليه، قال: والإنسان كفُّه في يده، والطائر كفه في رجله.

أسنان الإنسان

قال: وفي الفم ثَنِيَّتان ورَبَاعِيتَان ونابان وضاحكان وأربعةُ أرحاءِ سوى ضِرْس الحُكْـم، والنَّواجـذ والعـــــــــــوارض ســـــــــــواء، ومثلهـــــــــــا أســـــــــــفل.

التفاؤل بالدجاجة قال صاحب الدِّيك: والدَّجَاجةُ يُتفاءَل بذِكرها، ولذلك لَّما ولد لسعيد بن العـاص عَنْبَسَةُ بن سعيد، قال لابنه يحيى: أيّ شيءٍ تَنْحَلُه?قال: دَجَاجة بفراريجها يريد احتقاره بـذلك، إذ كان ابنَ أَمَةٍ ولم يكن ابنَ حرّة، فقال سعيد -أو قِيلَ له -: إن صدَقَ الطَّيرُ لَيكـونَنَّ أكـثرَهُمْ ولـداً فهـــــم اليـــــومَ أكـــــثرُهُمْ وَلَـــــداً، وهـــــم بالكوفـــــة والمدينـــــة.

شعر في الدجاج وقال الشاعر:

بشَرْبةٍ مِنْ ذات عِـرْقٍ الدَّهناء من حَلب العصـيرِ
بالعَقَنْقَل ثـمَّ سِـرْنـا العُصفورَ أعظمَ مِن بَعيرِ
الدِّيكَ دِيك بنـي نُـميرِ أميرُ المؤمنين على السَّـرير
دَجَاجَهُمْ في الدَّار رُقطـاً الرُّوم في قُمص الحريرِ
أرى الكَوَاكـبَ دانـيات يَنَلْنَ أنَامِلَ الرَّجُلِ القـصـيرِ
أُدافعهنَّ بالـكَـفـينِ عـنـيِّ وأمسَحُ جَانبَ القَمَرِ المُـنـيرِ

نطق الدجاج قال: ويوصف بالدُّعاءِ وبالمنطق، قال لَبيد بن ربيعة:

وصدَّهُمْ مَنطِقُ الدَّجَاجِ عن وضَرْبُ النَّاقوس فاجْتُـنِـبـا

وقال:

أن دعا ديكُ الصباح بسُحْرةٍ قَدر ورِد الخامِس المتأوّب

دعابـة أعرابـي، وقسـمته للـدجاج قـال أبـو الحسـن: حـدَّثني أعرابيٌّ كان ينزل بالبَصْرة قال: قدِم أعرابيٌّ من البادية فأَنزلته، وكان عندي دَجَاج كثير، ولي امرأةٌ وابنـان وابنتـان منهـا، فقلـب لامرأتي: بَادِري واشوي لنـا دَجَاجَـة وقـدِّميها إلينـا نتغـدَّاها فلمَّـا حضر الغداء جلسنا جميعاً أنا وامراتي وابناي وابنتاي والأعرابـيّ، قال: فدفعنا إليه الدَّجاجة فقلنا له: اقسمِها بيننا - نريد بـذلك أنّ نضحك منه - فقـال: لا أحسـنُ القِسـمة، فـإن رضـيتم بقسـمَتي قسمْتُها بينكم، قلنا: فإنَّـا نرْضَـى، فأخـذَ رأسَ الدَّجَاجـة فقطعـه فناوَلَنِيه وقال: الرَّأس للرّأس، وقَطَعَ الجناحين وقـال: الجناحـان للابنين، ثـمَّ قطـع السَّاقين فقـال: السَّـاقان للابنـتين، ثـمَّ قَطَـعَ الزَمِكَّي وقال: العجُـز للعُجُـز، وقـال: الَّـزور للزائـر: قـال فأخَـذَ الدَّجَاجـة بأسْـرها وسَـخِر بنـا، قـال: فلمـا كـان مـن الغـد قلـتُ لامرأتي: اشوي لنا خَمْسَ دَجاجَـاتٍ، فلمـا حضـر الغـداءُ، قلـت: اقسم بيننا، قَال: إنِّي أظنُّ أنّكم وجَدْتم في أنفسكم قلنـا: لا لـم نجد في أنفسنا فأقسِم، قَال: أقسِمُ شفعاً أو وِتراً، قلنـا: اقسِـم

وِتراً قالَ: أنت وامرأتك ودَجَاجة ثلاثة، ثمَّ رمى إلينا بدجاجـة، ثُـمَّ قَالَ: وابناك ودجاجة ثلاثـة، ثـمّ رمـى إليهمـا بدجاجـة، ثـمَّ قـال: وابنتاك ودجاجـة ثلاثـة، ثـمّ رمـى إليهمـا بدجاجـة، ثـمَّ قَـالَ: أنَـا ودجاجاتان ثلاَثَةً، وأخذ دجـاجتين وسـخِر بنـا، قَـالَ: فرآنـا ونحـن ننظر إلى دجـاجتيه فقـال: مـا تنظـرون لعلَّكـم كرهتـم قسَـمِتي الوِتر لا يجيء إلاَّ هكذا، فهل لكمْ في قِسمَة الشَّفع? قلنـا: نعـم، فضمَّهنَّ إليه، ثم قال: أنتَ وابنـاك ودجاجـة أربعـة، ورمـى إلينـا بدجَاجَة، ثمَّ قال: والعجوز وابنتاها ودجَاجة أربعـة، ورمـى إليهـنَّ بدجَاجَةٍ، ثمّ قالَ: أنَـا وثلاث دَجَاجَـات أربعـة، وضـمَّ إليـه الثَّلاث، ورفَـعَ يـديه إلـى السـماء وقـال: اللّهـم الحمـد، أنـتَ فَهَّمتنيهـا.

قول صاحب الكلب على كيس الفروج قال صـاحب الكلـب: أمَّـا قولهمْ: من أعظم مَفاخِر الدِّيك والدَّجَاج على سائر الحيوان، إنَّ الفَرُّوج يخرج من البيضة كاسـيا يكفِـي نفسـه، ثـمَّ يجمـع كيْـس الخِلقة وكيْس المعرِفة، وذلك كلُّه مع خُروجـه مـن البيضـة فَقـد زعم صاحبُ المنطق أنَّ ولد العنكبوت يأخـذُ فـي النَّسـج سـاعةَ يُولد، وعملُ العنكبوتِ عملٌ شاقٌ ولطيفٌ دقيق، لايبلغه الفَـرُّوجُ ولا أبو الفَرُّوج على أنّ ما مـدَحوا الفـرُّوج بـه مـن خُروجـه مـن

البيضة كاسياً، قـد شـرِكه فـي حـاله غيـرُ جِنسـه، وكـذلك ذَوات الأربَـع كلها تُلـد كواسِـيَ كواسـب، كولـد الشـاء، وفِـراخ القَبـجِ والدُّرَّاجِ، وفراخ البطِّ الصِّـينيِّ فـي ذلـك كلِّـه لاحقـةٌ بالفراريـج، وتزيدُ على ذلك أنَّها تزداد حُسـناً كلَّمـا كِـبرت، فقـد سـقط هـذا الفخـــر.

شعر هزليّ في الديك ومن الشِّعر الـذي قيـل فـي الـدِّيك، ممَّـا يُكتَب للهزْل وليس للجِدِّ والفائدة، قولُ أبي الشَّمَقْمَق:

أمُّ حُـصَـيـنٍ قَرْجاً رَجِيبـاً فـيه بَـــطٌّ ... ثمَّ قالت: مَن يَنِـيك مِثلَ صَحراء العَتيكْ فيه دُرّاجٌ ودِيكْ

حديث صاحب الأهواز عن العرب قال: وممَّـا فيـه ذِكْـرُ الـدَجَاج وليس من شِكْل ما بنَينا كلامَنا عليه، ولكنَّهُ يُكتَـب لمـا فيـه مـن العجب، قال: قال الهامَرز، قال صاحب الأهـواز: مـا رأينـا قومـاً أعجب من العَرَب أتيتُ الأحنفَ بنَ قيسٍ فكلَّمته فـي حاجـةٍ لـي إلى ابن زياد، وكنتُ قد ظلمت في الخَراج، فكلَّمَه فأحسَنَ إلــيّ وحطّ عنِّي، فأهدَيْتُ إليه هدايا كثيرةً فغَضِـب وقـال: إنَّـا لا نأخُـذُ على مَعُونتِنا أجراً فلمَّـا كنـتُ فـي بعـضِ الطريـق سـقطتْ مـن ردائـي دَجاجـةٌ فلحقنـي رجـلٌ منهـم فقـال: هـذهِ سـقطتْ مـن

ردائك، فأمرتُ له بدِرْهَمٍ، ثمَّ لحِقني بالأُبُلَّة فقال: أنا صاحبُ الدَّجاَجة فأمرْتُ لَهُ بدراهم؛ ثمَّ لحقني بالأهواز فقال: أنا صاحب الدَّجاجة فقلت له: إن رأيتَ زادي بعد هذا كلِّه قد سقط فلا تُعْلمِني، وهُوَ لك.

جرو البطحاء قال صاحب الكلب: كان يقال لأبي العاصي بن الربيع بن عبد العُزَّى بن عبد شمس، وهو زوج زَينبَ بنتِ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ولأخيه كنانة بن الرَّبيع: جرْوُ البطحاء.

المورياني أسطورة البازي والديك قال صاحب الديك لصاحب الكلب: وسنضرب لك المثلَ الذي ضَرَبه المورِيانيُّ للدِّيك والبازي: وذلك أنَّ خلاَّد بن يزيدَ الأرقط قال: بينما أبو أيُّوب المورِيانيُّ جالسٌ في أمْره ونهيه، إذ أتاه رسولُ أبي جعفرٍ فانْتُقِع لونه، وطارت عصافيرُ رأسِه، وأَذِن بيومِ بأسه، وذعِر ذعراً نقَضَ حُبْوته، واستطار فؤاده، ثمَّ عاد طلقَ الوجْه، فتعجَّبنا من حالَيه وقلْنا لَهُ: إنَّك لطيفُ الخاصَّة قريبُ المنزلة، فلمَ ذهب بك الذُّعْر واستفرَغك الوَجل? فقال: سأَضرب لكم مثلاً مِنْ أمثال الناس. زعموا أنَّ البازيَ قالَ للديك: ما في الأرض شيءٌ أقلُّ وفاءً منك قالَ: وكيف? قالَ: أخذَكَ أهلكَ بيضةً فحضَنُوك،

ثمَّ خرجتَ على أيديهم فأطعمُوكَ عَلَى أكفِّهم، ونشأتَ بينهم، حتَّى إذا كبرتَ صرتَ لا يدنو منك أحدٌ إلاَّ طرتَ هاهنا وهاهنا وضَجِجْتَ وَصِحت، وأُخِذتُ أنا من الجبال مسنّا فعلَّموني وألَّفوني، ثمَّ يخلَّى عَنِّي فآخذُ صيدي في الهواء فأَجيءُ بِهِ إلى صاحبي، فقال له الدِّيك: إنَّك لو رأيتَ من البُزاة في سَفافيدهم مثلَ ما رأيتُ من الدُّيُوك لكنتَ أنفَرَ منِّي ولكنَّكم أنتمْ لو علمتم ما أعلَم، لم تتعجَّبوا من خوُفي، مع ما ترونَ من تمكُّنِ حالي.

استجادة الخيل والكلاب قال صاحب الكلب: ذكر محمَّد بن سلاَّمٍ عن سعيد بن صَخْر قال: أرسل مسلمَ بن عمرو، ابن عَمٍّ لَهُ إلى الشَّام ومِصر يشتري لَهُ خيلاً، فقال له: لا علم لي بالخيل - وكان صاحبَ قنْص - قال: ألستَ صاحبَ كلاب? قال: بلى، قال فَانْظرْ كلَّ شيءٍ تستحسنه في الكلب فَاستعمله في الفَرَس، فقدِم بخيلٍ لم يكنْ في العرَب مثلُها.

حاجة اَلديك إلى الدجاجة قال محمَّد بن سلاّم: استأْذنَ رجلٌ عَلَى امرأةٍ فقالت له: مَاله من حاجةٍ، قالت الجارية: يريدُ أن يذكر حاجة، قالت: لعلها حاجة الدِّيك إلى الدَّجَاجَة.

هرب الكميت من السجن متنكراً بثياب زوجه محمَّد بن سلاّم

عن سَلاّم أبي المنذر قَالَ: حبس خالدُ بن عبد اللّـه الكميـتَ بـن زَيْد، وكانت امرأتُـه تختلـف إليـه فـي ثيـابٍ وهَيئـة حتَّـى عرَفهـا البوَّابُونَ، فلبسَ يَوْماً ثيابَهـا وخـرج عليهـم، فسـمَّى فـي شِـعره البوَّابين النَّوابحَ، وسمَّى خالداً المُشْلي:

خروجَ القِدْحِ قدحِ ابنِ على الرَّغْم من تِلْكَ النَّوابحِ والمشلي
ثِيابُ الغانِـياتِ وتـحـتَـهـا صَرِيمةُ عَزْمٍ أشْبَهَتْ سَلَّة النَّصْـل.

فتيا الحسن فـي اسـتبدال الـبيض قـال: وأخبرنـا خَشْـرَم قـال: سمعتُ فلانـاً البقَّـالَ يسـأل الحسـنَ قَـالَ: إنّ الصـبيان يـأتُونَني ببيضَتين مكسورتين، يأْخذون منِّي صحيحةً واحدة، قال: ليس به بأْس أرحام الكلاب محمّد بن سلاّم عن بعض أشياخه قال: قـال مُصعَب بن الزُّبير علـى منـبر مسـجد البصـرة، لبعـض بنـي أبـي بكْره: إنما كانت أمُّكم مثلَ الكلبة، ينـزُو عليهـا الأَعفـر والأسـودَ والأبقَع، فتؤدي إلى كلِّ كلب شِبْهَه، هذا في هذا الموضع هِجـاء، وأصحابُ الكلاب يرون هذا من باب النَّجابة، وأنَّ ذلك من صِـحّة طِبـاع الأرحـام، حيـن لا تختلـط النُّطَـف فتجيـء جـوارح الأولاد مختلفـــــــــــــــــــة مختلطـــــــــــــــــــــة.

من وصية عثمان الخياط للشطار وقال صاحب الكلب: في وصّية عثمانَ الخيَّاطِ للشُّطَّار اللُّصوص: إيَّاكم إيّاكم وحبَّ النِّساء وسماعَ ضربِ العود، وشربَ الزَّبيب المطبوخ، وعليكم باتِّخاذ الغِلْمان؛ فإنَّ غلامَك هذا أنفعُ لك من أخيك، وأعونُ لك مِنْ ابنِ عمّك، وعليكم بنَبيذ التَّمر، وضرب الطُّنْبور، وما كان عليه السلف واجعلوا النّقل باقلاّء، وإن قدَتم على الفُستقِ، والرَّيحان شاهَسْفَرَم، وَان قدرتم على الياسمين، ودَعوا لُبس العمائم وعليكم بالقِناع، والقَلَنْسوة كُفْر، والخف شِرك، واجعل لهوَك الحَمَامَ، وهارِش الكلابَ وإِيَّاك والكباشَ واللَّعِب بالصُّقورة والشَّواهين، وإيَّاكم والفهودَ، فلما انتهى إلى الديك قال: والدِّيكَ فإنَّ لَهُ صبراً ونجدة، وَرَوَغانا وتدبيراً، وإعمالاً للسِّلاح، وهو يبهر بهر الشُّجاع. ثم قال: وعليكم بالنَّرد ودعوا الشِّطْرَنج لأهلها، ولا تلعبوا في النَّـرْد إلا بالطويلتين، والودَعُ رأس مالٍ كبير، وأوَّل منافعه الحذق باللَّقْف. ثمَّ حدَّثهم بحديث يزيد بن مسعود القَيسيّ.

كراهية الكلب الأسود البهيم وقال صاحب الديك: ذكر محمَّد بن سلاَّم عن يحيى بن النضر، عن أبي أميّة عبد الكريم المعلِّم

كتاب الحيوان
الجاحظ

قال: كان الحسنُ بن إبراهيم يكرَهُ صيدَ الكلـبِ الأسـودِ البهيـم.

قصيدة ابن أبي كريمة في الكلب والفهد وأنشد صـاحبُ الكلـب

قولَ أحمد بن زياد بن أبي كريمة في صفة صَيْدِ الكلب، قصـيدة طويلة أوّلُهَا:

غمامٍ مَزَّقـتْ عـن سـمـائه حصَّاءُ جُـون الـسَّـحـائبِ

طَلَـق لـم يردِّد جَـهـامَـه أرْواح الصَّبـا والـجـنـائب

وأثوابُ الدُّجى قد تقـلَّـصَـتْ لغرَّة مشهور من الصبُّح ثـاقـب

ناعِي اللـيل حـتَّـى الدُّجَى في الفجر قنديلَ راهب

لا يَثـنـيهـم عـن عـزيمة وإن كان جَمَّ الرشدِ، لوْمَ الـقـرائب

غضْفٍ كالـقِـداحِ لـطـيفةٍ مُشرَّطةٍ آذانـهـا بـالـمـخـالـبِ

سِياطاً في صلاهـا مَـنُـوطَةً طوال الهوادي كالقداح الـشـوازب

افتَرَشَتْ خَبتاً أثـارتْ بـمـثْـنِـه عجاجاً وبالكَذَّان نارُ الـحَـبـاحِـب

خُطاها الطّرْفَ سبقاً الهَوادي لاحَهـا كـلّ سهامُ مُغال أو رُجـومُ الـكـواكـب

بطامسة الأرجاءِ مَرْتِ المـسـارب

من الأَحراج تنـسَـلُّ كُـلَّـمـا رأتْ شَبَحاً لولا اعتراضُ المناكـب

ف وتُوفى كلَّ نَـشْـزٍ مرابِضَ أبناءِ الـنِّـفـاق الأرانـبِ

وفَـدفـدٍ بها ذعراً، يُطِـير قُـلـوبَـهـا أنينُ المَكَاكي أو صريرُ

كتاب الحيوان
الجاحظ

عيوناً رُكِّبت في بَراطِلٍ كجْمر الغَضى خُزْراً ذِرَابُ الجَنادبِ
استُحِثّتْ لم يُجِنّ طَريدَها لهنَّ ضَراءٌ أو مجارِي المَذَانبِ
باصها صَلْتاً مدَى الطّرفِ أمسكَتْ عليه بدُون الجُهد سُبلَ المذاهب
تَفَرَّى الأُهبُ عنها إذا انتحت لنبّأة شَخْتِ الجِرْم عاري الرَّواجبِ
غصون الخيزرانِ مُثُونُها إذا هي جَالت في طِرادِ الثَّعالب
عن أنيابهنَّ كوالحٌ مُذَلّقة الآذان شوس الحواجب
بناتِ القَفْرِ حِينَ تفرّقتْ غَدَونَ عليها بالمنايا الشّواعبِ

ثم وصف الفهود:

أبغي الصّيدَ طوراً وتُلْحِظَةِ الأكْفالِ رُحْبِ التَّرائب وتُخْطِئُ
الأذنابِ نُمْرٍ ظهورُها مخطّطةِ الآمَاقِ غُلبِ الغَواربِ
وُرْقٍ كأنّ عيونها حَواجِلُ تستَذْمى متونَ الرّواكب
قلَّبتها في الفِجاج حسبتها سَنا ضَرَمٍ في ظُلمةِ اللَّيل ثاقبِ
فطح الجِباهِ عوابسٍ على أشداقِها خطَّ كاتبِ
نَواصِب آذان لِطَافٍ كأنّهَا، للإجْراسِ من كلِّ جانبِ
أشافٍ رُكِّبت في أكُفِّها في صُمِّ الصُّخورِ نَواشِبِ
بلا ترهيفِ قَينٍ كأنّها أصداغِ المِلاح الكواعِب
فوارسُ مَالم تلق حَرْباً، ورَجْلةٌ إذا آنسَتْ بالبِيد شُهبَ الكتائب
وَتَسْكِينٌ يَكُونُ دَريئةً لهنَّ بِذي الأَسْرابِ في كلِّ لاحِب
حتّى لا تكادُ تُبِينُها لدى الصرَّات غير كواذبِ

يَفوت البرقَ أمكثُ ضِراءٌ مِبَلاّت بطول التَّجـارب
أجْـيادَ الـفَـرَائِس مرَمّلةً تحكى عناق الـحَـبـائب

سهل بن هارون وديكه قال دِعْبلٌ الشاعر: أقمنا عند سهل بن هارونَ فلم نبرحْ، حتّى كدنَا نموتُ من الجوع، فلما اضطررناه قال: ياغلام، ويْلَك غدِّنا قال: فأُتِينا بقَصعةٍ فيها مرقٌ فيهِ لحمُ ديك عاسٍ هرم ليس قبلَها ولا بعدَها غيرُها لا تحزُّ فيه السكين، ولا تؤثِّر فيه الأضراس، فاطّلع في القصعة وقلّب بصرَه فيها، ثمّ أخذ قِطعةَ خبزٍ يابس فقلّب جميع مَافي القَصعة حتَّى فقد الرأس من الدِّيك وحده، فبقي مطرِقاً ساعَةً ثمَّ رفع رأسه إلى الغلام فقال: أين الرَّأس? فقال: رميتُ به، قال: ولم رميت به? قال: لِم أظنّك تأكله قال: ولأَيِّ شيءٍ ظَننتَ أنِّي لا آكلُه? فواللّه إنِّي لأَمقتُ مَن يرمي برجليهِ فكيف من يرمي برأسه? ثم قال لَهُ: لو لم أكرهْ مَا صنَعتَ إلاّ للطِّيَرةِ والفأل، لكَرهْتُه الرأس رئيسٌ وفيهِ الحواسُّ، ومنه يصدَح الديك، ولولا صوتُه ما أُرِيدَ؛ وفِيهِ فَرقُه الذي يُتبرّك به، وعَينُهُ التي يضرب بها المثل، يقال: شرابٌ كعين الديك، ودِمَاغُه عجيب لوجَع الكلية، ولم أرَ عَظماً قَطُّ أهشَّ تحت الأسنانِ من عَظْم رأسِهِ، فهَلاّ إذْ ظننتَ أنِّي لا آكلُه، ظننتَ أنّ العيال يأكُلُونه? وإنْ كانَ بلَغَ من نُبْلِك أنّك لا تأكلُه، فإنّ عِنْدَنا من يأكُلُه، أوَ ما علمتَ أنّه خيرٌ من طَرَف الجَناحِ، ومن السَّاق والعنق انظرْ أين هو? قال: واللّه ما أدري أينَ رميتُ بِهِ قال: لكنِّي أدري أنّك رمَيت بِهِ في بطنك، واللّهُ حَسيبك.